استرسال

تقاسيم روائية

تأليف

سعيد سالم

٢٠١٧ م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

obeikan.com

دار المعارف
تأسست سنة ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
(رواية)

سالم، سعيد.
استرسال: تقاسيم روائية/ تأليف سعيد سالم.
القاهرة: دار المعارف، 2017.
288 ص، 19.5 سم
تدمك 9 8590 02 977 978
1 – سالم، سعيد – المذكرات.
تصنيف ديوى: 920
رقم الإيداع: 13668/ 2017
رقم أمر التشغيل: 36/ 2017 /1
رقم الكونجرس: 9 – 840520 – 01 – 2

تصميم الغلاف:
دينا محمد موسى

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikan.com

مقدمة

اتصل بى محام مشهور من القاهرة طالبا سرعة الحضور إلى مكتبه لأمـر عاجل وخطير وفى غاية الأهمية. ماذا ينتظر مهندس متقاعد راض بمعاشه الشهرى من مفاجآت مهمة وقد رتب حياته على قدر دخله فى رضا وقناعة. كل ما كنت أملكه من مدخرات أنفقتها على أولادى الثلاثة حتى تزوجوا وأصبح كل منهم مسئولا عن نفسه. لا مدخرات بنكية ولا أراضى ولا عقارات ولا أطيان ولا صكوك نقدية فى أى صورة من صورها والحمد لله.. أصبحت كما يقولون فى الأمثال الشعبية على الحميد المجيد، وإن كان هذا لا يزعجنى فى شىء على الإطلاق.

ياه!!.. أمر عاجل وخطير وفى غاية من الأهمية؟!!..

لم يعد فى حياتى ما يدعو إلى الاهتمام أو الإثارة من مفاجآت متوقعة أو غير متوقعة. اتصالاتى بالناس انكمشت وصارت محدودة للغاية. كلما مر الوقت تمكنت منى حالة الاستغناء التى رحت أدرب نفسى عليها بحثا عن سكينة النفس وتحررا من رغبات الحياة وشهواتها ومغرياتها وخاصة تجارب الحب العديدة التى عشتها وسعدت بها ابتداء من زوجتى وانتهاء بمريم التى كنت أدللها بماريا. بدأت فى إغلاق كل دفاترى القديمة الواحد تلو الآخر محاولا ترك الدنيا من خلفى حتى لا تكون أمامى فأركض من جديد

وراءها بعد أن شبعت فيها ركضا وهرولة دون أن أجنى فوق ما قدر لى. الشهوة الوحيدة التى تبقت لى حتى الآن هى شهوة الطعام، ورغم ذلك فأنا أحاول – ولو أننى أجد صعوبة شديدة فى ذلك – أن أقلل من حدتها قدر المستطاع، فالمشكلة أننى أحب جميع أصناف وأنواع الطعام والمأكولات والمشروبات التى خلقها ربنا. أما لذة التدخين – ومشتقاته – فقد حرمت منها بعد إصابتى بضيق فى الشرايين. حتى البيرة امتنعت عنها بعد أن أديت فريضة الحج برغم حبى الشديد لها. ظللت ممتنعا عنها لعدة سنوات دون أن تغيب عن بالى أو أن ينتهى شوقى وحنينى إليها. استمر الحال كذلك حتى استمعت إلى فتوى من أحد علماء الدين تبيح خمر الشعير مادام شاربها لا يصل إلى حد السكر، ولسوف أحكى حكايتى مع البيرة تفصيليا ضمن الاسترسال.

علاقاتى النسائية توقفت منذ سنوات عديدة. لم يتبق لى من النساء غير قلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكلهن أصبحن عندى فى مقام أخواتى تماما، ليس عن ملائكية وفضيلة، وإنما هو فعل الزمن الذى تولى عنى بغدره المعهود إزاحة ما تبقى لدى من رغبة فى الجنس الجميل الآخر.

تبقى متعة الإبداع والتى كثيرا ما أعتبرها شهوة كسائر الشهوات..

غير أن قريحتى قد بدأت تجف فيما يبدو، إذ توقفت عن الإبداع منذ ما يزيد عن خمس سنوات، لاقتناعى بأنه لم تعد لدى فكرة

جديـدة أو موضوعا مثيرا يسـتحق الكتابة. فـى ذلك الحين بدأت تهاجمنى موجات اكتئابية حادة خشـيت علي نفسى من عواقبها. نصحنى نديم قبل سـفره بأن أتسلى بالاسترسال فى كتابة ذكرياتى عـن حكايات الصبا والشـباب حتـى لا يتوقف قلمى عـن الكتابة وأستعيد توازنى النفسى من جديد.. وجدتها فكرة رائعة فاستجبت لها علـى الفور، ورحت أسترسـل فى تلك الحكايـات – كما جن ورع – بغير ضوابـط أو حـدود، ولقد وجدت فى ذلك الاسترسـال متعـة فائقة لم أجربها من قبل فى كتاباتى السـابقة، خاصة أننى رحـت أكتب بغير قيـد زمانى أو مكانى قد يعـوق تدفق الأحداث والمشاعر والأحاسيس فى تلقائية صافية..

***

obeikan.com

الفصل الأول

حكايات الصبا والشباب

• **صغير وسط الكبار:**

فى طفولتى وضعت فى مأزق غير عادى لا ناقة لى فيه ولا جمل. ذلك أننى لم أجد من الأصدقاء بين أبناء الحى من يقاربنى فى السن، كان معظمهم يكبروننى بسنوات وسنوات. أصغرهم كان من جيل أخى نديم الذى يكبرنى بأربعة أعوام. عندما كانت تجمعنا مظلة الشاطئ كل يوم كانت تترامى إلى مسامعى كلمات غريبة فى موضوعات تتجاوز إدراكى الذهنى. غير أن هناك موضوعا واحدا من بين هذه الموضوعات هو الذى استأثر باهتمامى ومحاولة تفهمى لكل ما يقال عنه من قصص ومغامرات. إنه الحب. كلمة كان لها وقع السحر على أذنى. تستهوينى قصص الغرام التى كان الشباب يروونها، بغض النظر عن كونها حقيقة حدثت أم تهويمات من وحى الخيال ينفسون بها عن رغباتهم المكتومة، ويتبارون بها لإثبات دونجوانيتهم الزائفة. لقد ترتب على هذا الخلل القدرى أمور عديدة أربكتنى وأرهقتنى فى البداية، لكن دأبى وإصرارى على أن أكون ندا لهؤلاء الكبار دفعنى إلى الفضول والقراءة وحب المعرفة حتى أتمكن من فهم كل ما غمض علىّ من موضوعات ..

ومرت سنوات حتى جاء على يوم شعرت فيه أننى قد تجاوزت هؤلاء الكبار فى الكثير من الأمور، بل وكنت أرى أحيانا فى نفسى الكبير وفيهم الصغار.

فهمت الحب ورأيته وأحسست به فى مظاهر عديدة. فى حضن أمى. فى سمكة تتراقص بصنارتى. فى نورس يحط على صخرة. فى عصفورة تلتقط حبة. فى فتاة ترقص على أنغام أغنية. فى ابتسامة طفل صغير. فى قبلة ساخنة لحبيبة القلب. فى موج البحر. فى ضحكات أمى الحنون وأنا أمرح بين أخواتى وإخوتى. فى عود الخال حنفى. فى عمل أتقنه. فى نجاح أحققه. فى قصيدة شعر. فى لوحة تشكيلية مؤثرة. فى صديق يهتم بأمرى ويشاركنى الأفراح والأتراح. الخلاصة أننى أحببت الحياة وكنت أتفنن فى البحث عن الحب فى كل مكان وفى كل وقت وفى كل شىء دون أن أدرى. تمنيت أن أحب وأحب حتى الشيخوخة. أصبحت على يقين من أننى حين أموت فسوف أموت شهيدا للحب لا لسبب آخر.

• البحر:

تعطينى أمى نصف فرنك وهو عملة مسدسة الشكل تساوى قرشين، ومعها مصفاة مستديرة وتقول لى:

– هات لنا سمك من الجرافة يا وله.

الجرافة هى مركب الصيد التقليدي ذو الشبكة الطويلة التى تلقى فى وسط البحر ثم يسحبها الصيادون بالحبال إلى البر

وسط تزاحم الصبية والنساء على الشاطئ بانتظار تفريغ محتوياتها من الأسماك والكابوريا والجمبرى والمحراث، كل يحمل مصفاته أو غلقه. لم تكن الأكياس البلاستيك قد وجدت فى ذلك الوقت. أعود بمصفاتى محملة بالمرمار والشراغيش والبطاطة والعديد من أصناف الأسماك الأخرى مختلطة بالرمال والأعشاب والطحالب الخضراء.. غير أنى أشعر بسعادة غامرة حين يكون السمك من صيدى لا من الجرافة.

أنزل من البيت بلباس البحر. أتجه مباشرة إلى الشاطئ. ألف حول وسطى خيوطا من أشعة الشمس وأفرج عن ضوء القمر الكامن فى صدرى وأطلق نجوم السماء فى أعماق الماء بحثا عن عروس البحر التى تنتظرنى من الأزل دون أن أعرف السبيل إلى وصل يجمعنا بلا فصل.. عاشق أنا للبحر بأمواجه وأسماكه وعرائسه وجنياته ورائحة أعشابه وتقلبه من حال إلى حال. أسبح فى الماء كسمكة مكهربة حتى أصل إلى الجزيرة الصغرى ذات الصخور الملونة، فالجزيرة الكبرى ذات الصخور السوداء لا يجرؤ على السباحة إليها إلا الكبار. أتسلق صخور الجزيرة فى نشوة وثقة حتى أعتلى قمتها. أستخرج «الأورمة» من جيب المايوه وأستخرج الصنارة من جسدها الفلينى، وأسحب شعر الصيد الملفوف حولها بدءا من قطعة الرصاص الصغيرة التى يتفرع منها فرعان بكل فرع صنارة.. أنا أستطيع أن أغير هذا العالم المحيط بى وسأغيره حقا بعد أن أستجلب لنفسى وبنفسى كل أدوات التغيير

المطلوبة. أنا أستوعب الكثير من أسرار الكون التى لا يعرفها الكبار ولكنى لا أستطيع التعبير عنها بالكلمات، فأنا صغير فى اعتقادهم ولكنى أكبرهم بمئات الأعوام ولو حدثتهم عن الهواتف الغامضة التى تخاطبنى، ما صدقونى بحال من الأحوال.. الله وحده يصدقنى فهو الذى استودعنى تلك الأسرار.

أستخرج الطعم من الجيب الآخر. قليلا ما أشترى البرغوث – الجمبرى الصغير – لأنى أفضل عليه ديدان الصخور الحمراء التى أستخرجها بيدى من تحت الحجارة القابعة على الشاطئ والتى يصلها قليل من ماء البحر سواء فى المد أو الجزر. الديدان لا تكلفنى شيئا أما البرغوث فيكلفنى قرشين وهو مبلغ ليس بالهين. يسعدنى كثيرا أن أشم رائحة العطن التى تفوح من تحت الطوب حين أرفعه. أنبش الرمال بيدى وأظل أحفر حتى تظهر الديدان فى العمق وهى تتصارع ملتفة حول بعضها بعضا من بين الأعشاب المطمورة فى التربة الطينية الرطبة. أتعجب للقتال الوحشى الدائر بين هذه الديدان والذى لم أكن أتصوره قبل أن أرفع الطوبة. يدهشنى أن يدور هذا القتال على الأعشاب المستقرة فى باطن الأرض العطنة المغطاة بالأحجار دون أن يدرى به أحد. لو زادت كمية الماء أو نقصت عن هذا القدر اليسير تحت الطوب لما ظهرت الديدان فهى لا تعيش إلا على العطن.

لم أكن أستوعب كطفل فى السابعة مغزى ذلك الصراع الجهنمى، كما لم أكن أعرف بالطبع أن مشهد الديدان المتقاتلة

سيظل عالقا بذهنى وذاكرتى حتى ينطلق من لسانى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما حين قلت فى محفل ثقافى:

– أنتم يا كتاب الإسكندرية وأمثالكم من كتاب الأقاليم المهمشة تتشنجون وتتناحرون على لاشىء دون أن يشعر بكم أحد، بينما يستقر «أنجر» الفتة فى العاصمة وحدها بعيدا عن عيونكم وأياديكم، ليخطف منه من يشاء ما يشاء كل حسب قدرته على إزاحة الأيادى الأخرى المتدافعة إلى قلب الأنجر القاهرى.

أستقر على الصخرة وألقى بالصنارتين بعيدا قدر استطاعتى. الصيد بالأورمة يختلف تماما عن الصيد بالبوصة. لكل خبرته ومهارته لو استبعدنا منطق الحظ ومفهوم الرزق. يباغتنى ملك البحار الذى لم يره أحد فى هذا العالم غيرى. يجلس بجوارى على الصخرة. يعلمنى كيف أسبح لله وأحمده. يهمس فى ضميرى أن كل شىء فى هذه الدنيا إلى زوال، وأن الانسان بكل جبروته مصيره النهائى إلى التراب لتأكله الديدان.

أجمع فى «غلق» صغير ما اصطدته من مرمار وبطاطة وشراغيش وعروس. أفكر فى خال أمى – حنفى – الذى يترك أى طعام تجهزه له أمى ولا يأكل إلا السمك الذى أصطاده بعد أن تقليه فى زيت التموين الحكومى الغامق. تسعدنى فرحته البالغة حين أريه ما اصطدته وأفرح برضاه عنى. خالى حنفى– كما أناديه – لا يأكل أسماك النيل كالبلطى وغيره فهو يعشق أسماك البحر ويظل يقلبها

بيديه قبل قليها فى نشـوة بالغة بينما هى قابعة فى الغلق يتقافز من بقى منها على قيد الحياة بين بقايا العشب الأخضر الداكن المائل إلى السـواد. أما عشقه الأكبر فهو أصداف الجندوفلى التى أصطادها له خصيصا من أعماق الميناء الشرقى. أكتم نفسى وأغوص حتى القاع. أغـرس يدى فى «القرار» تحت رمل المناطق التى تغمرها الأعشـاب حيث تكثر الريتسة وأصداف الجندوفلى وأم الخلول. عندما أحتاج إلى الأكسـيجين أطفو إلى السـطح وأضع صيدى فى الغلق المربوط إلى كتفى ثم أغوص من جديد. كل ما أطمع فيه هو أن يرضى عنى الخال حنفى فيعزف لى البشارف والسـماعيات القديمة على عوده القديم المرصـع بالصـدف. رغم أنه تجـاوز الثمانين إلا أنـه يلتهم أطباقا كاملة من السـمك والجندوفلى غير واضع فى اعتباره من يشاركونه الطعـام، لا عن نهم أو أنانية ولكن عن غفلة الشـيخوخة البريئة، وممارسة الشـهوة الوحيدة المتبقية له من الحياة، مرددا فى سعادة بالغة:

– عفارم عليك يا صمير.

وصمير هذه تعنى سمير، فهو لا يستطيع نطق اسمى إلا بحرف الصاد. كانت أمى قد غيرت اسمى بعد موت أبى من سعيد إلى سمير حين تناقض عندها مدلول السعادة مع وفاة الزوج والحبيب.

قبل أن يبدأ فى تناول الطعام لابد أن يردد:

– سبحان من حلل الحلال وحرم الحرام.

وبعد أن ينتهى من مسح صحنه عن آخره بشهية شاب فى الأربعين وسط تعجب الجميع وتبادلهم نظرات الدهشة، أسارع بصب الماء له من القلة الفخارية فى كوبه المخصص له. أثناء الشرب يصدر أزيزا قويا من بين لسانه وفمه وحنجرته يعقبه بعبارته التقليدية المكررة فى كل وجبة:

– الله على أكلك الحرش يا تحية.

ثم يصمت قليلا ويتجشأ بصوت مسموع رغم أنه يضع يده على فمه، وشعور بالزهو يسيطر على نظراته وكأنه اختطف من الدنيا فى غفلة منها مغنما كبيرا تتقاتل عليه أمة خلفه. أنظر إليه فيما يشبه التوسل حتى يعجل بالعزف والغناء:

صحت وجدا يا ندامى واصلونى/ أو دعونى إنى صب فى هواكم.

سال دمعى من عيونى/ ذبت من شوقى تماما/ فانصفونى وارحمونى.

إن جننت اليوم فيكم/ فاعذرونى فى جنونى.

وأقدم له القهوة السادة التى تعدها له أمى فور أن يطلبها، ثم يواصل العزف والشدو:

يا من لعبت به شموله ... ما ألطف هذه الشمائل

نشوان يهزه دلال ... كالغصن مايل

لا يمكن الكلام لكن ... قد حمل طرفه رسايل

ما أطيب وقتنا وأهنا ... والعازل غائب وغافل

تهتز أمى وتتمايل طربا مع ألحانه، وأحيانا تصفق بيديها على الإيقاع مرددة معه الكلمات وقد حفظتها عن ظهر قلب. أكاد أطير من الفرحة والسعادة دون أن أعرف السبب. يقول لى هاتفى الذى أسمعه دون أن أراه، إن خلايا الانسان الحقيقى ما هى إلا أنغام موسيقى ومشاعر حب، فأزداد احتراما وعشقا لأمى. فى مرة توقف خالى حنفى عن الغناء وراح يعزف تقاسيما شجية على العود كان تأثيرها فىَّ أقوى من السحر، إذ رأيت نفسى طائرا فوق السحاب بصحبة سرب ملون من الطيور. دهشت حين رأيت قطرات من الدمع تنساب من عينى أمى، لكنى لم أفهم السبب. دائما أرى فى الدموع لغزا يحير عقلى الصغير. السعيد يبكى مثلما يبكى الحزين. الدموع واحدة رغم اختلاف الحال. قال لى الهاتف إن كل متعة يكمن بداخلها عذاب وكل لذة يكمن بداخلها ألم.. غموض الأسرار الكامنة فى صدرى تهدهده نغمات العود الشجية، فأرى الدنيا والكون والحياة والموت والماضى والمستقبل فى صدى تلك الأنغام على روحى المتوهجة بحب الحياة التى لم أفهم بعد معناها الحقيقى.

• الميراث:

علمتنى الأيام أن الملكية هى المصدر الأساسى المثير للخلاف والكراهية بين الناس عامة وبين الأهل خاصة. ميراث صغير لا يزيد عن بيت متواضع فى كوم الدكة يتكون من طابقين ودكان

لبيع الأقمشة كانوا يطلقون عليه آنذاك مانيفاتورة. تسبب هذا البيت فى خلاف شديد وقع بين أبى وعمى، انتهى إلى خصام وقطيعة.

لم أحب عمى إسماعيل كما أحببت الخال حنفى. كنت لا أرتاح لوجهه المستطيل وأنفه المعقوفة وعينيه البارزتين. محاولاته الدائمة للتلطف معى لم تسفر عن شىء. فى العيد كان يعطينى عدة ملاليم جديدة مصنفرة لامعة لا تتجاوز قيمتها قرشين، معتقدا أن لمعان العملة وبريقها الأخاذ أهم عندى من قيمتها الفعلية، والحق أنه كان مخطئا فى اعتقاده. فكرت أكثر من مرة أن أعيد إليه ملاليمه وأطلب جنيها كاملا، لكنى كنت أتراجع خوفا من نظرات عينيه القاسية التى تتناقض تماما مع نظرات الخال حنفى الرقيقة ونظرات أمى الحانية التى كنت أسبح فى حنانها كلما نظرت إلى النجوم فى السماء.

أمى وخالتى متزوجتان من شقيقين. انتقل الخلاف الذى وقع بين أبى وعمى إلى خلاف مناظر بين أمى وخالتى حول نفس الميراث الضئيل. استولى عمى وخالتى على الميراث بأكمله فكانت القطيعة التامة بين الأسرتين. لم يعد عمى يزورنا فى الأعياد منهيا بذلك عهد ملاليمه اللامعة ذات البريق الخداع.

مات أبى وهو فى الخامسة والأربعين. كانت أمى وقتها فى الخامسة والعشرين. قالت لأخى الأكبر كامل:

– أنت الآن رجل البيت المسئول عنى وعن إخوتك.

ومرت السنون.. التحقت نادية بكلية الآداب ونديم بكلية التجارة وكانت كلية الهندسة من نصيبى. سعدية لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية ثم تزوجت. كانت مصاريف الجامعة تلتهم كل ما تكسبه الحاجة تحية وما يكسبه كامل الذى كان يرتعد خوفا من ضياع حبيبته فريدة. عرض على الحاجة الاتصال بالعم ومحاولة الحصول على حقنا منه بأية وسيلة فرفضت الحاجة بشدة أن يتصل أحدنا به ما دامت على قيد الحياة.

كان كامل قد صرح لها بحبه لفريدة بنت الجيران وبأنه يريد التقدم لخطبتها. خاطبته أمى بنبرة رقيقة وإن كانت محملة باللوم والعتاب. أفهمته أنه لم يعد من حقه التمتع برفاهية الأمل فى الحب والزواج بعد أن أصبح عائل الأسرة الأساسى. كانت تختزن الأسى لأجله فى قلبها لإدراكها الغريزى بأحلام الشباب وأمانيه وأحقيته فى حياة طبيعية ينعم فيها بشبابه ويفجر فيها طاقته.

جاء التهديد لكامل من مدرس تقدم لفريدة وكان يستعد للإعارة إلى دولة عربية. أصرت الحاجة على أن نلتحق ثلاثتنا بالجامعة رغم ضيق ذات اليد. كان تصميمها أقوى من الحياة. قالت لكامل:

– لو كانت فريدة تريدك لرفضت العريس وانتظرتك حتى تتحسن ظروفك.

– قالت لى إنها سترفضه:

– وأنا أقول لك إنها ستقبله.

كانت صدمة كامل فى سـرعة زواج فريدة كفيلة بأن تفقده الثقة فى صدق المرأة حين تدوس على قلبها إجلالا للمال.

أما نديم فقد كتم فى قلبه غضبا عارما من فريدة التى كان يضرب المثـل بعفتها وطهارتها، وطلب منا ألا يذكر أحد اسمها مرة ثانية أمامـه. تعجبت من أمره فالمصاب لا يعنيه فى شـىء، ولكنى قلت ربمـا كان غضبه تعاطفا مع أخيه، حـين ردد أمامى مقولة قال إنه سمعها من عجوز، أن «الحرائر والإماء كلهن فى الغدر سواء».

اندفـع كامل فـى علاقات غرامية عديـدة دون حب حقيقى من جانبه. كانت أمى تحذره دائما من التمادى فى هذه العلاقات حتى النهاية المحظورة:

– خلى بالك. الزنى يورث الفقر.

من المؤكد أنه حمّلنا – نحن إخوته – قسـطا كبيرا من مسـئولية ضيـاع حبيبتـه، فلولانا لكان الطريـق أمامه ممهـدا دون عوائق. كنت أشعر أحيانا أنه لم يعد يطيق رؤية أحد منا، خاصة فى بداية أزمته، لكن الأحداث والمواقف أثبتت سوء ظنى به وقد استسلم لقدره وراح يقـوم بدور الأب البديل بالتضامن الـذى لا مفر منه مع أمه.

جنيهاته القليلة لم تكن تغنى ولا تشـبع من جوع، فكانت أمى تساهم بالقسـط الأكبر من دخل الأسـرة بالانكفاء معظم اليوم على ماكينة خياطة قديمة ماركة سـنجر. تصنع الفسـاتين لبنات الحى ونسـائه بمهـارة وإتقان ولا تغالى فى الأجـر. دفعت بأخى الكبير

ندیم إلى العمل المبكر إلى جانب دراسته بالإعدادية. تمنت أن يحصل على الشـهادة الجامعية عوضا عن اضطرار كامل للاكتفاء بالدبلومة المتوسطة التى أتاحت له وظيفة متواضعة بإحدى المصالح الحكومية. عمـل ندیم ممرضا بعيادة أحد الأطبـاء بعد أن خاض امتحان إعطاء الحقن بنجاح. تسـاءلنا جميعا متى وأيـن تعلم ندیم هذه الحرفة، لكنـه كان يعرف كيـف يحصل على القرش بشـرف واجتهاد فى صمت وسرية وغموض. دفعت بى أيضا إلى المشاركة فى إطعام الأسرة فسلمتنى إلى الحاج محمد صاحب مصنع تعبئة الشاى الشهير بشاى القويرى. كنت أتقاضى فى اليوم قرشـين ونصف قرش، وكان ندیم يتقاضى ثلاثة جنيهات فى نهاية كل أسبوع.

فى الليل كانت تتابعنا باهتمام شديد حتى تتأكد من أن كلا منا يذاكر دروسـه رغم عودتنا من العمل مجهدين. التعليم عندها كان أمرا مقدسا لا يحتمل النقاش. كانت على استعداد للتضحية بالغالى والرخيص حتى نكمل تعليمنا.

أسـرتنا بأكملها توارثت العمل الوظيفى أبـا عن جد. لم يظهر بينهـا أحد يدير عملا خاصـا أو يمتلكه، كأنه كتب علينا أن ننضم جميعا إلى قافلة محـدودى الدخل حتى نموت. ندیم كان له موقف آخر يضمره فى نفسـه. أدرك بفطرته أن الوظيفة سـتعلمه الخوف والجبن، حيث يطول عليه الشهر وكأنه دهر فى انتظار اليوم الأول من الشهر التالى حتى يتسلم راتبه المعروف والمحدد بالقرش والمليم.

تنتابه حسرة مؤلمة كلما رأى كاملا ممسكا بقلم وورقة ليوزع راتبه على إيجار المسكن والنور والمياه والمأكل والملبس، فلا يمر شهر واحد دون عجز أو احتياج لما يكمل به أيامه الثلاثين، إما بالاقتراض من قريب أو صديق، وإما بسلفة من العمل مرهونة برضا المدير واقتناعه بقوة الحجة الكاذبة المطروحة عليه للموافقة على السلفة. طالما عبر لى نديم عن شعوره بالذل والإهانة أمام وضعنا الاقتصادى. يقول دائما كلما واجهنا نفس المشكلة:

– الحل مرهون بمغادرة هذا البلد.. لو بقيت فيه فسوف أصبح مثلكم.

يتحدث عنا كما لو كان قد خلق من عجينة أخرى. يخيل إلىَّ أنه يرى الفقر مجسدا فى صورة كيان مادى مرئى ومسموع ومحسوس، وأنه قد كتب عليه قتاله حتى الموت بلا بديل آخر.. وأتساءل يا إلهى لم خلقت أناسا فقراء وآخرين أغنياء. ما حكمتك فى ذلك وأنت الحكيم الخبير. أتذكر قول جلالته فى حديثه القدسى: «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك». أدرك الهاتف حيرتى فهمس لى محذرا:

– لا تجهد ذهنك يا سعيد فيما لا يفيد، فوراء كل ذلك حاكم عادل مهما عجزت عن فهمه.

قال لى نديم:

– من المؤكد أننى لن أستطيع مواصلة الحياة بهذه الكيفية. أنا لم أخلق لأكون موظفا مستسلما لثوابت المرتب والعلاوة

ومؤامرات الموظفين وضيق ذات اليد والوقوع تحت أسر المقارنة البغيضة بين حالتى وحالة أولئك الغارقين فى تخمة الثراء ومتعته ونعيمه. بقائى فى وظيفة ثابتة فى مصر لن يحقق لى أحلامى العريضة فى الارتقاء والصعود كى أحقق ما تصبو إليه ذاتى الطموحة العادلة. تقول لى يا سعيد إن الانتماء إلى الوطن ما هو إلا وثيقة مواطنة موقعة من طرفين هما الوطن والمواطن، فإذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبحت الوثيقة لاغية وتبدد الانتماء. أنا أتفق معك فى الرأى، لكنى لا أريد الانتماء لوطن لم يوقع معى على وثيقتك الوهمية. وطن مرتبك فى كل شىء. لماذا لا أعيش فى قصر به حمام سباحة مثل فلان وعلان ممن يفلقوننا بأحاديثهم الكاذبة عن الوطن والوطنية؟.. «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟»..

الفساتين التى كانت تصنعها أمى كانت تجلب لنا القسط الأكبر من دخلنا الشهرى. مساهماتى أنا ونديم كانت – برغم ضآلتها – شديدة الأهمية عندها لأنها كانت تدرك أنها تصنع منا رجلين صغيرين يمكن الاعتماد عليهما حين يكبران وقد تعودا تحمل المسئولية.. كما أن تلك المساهمات لم تكن منتظمة كشأن راتب كامل وفساتين الحاجة تحية، فنديم طرد من العيادة بعد اتهامه بسرقة شىء من العيادة لا أتذكره. يومها بكت أمى قهرا فقد كانت واثقة من أمانة ابنها.. ولما اكتشف الطبيب براءته وعرف اللص الحقيقى جاء إلى الحاجة معتذرا، لكنها عاملته بجفاء شديد ولم تقبل اعتذاره وانصرف آسفا مندهشا.

امتنـع نديم عـن الطعام والكلام لمـا يقرب من يـوم كامل عقب زواج فريدة مباشـرة. صب جام غضبه مـن الحياة على جنس المرأة واصفـا إياهـا بالحقارة والنفعيـة والانتهازيـة، وبأنها لا تعرف غير مصالحها ورغباتها. تعجبت من وجهة نظره الغريبة فى المرأة والتـى فجرها فجأة على غير توقع رغم أن أمر فريدة لم يكن يعنيه فى شىء. تكوم فى سريره صامتا عازفا عن الجميع. كان شروده فى ذلـك اليوم مخيفا حتى ظنت أمى ومعها كامل أنه قد أصيب بصدمة عصبية عنيفة قد تتسـبب فى أذيته، ومـن ثم فلا مفر من أخذه إلى المستشفى ليتم الكشف عليه.

فوجئنا به فى اليوم التالى سـعيدا باسما يأكل بشـهية مفتوحة وكأنما أهتدى إلى الحل النهائى لمشـكلته مع الفقر والحياة. تمنيت لـو دفعت عمرى ثمنـا لمعرفة ما يدور بعقل هـذا الكائن الغريب، لكنه أبدا لا يفصح عن مكنون نفسه لأحد إلا فيما ندر.

أما أنا فقد ذهبت فى أحد الأيام متأخرا بخمس دقائق عن موعد العمل فشتمنى الحاج محمد قائلا:

- يخرب بيت أصحابك.

سـألت جارتى بركن التعبئة الذى نعمـل به عن معنى مقولته. أفهمتنـى أن المقصود بهؤلاء الأصحاب هم أهلى أى أبى وأمى. رغم أنى غليت غضبـا إلا أنه لم يخطر ببالى أن أضحى بهذا العمل الذى يدخل إلى البيت قرشـين ونصف كل يوم. ولما عدت إلى البيت كاتما

بصدرى ما حدث، تفحصتنى نظرات أمى الثاقبة فأدركت ما بى من غم واستنطقتنى بما حدث. قالت لى بحسم رائع:

– من بكرة تلزم بيتك.

كانت فرحتى بقرارها عارمة، إذ أشعرتنى بأن قيمتى عندها غالية، وأكبر من أن تتعرض للسباب من عجوز أحمق مغتر بماله. حاولت أن أعوضها عن القروش المفقودة فارتديت ملابس البحر وعلقت الغلق على ذراعى استعدادا للصيد. اعترضت طريقى قائلة فى حنان:

– البحر هائج اليوم يا بنى.

– لا تخافى يا أمى أنا سباح ماهر.

– كلمة واحدة. اخلع هذه الهدوم واقعد ذاكر لك كلمتين.

فكرت حينئذ فى الحاج محمد الذى شتمنى والطبيب الذى ظلم أخى فقال لى الهاتف الغامض الذى يلازمنى فى ليلى ونهارى وصحوى ومنامى إن الناس هم جحيم بعضهم بعضا، فقلت له إننى لم أفهم ما قال. جاءنى بعد عشرات السنوات وراح يتصفح مذكراتى التى كتبت فيها: «... وأنا أتفق مع سارتر فى أن الآخرين هم الجحيم – بعد أن صرت وجوديا مؤمنا – بل إنى أرى فى بعضهم ما هو أفظع من الجحيم، إذ تضامنوا عن قرب وبعد وعن معرفة ونكران فى استخراج الأديان الثلاثة التى أؤمن بها من أعماق سريرتى والإلقاء بها فى فضاء الكون. قال لى هاتفى إنه من السهل

أن أتخلى عن إيمانى، لكن الحياة بغير إيمان ستكون جحيما لا يحتمل، والحق أن الحياة فى غياب هؤلاء الآخرين هى الأخرى جحيم لا يطاق وإن اختلفت طبيعة الجحيمين، وليس هناك من يفوق الزمن فى قدرته على الشهادة بصدق ادعائى»..

ثم فكرت فى مسألة الميراث والتوريث فوجدت أن هناك بعض الناس يكدسون أموالهم فى البنوك دون الاستمتاع بإنفاقها فى دنياهم، وإذا بهم يموتون فجأة – برغم أنهم كانوا على يقين من أنهم سيموتون يوما ما – فيسارع الأهل والأقارب – فى نهم شديد – إلى سحب تلك الأموال لينفقوا منها بالحق والباطل فى الخير والشر، وقال لى الهاتف:

– المال أعظم خادم وأسوأ سيد، إذا استخدمته خدمك وإذا خدمته استخدمك.

• عمى والموت والبحر:

كنت قد تجاوزت السابعة والعشرين حين قررت التمرد على قرار أمى بمقاطعة العم والخالة، وأن أذهب إليهما بنفسى لأتعرف عليهما لأول مرة منذ طفولتى. كان استقبالهما لى حافلا بالترحيب والاهتمام خاصة من الخالة التى انهارت فى البكاء وهى تأخذنى فى حضنها. أما العم فما إن نطق بعدة كلمات يلوم فيها أمى على مقاطعتها لهم، حتى أدركت أنه إنسان مسكين لا حول له ولا قوة.

شـعرت بعد هذا اللقاء أن مقاطعة العـم والخالة أو الإبقاء على العلاقـة معهما أصبحا – عندى – أمرين متشـابهين متسـاويين. نادية كانـت دائمـة الانحياز إلى وجهات نظر أمـى. أما نديم فقد كان أكثرنا كراهية للعم إسماعيل. لست أدرى لماذا وكأن بينهما ثأر قديـم. حاولت إغراءه أكثر من مرة بزيارته من وراء الحاجة وكامل حتى نتعرف إليه فربما اسـتطعنا اجتـلاب عطفه ومودته وعونه. قال نديم بحرقة:

– إن رجلا يسرق مال أبناء أخيه اليتامى لا يستحق الحياة.

– هل أفهم من هذا أنك تخطط لقتله مثلا؟

– أنا لن أقتله ولكنى عاهدت نفسى ألا أراه ما حييت.

– وهل هذا يحل المشكلة؟

– لم تعد هناك مشـكلة فالفلوس سـرقت وصرفـت وانتهينا.. المهم أن نجد وسيلة نفلت بها من الفقر.

– كيف؟

– الآن لسـت أعرف، ولكنى عاهدت نفسى أمام الله أن أجد هذه الوسيلة ولو دفعت حياتى ثمنا لذلك.

– هل هناك رقم معين من المال فى تصورك ينبغى أن نحصل عليه حتى نضمن معيشة مستورة؟

– المهم هو نقطة البداية.

كالمعتاد لم يكشف لى عما يدور بذهنه أو عما ينوى أن يفعله لحل مشكلة أزلية تعهد أن يأخذ على عاتقه إنقاذنا من براثنها.

مات عمى إسماعيل بعد أشهر قليلة من زيارتى له. كانت مسيرة الجنازة موازية لشاطئ البحر وكان الجو شديد الحرارة.. نظرت بشوق جنونى إلى البحر. لم أستطع مقاومة نداء حبيبتى القابعة فى قراره. لم أكن حزينا أو سعيدا. كانت مشاعرى متجمدة. تأثيرات الموت إذن متفاوتة وفى العموم هى غير مفهومة، بدليل أنها تنسى بعد دفن الميت وكأن شيئا غير عادى لم يحدث. لم أشعر بنفسى وأنا أنسحب تدريجيا من خلف النعش ثم خارج مسيرة الجنازة متجها إلى البحر مباشرة. خلعت ملابسى جميعا عدا اللباس الداخلى وقذفت بنفسى إلى الماء تاركا الأمواج تداعبنى فى نشوة أنستنى الأموات والأحياء. أمضيت ما يقرب من الساعة أسبح فى هدوء وأنا منفصل عن الزمن تماما. خذلتنى عروس البحر فلم أجدها بانتظارى، وإنما وجدت أسرابا كثيفة من الأسماك الملونة تحيط بى وترقص من حولى على موسيقى منبعثة من أعماق القاع، أشجتنى وأبكتنى حتى امتزجت ملوحة دموعى بملوحة ماء البحر وقد تطهرت تماما من أدران الحياة. لما خرجت من الماء كنت مضطرا للجلوس فى الشمس طويلا حتى يجف ملبسى الداخلى قبل أن أرتدى بقية ملابسى.

تذكرت لقائى الوحيد مع عمى فى حياته وما انطبع فى ذاكرتى عنه من مشاعر سلبية، كما تذكرت مقولة سقراط الشهيرة: «تكلم حتى أراك».

* * *

obeikan.com

الفصل الثانى

أفهمنـــى المحامـــى أن الأمر متعلق بشـــقيقى الغائـــب. أعربت له عن دهشـــة أسرتنا الشـــديدة من ســـلوك نديم الغريب الذى كان شـــحيحا للغاية فى الاتصال بنا على مدى تسع سنوات مضت، رغم أن وســـائل الاتصال الحديثة المتاحة عـــبر الإنترنت لا حصر لها، فضلا عن الوسائل التقليدية القديمة كالخطابات والمكالمات الهاتفية. لم يستطع أن يقدم لى تفسيرا لذلك على الإطلاق.

عرفـــت أنه قادم لتوه من أمريكا عقب لقاء مع موكله حيث تولى مؤخرا بعض شـــئونه المالية والإدارية هناك. تســـاءلت فى نفسى: يا الله! !.. ترى هـــل يعقل أن تكون نبوءة نديم قد صدقت وتحققت أحلامـــه وأصبـــح هو الفرد الوحيد فى أســـرتنا من كبـــار الأثرياء، تماما كما تصور وتمنى وتخيل، وبكل ثقة توقع؟..

وضـــع أمامـــى مظروفين. قـــال إن المظـــروف الأول يحتوى على بضعة رســـائل كتبها نديم بخط يده، أما الثانى فيحتوى على أوراق ومســـتندات مهمة تتعلق بثروته وبعض العقود، دون إشـــارة بأى شكل لكيفية التصرف بشأنها.

حاولـــت الاستفســـار عن المزيد من أحوال أخـــى كى أطمئن على مصيره الذى آل إليه فى غربته الغامضة، لكنه لم يفدنى بما يشـــفى غليلى ويطمئن قلبى. لست أدرى هل كان يتعمد ذلك التكتم لأسباب

لســت أفهمها، أم أنه لم يكن بالفعل يعرف شــيئا عن أسرار أخى البــارع فى التحفظ والتكتــم منذ صغره. كل مــا أفادنى به أن نديم لم يصبح مليونيرا فحسب وإنما أصبح يتمتع بمنصب سياسى خطير فى الولايات المتحدة الأمريكية التى ســبق أن تجنس بجنسيتها من قبل. لقد تجاوز كل حدود البراعة والمهارة فى التقدم والارتقاء حتى أصبحوا يسمونه هناك بالشيطان. لم يشأ نديم أن يطلعنا على أماكن إقامته فى الولايات التى تنقل بينها عبر تلك الســنوات فلم يستطع أحدنا أن يكاتبه إلا فيما ندر.

وضع المحامى المظروفين أمامى وقال إنه ســيكون رهن إشارتى لو احتجت إليه بخصــوص الأوراق المحفوظــة بالمظروف الثانى، وانصرف.

إذن ما زالــت الحياة تحمــل مجاهيل جديدة فــى جعبتها من المفاجــآت المثيرة التى توقظ النائــم وتبعث الحياة فى النفس الميتة. لا معنى لليأس والزهد والاســتغناء وإغــلاق دفاتر الحياة والاكتفاء بالانتظار الكئيب للموت، فمن يدرى ما يخبئه الزمن؟..

ما إن اختليت بنفسى حتى دفعنى حب الاستطلاع الزائد إلى فتح المظــروف الذى يحمل اسمى وبدأت فى قراءة ما كتبه لى، حين قال لى الهاتــف إن جنيات البحــر أوصته بى خيرا، فلــم أفهم مقصده ولما استفســرت منه عما تقصد الجنيات قال لى إننى سوف أفهم كل شىء فيما بعد ولكن ليس الآن.

أخى سعيد:

يخاطبك الآن حطام إنسان لم يعد يمتلك إلا شيئين أولهما أموال طائلة لكنها مجمدة لا يعرف ماذا يفعل بها بعد أن أفنى عمره فى جمعها، وثانيهما مجموعة من الخبرات الإنسانية الصادمة والتى لا أحب أن أموت قبل أن أنقلها لشباب أسرتنا المسكين العائش فى أوهام دينية مغلوطة وأعراف اجتماعية متخلفة تشده جميعا إلى الخلف وتحول بينه وبين اقتحام الحياة فى جرأة وشجاعة.

معذرة يا أخى العزيز على انقطاعى الطويل عنكم. لم يكن لدى استعداد لأدنى ارتباط أسرى أو عاطفى يمكن أن ينشأ من خلال التراسل أو المحادثات التليفونية أو غيرها من الوسائل المتاحة. كنت فى حرب مع الحياة دونها الموت. إن شبح الفقر كان يفر من قسوتى وجبروتى وانعدام مشاعرى الإنسانية. كان لابد أن أنتصر عليه وإلا فلا معنى لوجودى على هذه الأرض. كم أخفيت عنكم جميعا شعورى بالمهانة ومرارة الحرمان فى طفولتى وأنا أرى الأطفال الآخرين منعمين مدللين متمتعين برعاية آبائهم المقتدرين، بينما كان على أن أمشى بحذاء ممزق عدة كيلومترات إلى مدرستى ولا قرش واحد فى جيبى. خشيت الاتصال بأى فرد منكم قبل أن أصرع هذا الوحش الجبار، فأى اتصال بأحدكم – وخاصة أمى – كان سيضعف من عزيمتى ويعيد إلى إنسانيتى وعواطفى ومشاعرى فأهدى غريمى فرصة سانحة لسحق كرامتى وشل إرادتى وهزيمتى، وكان هذا

ضـد مخططى تماما، إذ حذفت كل هـذه الخزعبلات الوجدانية من قاموس حياتى.

لـن تصدق يا أخـى أن كل ما حدث لى هنا فى الغرب وكذلك كل مـا زال يحدث لى الآن كان مدونا من قبل فى ذاكرة عقلى بصورة أو بأخرى، لكنى لم أكن أتكلم أو أفسر أو أحكى لأحد منكم عما يدور بذهنى مـن أفكار وخيالات حـول الله ومخلوقاتـه وتوزيعه الفقر والغنى على عباده كيف يشـاء. كان من المستحيل أن أحدث أحدكم عما يدور فى نفسى من انفعالات قاسية مدمرة تشكو من الظلم وغياب العدالـة على الأرض لأسـباب أجهلها ولا أعـترف بها أيا كانت. لو حكيت لكم عن حلمى لأشـفق البعض على وسخر البعض الآخر منـى. لا تتصور كيف كان الطبيب الذى عملت فى عيادته ينظر إلى فى بداية الأمر كما ينظر إلى شىء لا إلى إنسان. كانت نظرات عينيه تنسـف كيانى من الداخل، فنظرته إلى حشرة على الأرض قد تكون أكثـر قيمة عنده من نظرته لى. كان هـذا قبل أن يتهمنى دون دليل بالسرقة، وأنا الذى كان احترامى الخفى لذاتى منذ نعومة أظافرى يفوق الوصف، بحيث يسـتحيل أن آتـى بعمل دنىء كهذا يتناقض كل التناقـض مع حلمـى الكبير بأن أكون كبيرا فى كل شـىء دون غرور أو تعال أو كبر. كنت أتسـاءل لماذا كتب على أن أعمل أجيرا عنـده وأن تواجهنى نظراته المجرمة كل يـوم، بينما يرتدى ابنه أجمـل الملابس والأحذية ويجرى فى أرجـاء العيادة مرحا مختالا

يجد لنفسه الحق فى أن يرسلنى لأشترى له زجاجة كوكاكولا، فأنا – ولست أدرى لماذا – خادم أبيه.

اسمع يا سعيد.. أنا لست أكتب إليك اليوم لأبرر لك أو لنفسى ما كان من انقطاعى عنكم، لكنى أرسل إليك هذه المتفرقات التى دونتها حسبما أتاح لى وقتى من فرص نادرة استطعت فيها أن أخلو إلى نفسى محاولا قدر المستطاع استعادة إنسانيتى من جديد بعد أن استبدلت بها النجاح والمال والمجد والعلو فى الأرض وتحقيق الحلم والقضاء على وحش الفقر الكاسر».

• فقراء وأغنياء:

.. رسالة نديم توحى باعتقاده أنه انتصر على الفقر، لكنى أرى أن الفقر هو الذى انتصر عليه بأن شوهه ودمر إنسانيته...

أصدقائى أطفال حى رأس التين معظمهم من عائلات فقيرة. قلة منهم ينتمون إلى آباء أثرياء سواء كانوا من كبار الموظفين أو أصحاب ورش صناعة السفن أو تجار الأسماك، أو من ذوى الأملاك الذين لا يفعلون شيئا فى حياتهم غير جمع إيرادات أطيانهم وعقاراتهم. كان أقرب هؤلاء الأطفال إلى قلبى وأكثرهم التصاقا بى هو «على» الشهير فى الحى بـ«على ابن الحاج أحمد». أما الحاج أحمد فهو قبطان بالبحرية يسافر إلى بلاد العالم ويعود كل عدة أشهر محملا بالهدايا الثمينة، يقتنيها على فى سعادة، بينما ينظر إليها معظم صبية الحارة فى غيرة وحسرة إذ لم يكونوا

قد عرفوا الحسد بعد. أنا لم أكن مثلهم على الإطلاق لأن تلك المشاعر لم تراودنى، وإنما كنت أفرح بهدايا الحاج أحمد لأنى أتمتع باللعب بها مع على كما لو كانت ملكا خالصا لى، وبصفة خاصة تلك الدراجة الملونة التى أجوب بها أزقة الحى وحواريها فى ثقة تامة، بل إننى كنت أعيرها أحيانا بكل بساطة لبعض الأصدقاء لشعورى الصادق بملكيتى التامة لها برغم إفلاس جيبى من قرش واحد، وإنهاك بصرى بالنظر فى الأرض ربما تكرر عثورى على جنيه سقط سهوا من عابر سبيل كما حدث لى مرة من قبل.

فى المدرسة الابتدائية وخلال الفسحة أخرج من حقيبتى القماشية – التى صنعتها لى أمى – رغيفا بلديا بداخله قطعتان من الطعمية وقطعتان من اللفت المخلل. يخرج على من حقيبته الجلدية الفاخرة المستوردة رغيفين من العيش الأفرنجى أحدهما محشو بخليط ثرى من البيض والبسطرمة والآخر بالجبن الرومى والخيار المخلل. ندمج الطعامين فيما يشبه الاتحاد الفيدرالى الذى نسميه «غدّيوة» ونأكل معا بشهية بريئة.

تلعب أمهاتنا دورا خطيرا فى تربيتنا، فالآباء مشغولون دوما بلقمة العيش. نظرة صارمة منذرة من أمى كانت كفيلة بإصابتى بالرعب والتراجع عن أى نية خبيثة تخطر ببالى. تهددنى الحاجة تحية دائما بأنها ستعمل لى «طرنبة» إذا ما «تفرعنت» أو عملت «خبثا». الطرنبة هى الحقنة الشرجية الزجاجية العتيقة بخرطومها الطويل والمعلقة دائما فى الحمام كأداة إرهاب معلنة. أما الفرعنة

فمنها أننى انتهزت فرصة نسيانهم لسلم البيت الخشبى الطويل بإحدى الغرف التى ينتهى جدارها فى أحد الأركان بشباك علوى صغير مهجور يطل على المنور الداخلى للبيت. كنت أرى اليمام الوديع يحوم دائما ويرفرف حول هذا الشباك وأنا مبهور بجماله، عاشق لندائه المحبوب «وحدوا ربكوا». تسلقت السلم ومددت يدى إلى عش اليمام مستخرجا منه بيضتين صغيرتين وأنا فى غاية السعادة. نهرتنى الحاجة تحية وحذرتنى من احتمال أن يكون هذا البيض بيض «حنش». وأما الأخبث عندما حاولت تقليد الخال حنفى بوضع «النشوق» فى فتحتى أنفى أسوة به. والنشوق هو مسحوق بنى اللون يستنشقه الخال فى سعادة ثم يعطس عدة مرات وينتهى الأمر. الجماعة العواجيز فى منتهى اللذة. أحبهم كثيرا. أحب أيضا الأطفال والأسماك والطيور والأشجار وكل مخلوقات الله الجميلة، فكلنا من صنعة يده الساحرة. رأيت كومة من الرمال على أرض الزقاق بجوار طوب يجهز لبناية صغيرة. حشوت أنفى بكومة منه فانكتم نفسى وكدت أموت اختناقا. استمر عطسى حتى انكشف أمرى ونلت ما قسم لى من عقاب على فعلى الخبيث.

وصايا عديدة وتنبيهات مكررة أسمعها من أمى وأم على وترددها كل أمهات الحارة:

- لما تدخل بيت صديقك بصّ فى الأرض ولا تتفحص المكان.
- لا تخالط من هم أكبر منك سنا.
- لا تنظر إلى ما بيد غيرك. ارض بما قسم الله لك واحمده عليه.

مــا زالت نصائحهن محفــورة فى ضمائرنا حتى بعد أن شــخنا جميعا. النصيحة الأخيرة كانت الأقرب إلى عقلى ووجدانى.

ظاهــرة قدريــة غريبة تلازمنــى مدى الحياة، ذلــك أن معظم الأصدقاء القريبين من قلبى كانوا وما زالوا أثرياء. أقضى الصيف فى فيلا أحدهم بالشــاطئ الشمالى. يتركها لى أنعم بها مع أسرتى للمدة التى تسمح بها ظروفى. يسلمنى آخر مفاتيح شقته بأسوان لو طلبتها فى أى شهر من شهور الشتاء. يصحبنى آخر فى عربته للتجوال فى أقاليم مصر. نبيت معا فــى أفخم الفنادق. لم أنظر يوما إلى عطائهم باعتباره جميلا ينبغى أن يرد بشــكل أو بآخر، وإنما باعتباره حقا من حقــوق الصداقة، إيمانا منى بأن المصادفــة القدرية وحدها هى التى جعلتهم من أبناء الأثريــاء وجعلتنى من أبناء غير القادرين، وأنــه كان من الممكن أن تتبــدل الأدوار بين يوم وليلة ليصير الغنى فقيرا والفقير غنيا، لولا مشيئة الله فى توزيع رزقه كما علمنا الشيخ رزق فى مدرســة أبى شوشــة الأولية لتحفيظ القرآن. كنت أعشــق موســيقى القرآن الســاحرة المنبعثة من صوته الرخيم وهو يتلوه فى محبة وخشوع. سألته أن يصف لى الله فقال بحسم وعلى فمه ابتسامة جميلة:

– ليس كمثله شىء.

سألته لماذا خلق البعض أغنياء والبعض فقراء فقال:

– هو صاحب الملك يفعل به ما يشاء.

فـى صبـاى كنت مشـغولا مع نفسـى بأمور كثـيرة لم أجد من أفضـى بها إليه فلـم أفصح عنها لأحد. تسـاؤلاتى البريئة لم يكن لها سـقف. كانت تحوم حـول معنى الله والسـعادة والفقر والغنى والإيمـان والحـب والجريمة والسـلطة والشـهرة والـرزق والحظ والسـقم والصحة والتنافس بين بنى البشـر. تحيرنى تلك القضايا الضخمـة مثلمـا تحيرنى الدنيـا الحافلـة بالألغـاز والأعاجيب والأسـرار. على مدى العمر كلما تصورت أننى بلغت منها قدرا من الفهـم والمعرفة، تبين لى أننى شـديد الجهـل بألاعيبها وتقلباتها بـين الليل والنهار وتعاقب الأحداث. رغم ذلك فقد اكتشـفت أننى عاشـق لها تحت أى ظرف من الظروف. كثـيرا ما كان عجزى عن فهمها يدفعنى إلى إلقاء نفسى فى محيط من الأوهام وأحلام اليقظة، يجسدها لى خيالى الحالم كواقع لاشك فيه... أرى نفسى جالسا على المقعد الخلفى لعربة فارهة من أحدث الموديلات، مشيرا فى تواضع – مشكوك فى صدقه – إلى سائقى الخاص بالتوجه إلى هنا أو هناك.. أجلس فى قصرى المنيف المطل على البحر بالشرفة الواسعة المحاط سـورها بألوان وأشـكال من الورود والشـجيرات الصغيرة الملونة. تأتى لى الخـادم بفنجان القهوة المصنوعة مـن البن المحوج الغامق وبجواره قطعتين من البسـكويت بالشكولاتة.. ويظل الحلم والواقع ممتزجـين فى حياتى بحيث يصعب على أن أفصل بينهما مهما بلغ تناقضهما. هأنذا أغادر شـرفة القصر العظيـم تلبية لنداء أمى كى

أتناول معها ومع إخوتى كامل ونديم ونادية طعام الإفطار المكون فى معظم الأحيان من الفول والطعمية وورق الفجل أو الجرجير. كنا فى البداية خمسة إخوة وأخوات حتى تزوجت الأخت الكبرى سعدية من الأستاذ شكرى الموظف بالداخلية وانتقلت إلى بيت الزوجية المجاور لبيتنا أمام البحر مباشرة. سعدية هى الصديقة الحميمة لأمى واللصيقة دوما بها. لو لم تكن أمى تكره شكرى لأقامت عندها وما فارقتها أبدا.

تبين لى أننى لست الوحيد الذى يلجأ – حين العجز – إلى أحلام اليقظة، فقد ظل شعب مصر بأكمله يحلم فى يقظته بل وفى منامه أيضا بإزاحة حكم مبارك وطغمته الفاسدة دون قدرة على الفعل، حتى جاء يوم تحققت فيه المعجزة فتحول الحلم إلى حقيقة.

• **تساؤلات اليتيم:**

فى الثانية من عمرى مات أبى. كان أخى نديم فى حوالى السابعة. معظم أولاد الحارة كان لهم آباء يمشون على وجه الأرض. لا أستطيع الادعاء بأننى لم أكن أشعر بالحزن والتعاسة عندما أرى آباءهم يصحبونهم إلى الشاطئ أو إلى حديقة الحيوان ويشترون لهم الحلوى والشيكولاتة. المقارنة كادت أن تفرض نفسها على وجدانى الغض الذى لم يكن قد تشكل تماما، لولا رحمة من الله – أدركتها فيما بعد – هى التى أنقذتنى من أسرها اللعين دون اجتهاد من جانبى. نديم على العكس منى تماما إذ تمكنت منه آفة المقارنة،

غير أنها لم توقع به فى براثن الحقد على الآخرين موضوع المقارنة، وإنما حولته إلى كائن روبوتى تتحرك كل ذرة فى جسده حول نواة المادة بكل حواشيها من تجارة وربح وثراء. فى الإجازات الصيفية كان يبيع الجيلاتى والحلويات على الكورنيش بالاشتراك مع بعض أصدقائه. أحيانا كان يصنع أعلاما مصرية صغيرة لا تتجاوز مساحتها سنتيمترات مربعة قليلة أضافت لها الحاجة تحية «دبوس شنكل» ليستخدمها الصبية كحلية على قمصانهم. كان ثمن العلم بدبوسه المشبك مليمين. المهم أن نديم كان يعود يوميا إلى البيت وبجيبه عدة قروش بلغت أحيانا نصف جنيه وربما تجاوزته. نديم عقلية حسابية بحتة. كل شىء عنده لابد أن يقابله شىء. كل فعل له رد فعل. الوقت عنده من ذهب. لا يشارك أقرانه اللعب إلا قليلا، وإن فعل فبدافع من مصلحة ما وإن كانت مستترة على الجميع. كنت أقرأ بفطرتى فى نظرات عينيه الناطقة بالعزم والثقة، ما يجول بخاطره وكأننى أسمعه يقول: «عندما أكبر سأمتلك الشركات والأراضى والعقارات».. لكنه لم يصرح بذلك لى أو لأحد من إخوته قط، وكأن حلمه قدس من الأقداس لا يحق لأحد سواه أن يطلع على أسراره. طالما حاولت أمى تعليمه الصلاة، لكنه لم يمتثل لها ولا أذكر أننى رأيته يوما يصلى لله، غير أننى ضبطته أكثر من مرة يخفى أكثر من كتاب يقرأه عن عظماء العالم ومشاهيره. أشفقت عليه من طموحه الزائد وتطلعاته الجامحة.

مرة قال لأمى باقتناع شديد عقب انتهائها من الصلاة والدعاء إلى الله:

– الله لن يوسع رزقنا بالدعاء يا أمى.

– حرام عليك ما تقوله يا نديم.

– اتساع الرزق مرهون بالعمل وحده لا بتسوله من الله.

أنا محظوظ مع الله وخلقه. أجلس وحيدا بالساعات على صخور الجزيرة الصخرية الصغيرة والأمواج الهادئة تتدافع أمامى والنوارس تحلق من حولى، ونسمات كأنها من عبير الجنة تهفهف من حولى فيكتسى الجو بسحر جميل، يجعلنى أتوحد منذ صباى مع الطبيعة وخالقها وكل مخلوقاته دون أن أدرى. لا أفرق بين نفسى وبين أى سمكة حين أغوص فى الماء. اتساع البحر يجذبنى إلى شىء لا نهائى لا أدرك كنهه تماما، لكنى كنت أظن أحيانا أنه هو الله الذى قال لى عنه الشيخ رزق أنه ليس كمثله شىء. أحببت هذا الإله الغامض وصرت بسبب حبى له أغضب كثيرا عندما يسب على ابن الحاج أحمد الدين لأحد أو لأى شىء، فهو يدخل كلمة «دين» فى كل جملة مفيدة أو ضارة ينطقها. ورغم أنه ولد طيب وابن ناس إلا أنه كثيرا ما يشخر خلال حديثه مع الآخرين حين لا يعجبه الكلام أو يعترض على موقف أو شخص. والشخر خصلة سكندرية قديمة يصدر فيها الشاخر صوتا ناتجا عن ارتجاج عظيمات أنفه، وتعنى السخرية من شىء ما أو رفضه. ولهذا الصوت أنغام ودرجات متنوعة من الشخر منها الحاد ومنها الغليظ ومنها الوسط.

لم تكـن هنـاك صلـة صداقة وطيـدة تجمع بينى وبـين نديم. عشـرات الأسـئلة تطاردنى فأطرحها على صبيـة الحارة ولا أظفر منهـم بنتيجة، لأنهم كانـوا فى معظم الأحيـان لا يفهمون حتى معنى الأسئلة. نديم كان يفهمها لكنه لا يجيبنى عنها لست أعرف لماذا. لعلـه كان نوعا من التعالى علـىّ أو تجاهلى باعتبارى صغيرا لم يتجاوز السـابعة، ولا يحق له الاستفسار عن معانى الخلق والله والدين والوطن والرزق والحظ بنوعيه.. أو لعل السبب أنه كان يشعر تجاهى بشفقة مستترة لكونى رومانسيا حالما منذ طفولتى، لا أظهر أمامه أى اهتمام بمسألة المال التى تأكل عقله. لم يكن يخطر بباله أن هناك أفكارا أخرى أكبر من المال تشغلنى أضعاف ما تشغله أفكاره، لكن انشغالى بقى محصورا فى نطاق الفكر والحلم والخيال والتمنى، أما هو فكان جريئا مقداما، جديرا بأن يسـحق الفكرة الراسخة فى وجدان العائلة بأن الثراء لن يعرف طريقه يوما إلى أحد من أفرادها. كان علـى يقين بأن الفقر ينتقص من كرامته وكرامة أسـرته، وأنه لا بديـل عن الحياة الكريمة التى لا تتحقق إلا بالثراء.. وأن الله قد خلقه لينتزع لهذه الأسرة كرامتها من بين براثن الفقر والحاجة.

كما ذكـرت فى البداية كان عدد أصدقائى المقاربين لى فى العمر محدودا، كما لم تكـن أحاديثهم التافهة تروق لى. كنت مضطرا إلى مشـاركة الكبار من أصدقاء نديم مجالسـهم على الشـاطئ. أستمع فى حيرة ودهشـة إلى أحاديثهم عن الحـب والمرأة والزواج والطلاق

وغيرهـا من مسـائل لم يكن عقلى قادرا على اسـتيعابها بما يكفى للمشاركة فى الحوار. كنت أكتفى بالاستماع، ثم اجترار ما سمعته فيما بعد بينى وبين نفسى فى خلوتى بين الصخور والأمواج.

لم يبق لى إلا الحاجة تحية – أمى – أبثها حيرتى فتربت على ظهرى وتمسح بكفها على شعر رأسى وتقول لى:

– على إيه انت مستعجل؟ بكره تعرف الدنيا وأحوالها.

رغم ذلك فقد كنت ألمح نظرات الإعجاب بأسـئلتى فى عينيها، وكأن خاطـرا يراودها بأن هذا الولد سـيكون له شـأن عندما يكبر. رصيدها المعرفى الأساسـى الذى تغـترف منه خبرتها للإجابة عن أسـئلتى هو الأمثال الشـعبية المصرية. تعليمها لم يتجاوز المرحلة الابتدائية لكنها كانت تحمل الدكتوراه فى ثقافة الحياة. بديهتها الحاضرة دوما مطعمة بروح المرح والسـخرية، وإن كان هناك حزن غامض يقبع مسـتقرا داخل عينيها، لا تستطيع نظراتها الحنون أن تخفيه. تقول إجاباتها عن أسئلتى الملحة:

– سبحانه مقسم الأرزاق.

– يرزق الهاجع والناجع والنايم على صرصور ودنه.

– من حبه ربه واختاره جاب له رزقه على باب داره.

مـع ذلك فقد ازدادت حيرتى حتى تصـورت أن الحظ وحده هو الـذى يلعب الدور الأعظم فى قضية الرزق، وربما فى الحياة كلها، وأن هناك مخلوقات كتبت عليها التعاسة وأخرى كتبت لها السعادة

لأسباب مجهولة. قالت لى الحاجة تحية وهى تجتهد أن تكشف لى بإخلاص شديد عن مجاهيل الحياة قدر استطاعتها:

– يا بنى أكبر نعمة هى الرضا بالمقسوم.

لم أكن أعرف كيف أعبر لها عن شعورى الخفى بأننى أرى فى الرضا خضوعا واستسلاما وضعفا ودونية، فالتزمت الصمت. أدركت حيرتى فقالت:

– لما وزعت العقول كل واحد عجبه عقله، ولما وزعت الأرزاق كل واحد لم يعجبه رزقه.

أدركت بفطرتها أن كل محاولاتها كى أفهم مقصدها قد باءت بالفشل.

عندما كبرت عثرت على الإجابة الحقيقية – وإن لم تحل اللغز تماما – فى قول الإمام الشافعى:

رب قسمتها حظوظا علينا فنعما لذا وتعسا لذاك
لا علم ولا ذكاء ولكن لك سر يحير الإدراكا

• جحيم المقارنة:

عندما بدأ ابنى الأكبر أحمد يقترب من الرابعة عشرة، أحضرت له من مكتبتى كتابا فتحته على صفحة محددة وهو جالس أمامى. أشرت إلى عبارة بمنتصف الصفحة تقريبا وقلت له:

– اقرأ يا أحمد حديث البطل لنفسه.

قرأ دون أن ينتبه لما يدور بعقلى:

– اعلـم أن الباب الذى تهب منـه ريح المقارنة لا ينفتح إلا على جحيم.

نظـر إلى متعجبا والفضول آخذ به. الكتاب كان رواية من تأليفى عنوانها «آلهة من طين».

– ماذا تقصد يا بابا؟

طلبـت منه أن ينتظر قليلا وأحضرت له كراسـة الأشـعار التى تعـودت أن أجمع فيهـا كل ما يروق لى من شـعر على مدى عمرى كله. أطلعته على البيتين الذين قالهما الشافعى، ثم وضعت الكتاب والكراسة جانبا وسألته بحذر شديد:

– قـل لى يـا أحمد بصراحة. بماذا تشـعر عندمـا ترى صديقك الحميم إسلام راكبا عربة أبيه الفارهة؟

– لا أشعر بشىء!

– وعندمـا تعزف على الأورج الذى يمتلكه وأنت تعلم أنه ليس بمقدورى أن أشترى لك أورجا مثله؟

– لاشىء!.

– غير معقول.. إياك أن تكذب.

– أنا أقول الصدق يابابا.

– ألا تشعر بالغيرة أو الحسد لأنك لا تملك مثلما يملك؟.

– أبدا والله.. أرجوك أن تصدقنى.

وصدقته ومرت السنوات دون أن يحدث ما ينفى صدقه فيما قال. المشكلة كانت عندى أنا، إذ وقعت كثيرا فى فخ المقارنة بين حالى وحال العديد من أقرانى الذين قدر لهم الثراء وسعة الرزق. كنت أرى فى المسألة سرا غامضا كالذى ذكره الإمام الشافعى فى شعره، فأنا لم أكف يوما عن الأخذ بالأسباب بكل ما أوتيت من قوة وحيلة. كان يحيرنى عدم معرفة السقف الذى ينبغى أن أتوقف عنده وأقول الحمد لله قد أصبحت ثريا، وبالتالى كنت أرى المسألة نسبية وترتبط ارتباطا مباشرا بدرجة قناعتى ورضاى. تجرأت يوما وعرضت الأمر على نديم مقتحما صمته وغموضه. لم يكن لدى أمل كبير فى الحصول على إجابة شافية منه، لكنى فوجئت به يقول فى حسم:

– طموحى ليس له سقف!

أتأمل ثقة نديم فى حلمه وأشرد .. أنا أعلم أن البلد ملأى بأمثالى وأمثال نديم من المفلسين، لكنى لست أعرف إن كانت حيرتى من هذا الأمر تماثل حيرتهم، أم أنهم قد استسلموا لواقعهم وارتضوا بطمأنينة القلب انتظارا لنعيم الجنة؟.. إنى أخاف هذا العالم.. تأملت فى رؤية الإسلام للمال باعتباره ملكا لله، ولا يحق لأحد من البنى آدميين أن يعتقد فى ملكيته المطلقة مادام سيأتى يوم يتركه فيه لغيره مرغما. شىء غريب والله.. عدة وريقات مطبوعة يضيع المرء عمره فى اقتنائها ليودعها بعد ذلك فى مبنى من الطوب

يسـمونه البنـك، ثم يموت تـاركا الوريقات فى المبنـى المكون من الطوب، ليأتى قوم آخرون فيسحبوا الوريقات ويأخذونها لأنفسهم محصنين بالشـرع والقانون. لو كانت السـعادة هى الغاية المثلى من اجتلاب المال وامتلاكه، فماذا عن الصحة والعلم والشـهرة والمكانة الاجتماعيـة والحب والزوجة الصالحة والأبنـاء الأوفياء والإيمان وراحة البال والفن والقناعة و... و... ؟..

* * *

obeikan.com

الفصل الثالث

أخـى سـعيد: قد لا تصـدق أننى لم أنشـئ صداقـة واحدة مع أحـد. إن الكل فى هذا الصـراع الجهنمى القاتل خصوم. والتعلم من الخصوم أشـد قوة وتأثيرا من التعلم من الأصدقاء. وطالما كنت عاتيا جبـارا فلا وجود لكلمـة الصداقة فى مفـردات حياتك، وكلما كان الخصم قويا اسـتنفرت أقوى ما لديك مـن قدرات وإمكانيات للفتك به. المسـألة ببسـاطة أن أكون أنا أو أن يكون هو. من المستحيل أن يحدث ذلك فى حارة الحدينى أو زاوية الأعرج حيث الاسـتنامة إلى المسلمات الدينية المغلوطة التى وضعت أساسا قويا لتخلفنا عن بقية الخلـق.. لم يكن هناك مفر من العزلـة حتى إننى اتخذت منهـا وطنا فى بـلاد الانتصار المادى. فى عزلتـى لم أكن أخجل من شـىء كما لم أكن أخشـى من شـىء. فى عزلتى تساوى الألم والفـرح. تعلمت من أحد خصومى فلسـفة القـوة ورحت أتعاطى كلماتهـا النارية بشـغف جنونى: «إنكم تنظـرون إلى ما فوقكم عندمـا تتشـوقون إلى الاعتلاء، أما أنا فقـد علوت حتى أصبحت أتطلـع إلى ما تحت قدمى. فهل فيكم مـن يمكنه أن يضحك وهو واقـف على الـذرى؟».. «من يحوم فوق أعالى الجبال يسـتهزئ بجميع مآسـى الحياة بل بالحياة نفسها».. كان هناك نداء خفى

غامض يعاودنى من حين لآخر لا ليحذرنى من مغبة الطريق الذى اخترته وانما ليدفعنى بقوة إلى مواصلة السير فيه حتى النهاية.

لن أنسى ما حييت نصف رغيف الطعمية فى الفسحة ما بين الحصص. بالأمس فقط – وهو مجرد يوم عمل – ربحت ما يقرب من خمسين ألف دولار أمريكى أى ما يقرب من نصف مليون جنيه مصرى، أى ما يعادل إجمالى رواتب أسرتنا جميعا لعدة أعوام. لم أفكر لحظة فى الاتصال بكم. أصارحك القول بأننى أشمئز من رائحة أزقتنا الحبيبة ومن قمامتها ومن أنفاس سكانها الذين يقولون فى أمثالهم الشعبية: «يا رازق الدودة فى الحجر ارزقنى وانا نايم».. وإنى لآسف كل الأسف على الزمن الطويل الذى قضيته بينكم. الناس إما فقراء وإما أغنياء ولا تفسير لذلك. أنا لم أعد أصلح للمعيشة بينكم من جديد فقد أصبحت كائنا آخر. إياك أن تغضب منى. حاول قبل ذلك أن تفهم كيف كنت وكيف أصبحت وكيف تغير نسق تفكيرى تغييرا جذريا. لقد عشت كما عاش زرادشت بين الناس. جلست بينهم متنكرا أكاد أجحد ذاتى لأحتملهم مقنعا نفسى بقولى إننى مجنون لا أدرك حقيقتهم. أنتم تعيشون على ثوابت دينية وقيمية خاطئة تورثكم العذاب فى الدنيا والشعور بالإثم لكل فعل وقول، ويعلم الله كيف ستكون نهايتكم فى الآخرة. أنا منذ صباى أرفض أسلوبكم فأنا لا أعترف إلا بالعقل. به وحده أصبحت نديم صادق الذى تنحنى أمامه الرؤوس والهامات. لقد تعلمت أنه لا شىء فى هذه الحياة يأتى بلا مقابل، ولقد دفعت

المقابل لثرائى وجاهى من عزلة ووحدة واكتئاب وغياب حبيبة وانقطاع ذرية.. إننى لم أعان لحظة من الذل هنا، وإنما عانيت فقط من الجهد والسهر والألم والعرق والصراع ودموع الوحشة والاغتراب عن الكون بأسره. غير أننى غير نادم على ذلك أبدا، فكلما ساورنى الشعور بالندم تذكرت أيام الفقر والعذاب والحرمان فرضيت بما كان.

• خيال جامح:

أحب أزقة مدينتى وحواريها وأعشق ناسها وترابها وأزقتها المبلطة بالبازلت العتيق والمحددة بأرصفة أنيقة من الجرانيت. لم يخطر ببالى أنه سيجىء يوم – بعد عشرات السنين – يحكم فيه المدينة محافظون من قبيلة العسكر الذين يفتقدون الخيال والإحساس بالجمال، فيخلعون البلاط والأرصفة التراثية الرائعة ليستبدلوا بها كتلا خرسانية رمادية صماء لا تصمد بالتقادم أمام النوات والأعاصير، فضلا عن بشاعة منظرها المؤذى للعين.. ورغم كل شىء فإننى أعشق ذكريات أيام الطفولة التى لا يمكن وصفها إلا بالذكريات السعيدة، لأننى كنت ومازلت راضيا عنها، والرضا هو لب السعادة.

* * *

تقع مدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن فى نهاية شارع زاوية خطاب المتعامد على شارع كورنيش البحر بالأنفوشى.

قبل الباب الرئيسى للمدرسة مباشرة يقع دكان جزارة قديم. يقبع صاحبه على مقعد قريب من باب المدرسة. يرتعد جسدى وتنساب مفاصلى حين أقترب من هذا العملاق ذى الذقن الطويلة العريضة غير المهذبة المدلاة على صدره فى غباء وأنا فى طريقى إلى باب المدرسة. لست أدرى كيف تبادر إلى ذهنى أن العجول والخراف المذبوحة والمعلقة أمام الدكان، ما هى إلا أجسام أطفال مثلى ذبحهم هذا المجرم وسلخهم وعلقهم للبيع. كنت أخشى على نفسى من هذا المصير التعس – الذى صوره لى خيالى الجامح – فأظل واقفا بعيدا عن باب المدرسة حتى يغادر الجزار مقعده لسبب أو لآخر، فأنتهز الفرصة وأجرى مسرعا إلى الداخل بأنفاس لاهثة ووجه مكفهر وقلب مذعور. اكتشفت يوما أن هناك بابا خلفيا مفتوحا على فناء المدرسة مباشرة، يمكن الوصول إليه بتجاوز نهاية الشارع والالتفاف يمينا ثم يمينا مرة أخرى، بينما أتلفت حولى فى حذر خشية أن يرانى ذلك المجرم قاتل الأطفال. حمدت الله كثيرا على نجاتى النهائية من الرعب اليومى بعد اكتشاف ذلك الباب، حتى فوجئت به يوما فى وجهى مباشرة. لم أستطع أن أتمالك نفسى وقد غرق النصف الأسفل من ملابسى فى البول. ولما ابتعد عنى رحت أركض بأقصى ما استطعت من سرعة حتى وصلت إلى البيت. ضحكت أمى من خيالى الجامح وأفهمتنى الحقيقة فرحمتنى من همّ وعذاب عظيمين جلبهما علىَّ هذا الخيال.

نفس الخيال الواسع جعلنى أدعى يوما على الأستاذ الجمال مدرس اللغة العربية أنه ضربنى بالخيرزانة أربعا وأربعين مرة متواصلة عندما أخطأت فى تسميع الواجب. اصطحبتنى أمى ومعها كامل إلى المدرسة لبحث المسألة. فى الطريق يسألنى كامل أكثر من مرة:

– كم عصا ضربك الأستاذ الجمال؟

فأجيب بإصرار:

– أربع وأربعين

أما العدد الحقيقى فكان أربعة فقط!..

استقبلنا الناظر ثلاثتنا بمكتبه وكان الأستاذ الجمال عنده بالمصادفة. انفجر الاثنان فى الضحك حين أطلقت أكذوبتى الصارخة من مركز القوة الذى شعرت به لتواجد أمى وأخى معى. فتح الناظر الأزهرى المعمم يده وأعطانى الخيرزانة طالبا منى أن أريه كيف ضربنى الأستاذ الجمال وبأى درجة من الشدة كانت الضربات. تمنيت أن تكون اليد المفتوحة هى يد الجمال وليس الناظر حتى أنتقم لنفسى. تحققت أمنيتى حين قال الجمال:

– عنك يا حضرة الناظر. سيضرب على يدى أنا.

انهلت عليه ضربا بكل ما أوتيت من غل وسط ضحكات الجميع، حتى أنهى الناظر اللقاء بأن وعدنى ألا تلمسنى خيرزانة الأستاذ الجمال مرة أخرى.

... أبــذل عمرى كله لقاء عودة يوم من تلــك الأيام، أيام القلب الأخضر والنوايا البيضاء.

• جحيم الكراهية:

كثيرا ما كانت سعدية تتشاكل مع شكرى وتغضب تاركة له البيت حيث تأتى لتقيم معنا. بعد عدة أيام يأتى شكرى لاسترداد زوجته متحمــلا تعنيف أمى وتوبيخها له. غالبا ما كان كامل يتخذ موقف الحياد اعتمادا من جهة على قدرة الحاجة تحية على إنهاء الأزمة بدربتها الإدارية المعهودة، ومن جهة أخرى لحرصه على ســرعة إنهاء المشــكلة وعودة سعدية إلى بيتها. غير أنه فى إحدى غضبات سعدية اشتعل الخلاف بين شكرى وكامل، حين هجم شكرى عليه فطرحه أرضا وراح يكيل لــه اللكمات بعنف غريب. انقضت نادية على شــكرى فعضته بشراســة من كتفه بينما تولت الحاجة تحية تأديبه بنعل حذائها المدبب حتى ســال الدم من رأســه وقام هائجا فأمســك بالقلة الفخارية الموضوعة على الشباك وقذف بها فى اتجاه نادية التى انحنت فأفلتت منها بمهارة. تمكن منه كامل فى النهاية وانهــال الجميع عليــه ضربا قبل أن يتمكن مــن الإفلات والهرب. كان رد فعله المتوقع هو طرد ســعدية، وهذا ما حدث بالفعل حيث أقامت معنا طوال فترة الخصومة. كانت المرة الأولى فى حياتى التى ترى فيها عيناى مشهدا من مشاهد العنف والضرب والدماء السائلة

من الأنف والفم. رحت أبكى وأصرخ ولم أشعر بنفسى إلا فى الشارع حين اتجهت إلى مكتبة صغيرة يمتلكها صديق لكامل طالبا نجدته.

فى الليل لم أستطع النوم بسهولة، إذ لم تفارقنى مشاهد القسوة والبغض والكراهية المتبادلة بين البشر. كان لغزا شديد الغموض على فهمى أن أرى الوجوه عابسة متقلصة والشرر منبعثا من العيون فى نظرات عدوانية مترعة بالحقد والكراهية. من المؤكد أن أسباب النزاع كانت تافهة وإلا لتذكرتها الآن. كل ما أتذكره هو منظر الإنسان حين يتحول إلى وحش كاسر كالحيوانات المفترسة التى أشاهدها فى السينما.

فى طفولتى فهمت معنى الكراهية لأول مرة وأدركت أنها صفة بغيضة تشوه من جمال الصورة التى خلق الله عليها خليفته فى الأرض. وقر فى نفسى واستقر فى ضميرى منذ ذلك اليوم ألا أكره أحدا فى حياتى وألا أتسبب فى أن يكرهنى أحد بأى حال من الأحوال. كنت على يقين فى تلك المرحلة المبكرة من عمرى أنه من المستحيل أن يكون لى عدو فى الحياة طالما لم أفعل شيئا يبرر عداءه لى.

رغم حبى للناس ورغبتى فى الانفتاح عليهم من داخلى وخارجى إلا أن هاجسا من الحرص والحذر كان كثيرا ما يدفعنى إلى تحاشيهم واتقاء شرورهم قدر استطاعتى. أصبحت كمن يمشى على الرصيف بجوار الحائط خشية مخاطر الطريق أو سقوط المطر.

أنا «صمير» أحيانا و«سعيد» أحيانا أخرى. سمير بفطرتى الأصيلة وسـعيد بحكم الإنسـان المعدل بفعل الظروف والأحداث والتحايل على الحياة. بل إن هناك أنا ثالثة خفية تتحكم فى الاختيار بينهما حسب مقتضى الحال، وكأنى أعيش حالة مستقرة من الشيزوفرينيا الإرادية. هذا التلون يجعل الحياة أقل جمالا لأن الأصل فى الجمال هـو الفطرة التى خلقنا عليها الرب والتى لا تحتمل التعدد والتبدل والتلون.

من الطبيعى ألا تستقيم مشاعر العداء والكراهية مع سلوك إنسان محب مسالم عاشق للحياة، قرر ألا يعرف العداء ولا يبادر به أحدا فى حياته. تصورت أنه بمقدورى بناء على ذلك أن أنعم بالطمأنينة إلى الحياة، لكن الأيام كشـفت لى عن أعداء كارهين لم أمس أحدهم بسـوء أو أضمر له شـرا. رحت أبحث فى لهفة عـن مبررات عداء غامض من جانب واحد، لسـت أتحمل أدنى مسـئولية عن ظهوره. أسوأ ما فى حياتنا الدنيا الجميلة هم هؤلاء الناس الذين لا يعرفون الحب ولا يعيشـون إلا على الكراهية. تبين لى أن للغيرة والحسـد النصيب الأكبر من تلك المبررات. والأدهى أن تلك المشـاعر البغيضة لم تقتصـر على الأغراب وإنما امتدت فى بشـاعتها لتشـمل الأهل والأقـارب. لذلك لا أندهش حين أقرأ الآيات القرآنية الكريمة التى تقـول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٤]..

شـغلنى أمر الكراهية كثـيرا ولم أفرغ من التأمـل فيه والتدبر والتفكير إلا بعد أن أفرغت كل ما بجعبتى بشأنه فى رواية عنوانها «حالة مسـتعصية» صدرت عام ٢٠٠٢م عن دار الهلال. كانت حالة من الجدل العنيف بين النفس اللوامة ومهالك الشعور بالإثم، حين يظلم الإنسـان نفسـه بأن يحملها أوزارا وهمية تقـوم على مفاهيم وأعراف عتيقة، بحاجة ماسة إلى المراجعة.

• نذالة الشيخ ياقوت:

مضى على هذه الواقعة أكثر من ستين عاما، وهذه هى المرة الأولى التى أذكرها فيها سواء مع نفسى أو على الملأ. كنت فى حوالى الثامنة حيث تسرى تعليمات أمى ونصائحها فى عقلى وضميرى ووجدانى وكأنهـا قدس الأقـداس. لا تكذب. لا تقل إلا الصـدق ولو كان على نفسـك. أوامر نافذة من العقل حتى الـدم والعظام، لا تقبل الجدل أو التردد وكأنها ناموس الحياة. ذهبت إلى سـاحة شـهيرة بالحى عرفت باسم سوق العيد ومعى مليمان. يتصدر زعامة الألعاب والحيل والمشـروبات والمأكولات فى هذا السـوق ثلاثة من أسـاطين منطقة رأس التـين وعمده، هم الشـيخ ياقوت وعم جوجـع والمعلم كبارة. لكل منهم لقبه الذى اكتسبه من سكان حى بحرى بمرور السنوات. المعلـم كبارة يمتلك إلى جانب موقعه بالسـوق عربـة كارو يتجول بها لبيع السـمك فـى أوقات معينة. عم جوجـع يبيع الخضروات

والفواكــه الرخيصــة على عربــة ثابتة فى موقع محدد وسـط أزقة المنطقة لا يغيره. أما الشـيخ ياقوت – ولسـت أدرى لماذا التصق به هذا اللقب – فقد نصب مائدة قمار بدائية تتكون من قرص خشـبى دائرى فى منتصفه محور رأسى يدور من حوله قضيب معدنى يحمل أحد طرفيه مؤشرا مدببا. يضع الشيخ ياقوت قطعا من الحلوى ولعب الأطفـال على أطراف القرص ويدفـع القضيب الحديدى بيده ليدور عدة دورات حتى يقف المؤشـر على إحدى اللعـب أو قطع الحلوى لتكون من نصيب الفائز الذى وضع عليها مليمه قبل أن يدير الشيخ ياقوت ذلك الذراع الحديدى الصدئ. كثيرا ما كان المؤشر يستقر عند الفراغـات الكائنة بين اللعب وقطع الحلوى بحيث يخسـر المراهن مليمه دون أن يحصل على شىء فى المقابل.

وقفـت أتفـرج قابضا بيمنـاى على أحد المليمين وفـى نيتى أن أخـوض التجربـة باعتبارها عملا مشـروعا لم تحرمـه أمى علىَّ من قبـل، إذ لم أكن أعـرف حتى ذلك الحين معنـى كلمة القمار. عندما يقف المؤشـر علـى أحد ملاليم الصبيـة الموضوعة على الموقع المختـار، نهلل جميعـا ونصفق للفائـز باللعبـة أو قطعة الحلوى فيناولها له الشيخ ياقوت وهو يصيح فى ضجيج إعلامى كبير معلنا فوز الصبى وذلك لإغراء المزيد من الصبية للتجمع حول مائدة قماره المتهالكـة. معظم الهدايا الموضوعة علـى أطراف المائدة هى قطع من البسـكويت المتلئة بالعسل الأسـود والتى لا يتجاوز ثمنها مليما

واحدا بأى حـــال. لكنه كان يضع بين كل عدة قطع من هذه الحلوى لعبة ثمينة يتجاوز ثمنها عــدة قروش. اخترت إحدى هذه اللعب ووضعت عليها مليمى. أدار الشــيخ ياقوت القضيب بقوة فراح يدور ويدور وعينى منصبة على مؤشــره الــذى توقف بالفعل على اللعبة التــى وضعت عليهــا المليم وكان ملاصقا لها تماما. قفزت من شــدة فرحتــى وكان صيــاح الأولاد عاليا مبتهجين بفــوزى. مددت يدى لأستلم اللعبة التى ربحتها من الشيخ ياقوت وقد أصبحت من حقى. فوجئــت به يزيح بيدى بعيدا عن اللعبة مدعيا أن المؤشــر لم يقف عليها مباشــرة وإنما بعيدا عنها بمســافة وإن تكن صغيرة فهى لا تعطينى الحق فى امتلاك اللعبة!!

إذن فهــذا العجوز يكذب. لابــد أن أمه لم تعلمــه أن الكذابين سيدخلون النار. بعد ذلك عرفت أن الدنيا ملأى بالكذابين والمخادعين والغشاشين الذين لم يمتثلوا لنصائح أمهاتهم أو ربما لم يتلقوا منهن تلك النصائح من الأســاس.. كانت صدمتى شديدة وأنا أواجه الكذب والغــش والخداع لأول مرة فى عمرى الأخضر. لم أســتطع أن أفعل شيئا أقاوم به ذلك الغدر. خيرنى الشيخ ياقوت بين استعادة مليمى أو أخذ بسكوتة بالعسل فى مقابله. بينما كنت أقف مذهولا إذ جاء رجــل يصيح فى الشــيخ ياقوت بأن المعلم كبارة قــد قتل وأن جثته ملقاة الآن أمام عربته. صرخ الشــيخ ياقوت فى هســتيرية غريبة، ولشدة لوعته على مصابه فى صديقه ورفيقه وجاره فقد ترك مائدته

على حالها وأسرع يجرى تجاه عربة المعلم كبارة – وما زال مليمى فى يده – ومن خلفه الصبية الذين كانوا ملتفين حول المائدة.

فوجئت بنفسى أقف وحيدا أمام المائدة مترددا وعينى على اللعبة التى من المفترض أننى فزت بها والتى مازال من حقى أن آخذها. لم أستطع التوصل إلى قرار لأننى لم أدرك تماما هل أكون سارقا لو أخذتها فى غياب الشيخ ياقوت، وبذلك أكون قد خالفت تعليمات أمى المقدسة، أم أنه يحق لى أن آخذ اللعبة وأنصرف باعتبارها حقا مكتسبا لى يريد الشيخ ياقوت اغتصابه منى.

بعد قليل عاد الشيخ ياقوت مسرعا. راح يجمع أجزاء مائدته وبقية أدواته على عجل دون أن يلتفت إلى. عندما وجدت أنه ينصرف دون الاهتمام بشأنى جريت وراءه صائحا:

– هات المليم!

• **اقتحام:**

كان من الأسباب الجوهرية التى شجعت أخى كامل وأمى الحاجة تحية على إلحاقى بكلية الهندسة هو حصولى على مجموع كبير فى الثانوية العامة يسمح لى بدخول الجامعة مجانا وكان ترتيبى المائة والواحد والثلاثين على الإسكندرية ومنطقة غرب الدلتا. بذلك لم أدفع سوى ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا كرسوم التحاق أساسية. الطلبة غير المتفوقين كانوا يدفعون رسوما قدرها سبعة وعشرون جنيها ونصف. فى العام الإعدادى الأول من

الكليــة فوجئت بأن هناك مادة رياضية اسمها الهندســة الوصفية. تقــوم تلك المادة على الخيــال والتصور تماما، حيث نتخيل مثلا أن هناك نقطة فى الفراغ ثم نسقط منها أعمدة على عدة مستويات أفقية فى زوايا مختلفة، الأمر الذى لم يستوعبه عقلى نهائيا. أما الرسم الهندسى فقد تسبب لى فى عقدة نفسية أغرقتنى فى بحر من العذاب والألم، فقدرتى على تجســيد الأبعاد المســطحة إلى أبعاد مجســمة كانــت منعدمة تماما، على عكس معظم الطلبة الذين كان تخصصهم فــى الثانوية مادة الرياضيات. كانوا يدرســون الهندســة الفراغية التى تؤهلهم لفهم فوازير الهندســة الوصفية الرهيبة. اســتنجدت بزميلى السيد يوسف الذى كان بارعا فى الهندسة الوصفية والرسم الهندســى. ذهبت إليه فى بيته فعاملنى بعنف وقسوة حين طلبت منه أن يشرح لى بعض المسائل. شعرت بأنه يكاد يطردنى وهو يزعق ويشخط أثناء شرحه لى، مما زاد من ارتباكى وتوترى. يومها عرفت معنى أن يقف الإنسان عاجزا فى الحياة أمام معضلة لا سبيل له إلى فك طلاسمها، كما عرفت معنى الشعور بالذل حين يحتاج إنسان إلى العون من إنســان آخر فيخذله ويسىء معاملته، وقد علمتنى الحياة بعد ذلك أن مساعدة العبد للعبد كمساعدة السجين للسجين، فالاثنان سجينا عمر موقوت وأوهام مسيطرة وحقائق صادمة يتصدرها الموت.

بات واضحا أننى لن أستطيع مواصلة الدراسة بهذه الكلية التى تضخمت عقدتى النفسية منها حتى إننى كنت أحلم طوال الليل بأن

الأعمـدة الفرعونية الضخمة التى يقوم عليها بنيان الكلية المعمارى تنهـار وتسـقط فوق رأسـى. لم أكن أعرف حتى ذلـك الحين مدى قدرتى على اسـتنفار عزيمتى واسـتنهاض همتى وبذل المسـتحيل حتى أنجو من هزيمة الرسـوب فى الكلية التى اقتحمت أسـوارها لمجرد أننى طالب متفوق، لا لأننى أعشـق الهندسة وأرغب فى أن أكون مهندسـا، فميولى الحقيقية أدبيـة وفنية، وأنا أحب القصص والروايات والأشـعار والموسـيقى وأغانى العشـق والمسرح والسينما والقمر والنجوم ورياض الزهور.. أما الأعمدة التى تسـقط فى الفراغ على مستويات وهمية متخيلة فى الفراغ فعليها اللعنة ولتذهب إلى الجحيم.

الأسـتاذ الدكتور يوسـف نقولا مصمم كازينو الشاطبى العتيق بشـاطئ الأزاريطة كان يشغل رتبة عالية بالكلية تلى رتبة العميد مباشـرة. عملاق أجش الصوت يخشـاه الطلبة ويتحاشون الاقتراب منه. أرتعـد فزعا كلما اقترب منى وأنا منحن على لوحة الرسـم، فلسوء حظى الشـديد كان هو الذى يدرسنا الرسم الهندسى. عندما لا يعجبه رسـم أى طالب أو يكتشـف به خطأ ما فإنه يقسم اللوحة إلى نصفـين بقلمه الأحمر أو يرسـم عليها علامة X بحجم الصفحة وأحيانا يرسـم عليها أى أشكال سريالية بسـرعة البرق مرددا فى سخرية مفجعة:

– دى وزة ودى بطة ودى عصفورة وده حمار.

فيقوم الطالب منكسرا ويغادر الصالة فى خضوع وذلة. حدث أن اقترب منى مرة وكنت فى غاية الارتباك والتوتر لصعوبة الرسم المطلوب وتعقيده. حين وصل بى الفزع ذروته فوجئت به يتجاهلنى ويتجاوز مقعدى إلى آخر. تنفست الصعداء. فى تلك اللحظة اتخذت قرارا خطيرا يريحنى من عذاب القهر راحة نهائية مهما كلفنى ذلك من ثمن.

صباح اليوم التالى مباشرة كنت أقف بعيدا عن غرفة مكتبه أرقب لحظة وصوله. انتظرت قليلا حتى جلس على مقعده واندفعت كصاروخ إلى الباب. طرقته فى تأدب والشعور بالتحدى يسيطر على كيانى. فوجئت بصوت حنون يقول لى:

– اتفضل يا بنى.. ادخل.

دخلت ضاغطا على خوفى. قلت بجرأة فدائى مقاتل:

– يا دكتور أنا لا أفهم شيئا من مادتك!!

انتظرت أن يسبنى أو يطردنى لما عهدته فى سلوكه من فظاظة وعنف. لكنه قال لى بهدوء:

– اقعد يا بنى ولا يهمك.. ستفهم كل شىء إن شاء الله.

جلست على أحد المقعدين المواجهين لمكتبه، وكأن هم الدنيا قد انزاح بأكمله عن صدرى وأنا غير مصدق لما يحدث والفرحة تغمر كيانى. فى أبوة آسرة ربت على ظهرى ثم قام إلى أحد رفوف مكتبته

واستخرج كتابا ذا غلاف سميك فاخر، وجلس على المقعد المواجه لمقعدى. فتح الكتاب على الصفحة الأولى وقال:

– لا تخف من مادتى. سأشرح لك الصفحات الأولى من الكتاب وستخرج من عندى مؤهلا للتفوق فى الرسم الهندسى، وهذا الكتاب هدية لك

المكسب الخرافى الذى حصلت عليه من هذا اللقاء هو القضاء تماما على خوفى من أى شىء فى الحياة، ثم على عقدتى من هذه المادة وأستاذها. قررت أن أتخلى عن فكرة التحويل من كلية الهندسة إلى كلية الآداب. تحديت نفسى واستطعت اجتياز العام الإعدادى الأول بنجاح بعد أن بذلت جهدا طوال العام يفوق طاقتى بكثير. وتجنبا لأى احتكاك جديد محتمل مع المواد الهندسية اخترت قسم الهندسة الكيمائية. كان حبى للكيمياء مرتبطا بواقعة لا تنسى. لم تكن إمكانيات الأسرة تسمح بشراء الكتب الخاصة التى يسمونها الكتب الخارجية، فكنت أكتفى – فى المرحلة الثانوية – بالمذاكرة من الكتب المدرسية. لكن تصادف أن استعرت كتابا خارجيا فى الكيمياء من صديق لا أتذكره، على أن أعيده إليه بعد ثلاثة أيام. لم أكتف بفهم الشروح الواردة بالكتاب عن الذرة والتفاعلات الكيمائية، وإنما حفظتها عن ظهر قلب، ليقينى بأن الكتاب لابد أن يعاد إلى صاحبه فى الموعد المحدد. وتكون المفاجأة الكبرى أن تأتى جميع أسئلة الامتحان مطابقة للأسئلة التى راجعتها بمنتهى

الدقة فى الكتاب المستعار. وإذ بى أحصل على درجة تقترب كثيرا من الدرجة النهائية فى مادة الكيمياء، وإذ بى أصبح بعد سنوات خمس مهندسا كيمائيا.

من اللافت للنظر أن عشقى لعلم الكيمياء قد اقترن بعشقى لفن الرواية، حين لاحظت أن هناك ما يشبه التماثل بينهما فى حالات عديدة كالتحليل والتركيب والتكثيف والتفاعل، كما ينطبق الحال على الفلسفة فى مسألة التفاعل بين الفكرة ونقيضها لتكوين فكرة ثالثة أو مركب كيمائى جديد. الحياة نفسها كيمياء والحب كيمياء والفن كيمياء، كما أن هناك كيمياء للأرواح والنفوس والأبدان، وسبحان مالك الملك والملكوت.

• بنايوتى يغرق:

بنايوتى قسطنطين أرسلانيدس. صديقى الحميم الملازم لى كظلى خلال الأعوام الخمسة التى أمضيتها بكلية الهندسة. أبوه هو صاحب سينما أوديون بكامب شيزار. نذاكر سويا أحيانا فى بيته الملاصق للسينما، وأحيانا فى بيتنا الذى انتقلنا إليه بسيدى جابر عقب التحاقى بكلية الهندسة.

فى بيته لم أكن أعرف دائما أسماء الأطعمة التى تقدم لنا، وإن كان اسم الكالامارى مازال عالقا بذاكرتى. تقدم أمه الطعام إلينا وهى فى غاية السعادة بصداقتنا. تكلمنى بالعربية المضعضعة

بطريقة تضحكنى. أحيانا تقدم لنا الطعام الخادمة الريفية نفيسة بطيئة الفهم والحركة والإيقاع.

أما حين كان بنايوتى يحضر إلى بيتنا فكانت الحاجة تحية تعد له الطعام الذى لا تجيد أمه صناعته مثل المحاشى بأنواعها. من الطبيعى أن يشترى بنايوتى المراجع الضخمة الباهظة الثمن التى لا أجرؤ على التفكير فى شرائها. من الطبيعى أن أذاكر منها مثله تماما سواء أكانت بحوزته أم بحوزتى. بنايوتى يجد متعة فائقة – وأنا مثله – فى معاكسة نفيسة والسخرية من غبائها الشديد. يناديها بفتح النون ويطلب منها أداء عمل معين كإغلاق الباب من خلفها مثلا، ثم يراهننى أنها ستفعل العكس تماما، وبالفعل تتركه مفتوحا وكأنها لم تسمع شيئا ويكسب بنايوتى الرهان. يجيد السخرية من أى شىء حتى من نفسه. قبل أن ندخل الامتحان كان يبتهل معى إلى الله ويتوسل إليه أن تكون الأسئلة سهلة وأن يساعدنا ويلهمنا التوفيق. ما إن نخرج من الامتحان والبشر يعلو وجهينا لحسن أدائنا فأقول له:

– شفت يا بنايوتى.. ربنا استجاب لدعائنا.

فيشيح بيده ساخرا من قولى بابتسامة خبيثة:

– ربنا لا شأن له بما حصل، ولولا أننا ذاكرنا واجتهدنا لما استطعنا الإجابة عن الأسئلة.

وتنتابنى الدهشة فأصيح فى وجهه غاضبا:

– يا رجل حرام عليك. هل نسيت بهذه السرعة؟.. لقد كنت على وشك البكاء وأنت تطلب معونته.

– لا تخلط بين الله وقوانين الديناميكا الحرارية، فلا علاقة بينهما.

لم أكن أدرى وأنا أستمع إلى مقولته دون تمعن فى مغزاها، أننى بعد ما يقرب من ستة وثلاثين عاما سوف أنشر مقالا فى جريدة أدبية عنوانه المطلق والنسبى. أقول فيه إنه لا يجوز قياس ما هو مطلق بما هو نسبى، أو قياس ما هو نسبى بما هو مطلق. النسبى متغير قابل للزوال والمطلق ثابت مقدس لا يتغير ولا يزول، فعالم الملك شىء وعالم الملكوت شىء آخر مختلف. هذا عالم شهادة وذاك عالم غيب.

بنايوتى يقرأ الكتب الفلسفية بنهم. يبدو أنها أفسدت عليه إيمانه فصار متشككا فى كل شىء. قراءاتى متنوعة تشمل القصة والرواية والشعر وعلم النفس والاقتصاد والسياسة. تحققت نبوءة الحاجة تحية إذ أصبحت كاتبا معروفا حاصدا لجوائز الدولة وأوسمتها.

لم أقع فى فخ التشكك وإن حمت من حوله أحيانا. أغلب ظنى أن نجاتى منه راجعة لسبب جوهرى هو عشقى لترتيل الشيخ رزق للقرآن الكريم بصوته الجميل ومقاماته الموسيقية الشجية المتداخلة التى كانت تتسرب إلى أنسجة جسمى وتستقر فى روحى وتنسينى خير زانته الموجعة. تمكن ذلك العشق منى منذ صباى فى مدرسة

أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن، والكائنة فى شارع زاوية خطاب برأس التين حيث مسقط رأسى.

رويت لعلى ابن الحاج أحمـد الحلم الذى يطاردنى منذ طفولتى بطفرة سعيدة فى حياتى المقبلة. سألته فى فضول:

– هل تظن ياعلى أن حلم صعودى فى الحياة يمكن أن يتحقق؟

نظر إلىَّ متعجبا ثم شخر قبل أن يقول ساخرا:

– لابد أن نصفك التحتى لم يكن مغطى وأنت نائم.

لكن بنايوتى كان له رأى آخر حين قال:

– الإنسان الذى لا يحلم لا يستحق الحياة.

بعـد تخرجنا بعدة أيام غرق بنايوتى فى بحر العجمى على بعد خطوات قليلة من الشـاطئ. أصابته أزمة قلبية فسـقط ولم يشعر به أحد. وقف أبوه شـبه عار فى صالة البيت. شعره الكثيف نافر على صدره وهو يعاتب الله ويلومـه صارخا فى حرقة على اختطاف أعز أبنائـه والمتعلم الوحيد بينهم. يثور جامحا ثم يهدأ فجأة ليخاطب ربه:

– لابد أننى فعلت شيئا أغضبك حتى تأخذه منى بهذه القسوة.

ثم يعود إلى سخطه وغضبه:

– لماذا لم تأخذنى بدلا منه؟

أمـا أم بنايوتى فما إن رأتنى حتـى انفجرت فى البكاء صارخة فى لوعة:

– بنايوتى راخ.. راخ يا سعيد.

كنت أبكى كطفل ضاع من أمه فى ميدان واسع مزدحم. ظللت على هذه الحال طيلة النهار تقريبا. فى الليل لم أستطع النوم. كانت حدقتا عينى مفتوحتين على اتساعهما وقد عجز جفناى تماما عن الارتخاء والإغماض.

فى طفولتى لم أستوعب تجربة موت أبى. لم أشعر بصدمة. بل إننى لم أفهم معنى ما حدث على الإطلاق، فضلا عن أننى لا أذكر أدنى تفصيلات عن تلك الواقعة.. أما موت بنايوتى فكان صدمتى الأولى فى مواجهة الموت. رأيت الدموع والعذاب واللوعة فى عيون والديه. بنايوتى «راخ» يا سعيد. كانت تقصد «راح» بالطبع. ما معنى أن يروح إنسان ملء السمع والبصر فيختفى من الوجود إلى الأبد ثم ينسى وكأنه لم يكن؟.. موت بنايوتى استدعى إلى ذاكرتى موت أبى. سارعت إلى قراءة كتاب عن الموت لعله يعيننى على فهم تلك الظاهرة المثيرة. كان عنوان الكتاب: «قلق الموت» لمؤلف أوربى. تسببت قراءتى لهذا الكتاب فى وقوعى أسيرا لحالة اكتئاب حادة استمرت عدة أسابيع قبل أن أنجو منها لم أعد أذكر كيف. لكنى خرجت بمضمون مختصر للكتاب يقول بأن الموت ليس بشىء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهى الأعضاء التى يسمى مجموعها بدنا، كما يترك الصانع استعمال آلاته، وأن النفس جوهر جسمانى وليست عرضا، كما توصلت إلى أن الإنسان السعيد هو الإنسان المتحد غريزيا مع الكون والحياة بحيث لا يخاف

الموت لشعوره بأنه لن يكون منفصلا عمن سيأتون من بعده. وقد أعجبتنى مقولة أبيقور أن الموت لا يعنينا لأنه طالما نحن هنا فهو ليس هنا، وعندما يكون الموت هنا فلن يكون لنا وجود على الأرض. كما تعلمت أن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الموت هو نبذ التشبث الشديد بالحياة والتعلق بها كملكية خاصة لأنها ليست فى واقع الأمر كذلك وإنما هى عهدة ممنوحة من الخالق من حقه استردادها وقتما يريد.

كانت مارى شقيقة بنايوتى الصغرى تتصل بى فى الأعياد والمناسبات حفاظا منها على ذكرى صداقتى بأخيها وعائلتها. كثيرا ما كنا نترك المذاكرة ونتجه أنا وبنايوتى إلى مبنى السينما لنشاهد فيلما ثم نعود إلى المذاكرة. بعد وفاة بنايوتى كنت أذهب أحيانا إلى السينما فيستقبلنى شقيقه ميناس الذى ترك الجدرى آثاره فى وجهه. يستقبلنى بترحاب غير عادى ويصر على تقديم مشروب لى بالكافتيريا قبل دخولى إلى صالة العرض. الحياة تستمر إذن مهما يحدث ومهما يختفى منها الأحباء.

• **الفراشة تحترق:**

كانت تجربتى هذه المرة مع الموت أشد قسوة من تجربتى الأولى مع بنايوتى. شقيقتى نادية هى فراشة الأسرة الرقيقة الدقيقة الملونة الهادئة الحالمة. نبع من الحب وفيض من الحنان ونهر من العطاء للدنيا بأسرها. الابتسامة الملائكية العذبة الصافية لا تفارق

وجهها فى أى ظرف. تبحث عن كل السبل والوسائل لخدمة الجميع وإرضائهم ولو على حسابها. ترى الناس والدنيا دوما فى أجمل صورة ولا تعرف سوء الظن تجاه أى إنسان. كانت لى بمثابة أم صغيرة حنون رغم أن فارق السن بيننا لم يكن كبيرا. أيام الدراسة كانت تدس من جنيهاتها فى جيبى وتعد لى الساندوتشات وتراجع معى الدروس، وتدربنى على حب القراءة وتذوق الشعر والموسيقى. اختطفها منا الموت ونسيناها جميعا لست أدرى كيف، وكأنها لم توجد من قبل، حتى إن اسمها لم يكن يتردد فى مجالس عائلتنا الصغيرة إلا إذا ذكرتها الحاجة تحية وقرأت الفاتحة على روحها.

فى يوم ثارت علينا الحاجة واتهمتنا بقسوة القلب وانعدام الرحمة لعدم ذكرنا لشقيقتنا وانصراف كل منا إلى شؤونه الحياتية. لحظتها أصابنى شعور عظيم بالذنب إذ تذكرت مرورى ذات مساء على المستشفى التى ترقد بها. كان بصحبتى ابنى الأصغر محمود فى طريق عودتنا من بحرى إلى منزل الزوجية بمصطفى كامل عقب زيارة سريعة لأختى سعدية. أشرت له إلى المستشفى قائلا فى ثقة غريبة:

– غدا إن شاء الله سنشترى وردا وأصحبك معى لزيارة عمتك.

قال فى إصرار أغرب:

– ولم لا نزورها الآن؟

– الوقت متأخر ياحبيبى والزيارات فيه ممنوعة

ماتــت فى الفجر فلم أرها أو أودعهــا. فى الجنازة انفجرت فى البــكاء بصوت مســموع دون أن أدرى بمن حولى. اصطحبنى صديقى محمد إلى بيتــه وأعطانى قرصا مهدئا ونمت بملابســى كاملة على فراشــه ما يقرب من ســاعة أفقت من بعدها علــى الحياة فى غياب نادية، والتى كانت بحق لا طعم لها.

* * *

أتساءل دوما : هل تستحق منا الحياة أن نتحمل لأجلها كل هذا القــدر من العذاب والمعاناة؟.. تطاردنــى هواتفى الغامضة. يقول لى أحدهــم إن ما مضى من هذه الحياة الدنيا حلم وما بقى منها أمانى، ويقول آخر إنك لا تكاد تمد يدك لشــىء فيها إلا وجدت آخرين قد سبقوك إليه. ويقول ثالث إنها المعذبة لمن أطاعها المهلكة لمن اتبعها الغــادرة لمــن انقاد لها. ولكن يســتهوينى هاتــف التوحيدى الذى يقول: «ما أشــبه الدنيــا وخداعها إلا بقحبة حســناء تظل تناديك وتناجيــك حتى إذا أقبلت منها صاحت فــى الناس وصرخت للوالى وأورثتك الندامة وعض الأنامل من الغيظ».

* * *

الفصل الرابع

سـأطلعك على سر أبوح به لأول مرة. لقد أحببت مرة واحدة فى مطلع شـبابى ولم أحب مرة ثانيـة حتى الآن، وبالطبع لم يعد لدى متسـع من الوقت أو العمر لأحب من جديد. تلك رفاهية لم يكن من حقـى أن أفكر بها وأنا فى حربى مع الفقـر الحقير الذى يمتدحه مشايخكم فى المساجد. هل تعلم من كانت حبيبة القلب التى لم أهنأ بحبهـا لحظة واحدة؟.. لقد كانت فريـدة التى أحبها كامل. كانت تكبرنى بأعـوام عديدة، وكنت أعرف أن كامـل يريد أن يتزوجها ومع ذلك كانت تشـغل فكرى وتسكن قلبى. إنى أرى اليوم فى تلك العاطفة تجاهها مرضا مرجعه سـوء التنشـئة العاطفية والنفسـية منذ الطفولة، والحرمان من المشـاعر السوية. الدنيا مليئة بالفتيات وزميلات الجامعـة وبنات الجيران وبرغم ذلـك لا أختار إلا التى اختارها أخى الأكبر والتى لا تناسـبنى فى العمر أو فى أى شـىء آخر.. ما هذا فى حقيقـة الأمر إلا مرض أورثه الفقر الذى لا تأتى مـن ورائه منفعة. ومـن عبث الأقـدار أنها حلت المشـكلة لكلينا بزواجها من ثالث. باعتنا معا دفعة واحدة لضمان مستقبلها المادى، وخيرا فعلت، فهذا هو عين العقل الذى حرمت منه أسرتنا الفقيرة. لقـد حذفت كلمة الـروح من قاموس حياتى ولم أسـتبق إلا العقل.

كل علاقاتى النسائية كانت حيوانية مقززة وإن اتخذت مظهرا راقيا أنيقا وتلفعت بابتسامات جليدية زائفة وسهرات فى أرقى الفنادق والمسارح والملاهى الليلية.

لعلك تذكر أننى خلال الفترة الوجيزة التى أعقبت تخرجى والتى تنقلت فيها بين عدة أعمال محدودة قد تمكنت من تجاوز كل من سبقونى بعشرات السنين. علمونى القسوة والجبروت رغم أنهم كانوا صعاليك وأدنياء بمواقفهم ونواياهم. كان اجتنابهم هو قرارى الصحيح لتباعد بينى وبينهم بحار ومحيطات، وأتحصن بقوتى وكبرى وأتخلص من طنينهم المقزز حول أذنى.

وكيف كان لى أن أحب وقد ضقت ذرعا بنفسى فلم أتهالك فى السباق نحو الذروة إلا تهربا من الحياة التى تمنيتها فى بداية الأمر، وطلبا للاستغراق فيما أنا فيه حتى نسيت ذاتى واستسلمت لحاضرى دون ماض أو مستقبل. بكلمة واحدة منى صرت قادرا على التحكم فى مقدرات ولاية بأكملها كما لو كنت أعيش فى دولة متخلفة. وليس غريبا أن يتبين لى بعد تجاربى العسيرة هنا، أن العالم كله شرقا وغربا – وليس وطننا فقط – يعانى من التخلف إذ أصبح يتفنن فى قتال بعضه بعضا تحت مبررات كاذبة على رأسها الدين، سعيا وراء السلطة والثروة ولا شىء غيرهما.

* * *

يعتقـد أنه أحب فريدة. نديم لم يعـرف الحب وأغلب ظنى أنه أيضـا لم يعرف الإيمان، ولا حب بغير إيمان ولا إيمان بغير حب. جلب نديم لنفســه هموم الدنيا التى أمرضت روحه، حيث لا دواء لها إلا الحب والأغانى، وهما الشيئان الغائبان تماما عن حياته.

• الحب الأول:

خدعت صهرى المهندس عبد الســلام فلم أخبره أننى مضطر بعد عقد قرانى على ابنته «جميلة» بأسابيع قليلة إلى تسليم نفسى لإدارة التجنيد فى نهاية عام ١٩٦٨م. خشـيت أن يتردد فى قبولى تحسبا للمجهول، فقد كانت البلد فى حالة حرب وكان اليهود يسـيطرون على أراضينا وأراضى سـورية والأردن بدعم معلن من العالم بأسـره كراهية فى عبد الناصر وتشـفيا فى هزيمته السـاحقة. شـاركتنى جميلة فى المؤامرة فلم تخبره هى الأخرى، ولما علم ثار عليها غاضبا فقد كان يعتقد – لسـبب لم أعرفه حتى اليوم – أننى سـوف أكون ضمن الشـهداء تاركا ابنته معقودة القران موقوفة الحال. كان رأيه الاكتفاء بالخطوبـة وتأجيل القران لما بعد الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية، حتى إذا توكلت على الله واستشهدت لا تضار ابنته فى شىء ويسهل زواجها من غيرى على الفور.

خدعتـى البريئة لصهرى لا تقارن بخدعة العمر الموجعة المؤلمة التـى تلقيتها من جميلـة ولم أعلم بحقيقتها إلا بعـد زواجنا بما يقرب من أربعين عاما.

اعتاد صهرى ألا يزوج بناته إلا بعد تخرجهن فى الجامعة مهما بلغ شأن طالب الزواج من إحداهن. كانت جميلة هى أجمل أخواتها، ولذا فقد كثر خطابها خلال فترة دراستها بكلية العلوم، لكن عبد السلام كان يرفضهم جميعا طالما لم تتخرج جميلة. فى العام النهائى تقدم لها شاب من عائلة محترمة يعمل معيدا بالجامعة، وكان قد بقى على تخرجها أسابيع قليلة. أعجب به عبد السلام ووافق عليه عن اقتناع شديد. وعده بإتمام الخطوبة عقب الانتهاء من امتحانات البكالوريوس. كان يوما عصيبا علينا. جميلة تبكى وأنا أضرب كفا بكف ولا أستطيع أن أفعل شيئا، فقد كان من المستحيل أن أتقدم لخطبتها وأنا مازلت طالبا وأمامى ما يقرب من العام لحصولى على بكالوريوس الهندسة، فضلا عن ضرورة الانتظار حتى أوفق فى الحصول على عمل مناسب.

عشنا أياما عصيبة ونحن نقف عاجزين عن حماية حبنا والدفاع عن وجوده الذى أصبح مهددا بالاندثار وعن أحلامنا وآمالنا التى باتت عرضة للفناء. جافانى النوم وطاردتنى الكوابيس. أرى جميلة بين أحضان ذلك الرجل الغريب المحتال الذى استطاع أن يأكل عقل صهرى ويوقعه فى حبه حتى جعله غير قادر على الاستغناء عن مجالسته كل يوم.

بدأت امتحانات جميلة. فى اليوم الثالث جاءتنى مبتهجة الأسارير منشرحة الصدر باسمة الثغر، والفرحة طاغية على كيانها. كنت أعرف أنها منقولة إلى السنة النهائية ومعها مادة

راسبة فيها من العام السابق وعليها أن تمتحن فيها مرة ثانية. حصولها على البكالوريوس مرهون باجتياز هذه المادة بنجاح فضلا عن ضرورة النجاح فى جميع مواد البكالوريوس. قالت لى بنبرات مترعة بالفخر والانتصار:

– سأرسب هذا العام حتى أعطيك الفرصة لتتقدم إلى أبى بعد تخرجك مباشرة.

– لم أفهم شيئا.

– تركت ورقة إجابة الكيمياء العضوية بيضاء تماما.. لم أكتب بها كلمة واحدة.

– معقول؟!..

– لم يكن هناك بديل، حتى أعيد السنة فيصرف أبى النظر عن زواجى من الدكتور أو يؤجله على الأقل.

لم أقدر فى حياتى تضحية لمخلوق عرفته أو سمعت عنه مثلما قدرت تضحية جميلة لأجل حبنا الجميل. نجحت خطتها بالفعل وكسبت المعركة بمساعدة أمها الرائعة التى كانت ترعى حبنا فى صمت، والتى كان تأثيرها فى زوجها قويا بالمحبة والتفاهم. ظللت عمرى حافظا لها جميلها شاكرا لها نبل موقفها. طالما تباهيت بموقفها هذا أمام الأهل والمقربين.

كم أحببت حديقة كلية العلوم الصغيرة التى كنا نجلس فيها بالساعات. أحيانا كنت أذهب إليها هناك فلا أجدها. تكون فى محاضرة أو فى المعمل. زميلاتها يستضفننى فى الكافتيريا ويَقُدمن لى

المشروبات لحين أن تحضر. مرة علمت أنها بمعمل الفيزياء. مررت أمـام باب المعمل حين لمحتنى. ما كان منهـا إلا أن خلعت البالطو الأبيـض تاركة كل شـىء وخرجت لتلقانى. طلبـت منها أن تعود لتكمل عملها على أن نلتقى بعد ذلك فى الحديقة أو الكافتريا. قالت لى وهى تبتسم ببساطة شديدة:

– خلاص. أنا أخذت «صفر».. لا تشغل بالك.

فى ذلـك اليوم تعهد كل منا للآخر بألا يكون لغيره مهما كانت الظروف أو الضغوط، وأن نرعى حبنا بكل ما لدينا من عزم وإصرار.

بعـد حـوالى أربعين عاما مـن زواجنا كنا نجلس على شـاطئ مرسى مطروح بمصيف نادى سموحة وكان بصحبتنا أسرة صديقة. الدكتور محمـد وزوجته الدكتورة فاطمة، وهما من جيران الطفولة فى رأس التين. بيت فاطمة كان فى مواجهة بيت شـقيقتى الكبرى سـعدية. كنا نتحـاور فى صبانا مـن خلال الشـرفات ونتفق على مواعيـد نزولنا إلى الشـاطئ المواجه لبيوتنا مباشـرة. لم يكن لدينا أدنى تصور عن خيانة الدنيا وغدر الأيام. بيت محمد يبعد قليلا عن بيت فاطمة. لم يكن أحدهما يعلم أن الأيام سوف تنصب لهما شركا للحب يقعان فيه ويتم الزواج ضد رغبة أسـرة محمد لأسباب لست أذكرها. على الشـاطئ انبرى الدكتور محمـد يتباهى برواية قصة تحديه لأسـرته لأجل عينى فاطمـة الخضراوين. ما كان منى إلا أن تباهيت أنا الآخر بتضحيـة جميلة لأجلى إذ تركت ورقة الإجابة

بيضاء بغير كلمة حتى ترسب ويرحل الخطيب المنتظر لأحل محله. فى تلك اللحظة تلقيت صدمة عمرى حين فوجئت بجميلة تقول:

– هذا لم يحدث!

كان وقع كلماتها على كوقـع الصاعقة. انصب ذهولى فى حدقتى عينـى المثبتتين عليها فى فزع وجف ريقى واحتبس فى فمى الكلام وقد شـعرت بطعنة نافذة فى القلب. سـاد صمت ثقيل بيننا جميعا فإذا بها تقول:

– أنت لم تفهم جيدا ماقلته لك فى حينه.

أربعـون عاما وأنا متعايش فى فخـر مع أكذوبة!!.. الذى آلمنى حقا أنها لم تصارحنى بما تدعيه الآن طيلة ما مضى بيننا من زمن، وإنمـا فاجأتنـى به أمام الآخرين دون سـابق تمهيـد، فأظهرتنى بمظهـر المدعى الكاذب أو المخدوع السـاذج. فى ذلـك اليوم ركبنى هم وغم. وجدت نفسـى أتوجه إلى الحقيبة التى كانت تحوى جميع خطاباتنا المتبادلة عبر السنين، خاصة خلال سنة إعارتها إلى عمان. فتحت الحقيبة فـى غضب. فصلت خطاباتى عن خطاباتها. وضعت كل منهمـا فى مظروف منفصل عقابا لها علـى أكذوبتها الموجعة، وكأننـى أقوم بعملية طلاق بين عواطفنا المنسـكبة حبرا على الورق والتى عشنا فى ظلها كل هذه الأعوام.

هكـذا كان رد فعلى الانتقامى من محبوبتى رومانسـيا للغاية، فلم أجد ما أفعله غير ذلك تنفيسا عن صدمتى العنيفة بعد أن عشت فى قصة وهمية مختلقـة لما يقرب من أربعين عاما. وإذا كانت هذه

هــى الواقعة الأولى التى تؤذى فيها جميلة مشــاعرى وتصدمنى فى قناعاتى الرومانسية الحالمة الرائعة، فإن هناك صدمة أخرى سابقة لها بعدة سنوات آذتنى بها حين جاءت أمى لتقيم معنا لعدة أشهر بالتبــادل بين الإخوة والأخوات، بعد أن تنازلت عن شــقتها لأحد أحفادها ليتزوج ويقيم بها، بحيث أصبحت بلا سكن خاص تملكه. كانت مريضة وبحاجة إلى الرعايــة والمتابعة. لم يفهم أحدنا كيف اســتطاع نديم فى زمن قياســى وبمهارة غير مســبوقة أن ينتقل من مصاف الفقراء إلى مصاف الأغنياء حتى من قبل أن يهاجر. أسكنها فى شقة بأحد بيوته التى اشتراها بأبى قير وكان يؤجر شققه جميعا مفروشة للمصطافين وغير المصطافين..

لم يكــن من المنطقى تركها وحيــدة لمجرد تمتعها بالخصوصية وبمــا تحب من اســتقلالية. فى البداية كنا نتبــادل زيارتها، لكن المرض تضاعف واستفحل، كما تعرضت مرة للحرق ومرة للاختناق بالغاز حين نســيته مفتوحا، بحيث أصبحت إقامتها وحدها مصدر خطــر قاتل عليها. عندما عرضت الأمــر على جميلة قبل أن تحضر أمى فوجئت بها تقول لى ببساطة:

– ولماذا لا تذهب لتقيم معها مؤقتا بدلا من مجيئها هى إلى هنا؟

لم أصــدق أذنى. أصابنى ذهول ألجمنى عن الكلام. ظللت مبحلقا فيها فاتحا فمى عاجزا عن الرد عليها. واصلت الكلام مفسرة وجهة نظرهــا بأن الأبناء الثلاثة فى مراحل دراســية حساســة، ووجود

الحاجة سيربك البيت ويعطل الأولاد عن المذاكرة، فضلا عن عدم وجود غرفة إضافية لها.

بعد دقائق كنت جالسا فى حديقة فندق سان استيفانو الكلاسيكى العتيق بمواجهة البحر، أجتر وحيدا حزنى العميق، وكأننى أكذب أذنى، فهذه ليست جميلة التى أحببتها وأحبتنى، وهذا هو البحر الذى شهد أحلى أيام عمرنا معا، يشهد الآن على رفض حبيبتى لأمى التى أنجبتنى، وعلى تضحيتها العاجلة بوجودى بين أسرتى، مفضلة إقامتى عند أمى بعيدا عن أولادى بدلا من إقامة أمى عندى. ظللت أدخن الشيشة بشراهة لمدة ساعتين.. ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣]. كان قرارى حاسما. تحديت موقف جميلة الشائن. ستحضر الحاجة تحية إلى بيتى لتقيم به معززة مكرمة كما تشاء مهما طالت فترة إقامتها، حتى لو كانت تلك الإقامة دائمة ونهائية. بعد اتخاذى هذا القرار أيقنت بأن نظرتى الرومانسية إلى الحب والحياة قد باتت بحاجة ماسة إلى إعادة نظر شاملة. عندما جاءت الحاجة لم تكن تعلم شيئا بالطبع عن موقف جميلة من مجيئها. فوجئت بحسن استقبالها لأمى. ظننت أنها ندمت على موقفها الشائن تجاهى قبل أن يكون تجاه أمى وتراجعت عنه. لكن تبين لى بعد ذلك أن لديها قدرة فائقة – كشأن معظم النساء – على التمثيل والمراوغة، بحيث صدقتها أمى وراحت تقبلها بمحبة وحماس.. ما إن مرت أيام قليلة

حتـى صدقت نبوءة جميلة حين تحول البيت إلى سـاحة مزدحمة بالغـادى والرائح والجالس والواقف من الأهـل والأقارب القادمين لزيارة الحاجة والحديث معها فى أى وقت ولأى مدة زمنية. انشغل الأولاد وأمهم فى عمل الشاى والقهوة وتقديم المرطبات وتلبية طلبات الزوار، فضلا عن طلبات أمى. ارتبك البيت ارتباكا شديدا واستحال بالفعل على الأولاد أن يركزوا فى دراسـتهم استعدادا للامتحانات. مـن حين لآخر كانت جميلة تنظر إلى نظرات موحية بأن توقعاتها كانت فى محلها، وأننى المسئول عن الفوضى التى دبت فى البيت، وحين عبرت عن نفسها بالقول متجاوزة إيحاء النظرات فإنها قالت بصراحة قاطعة:

– بيتنا تحول إلى كافتيريا يا بشمهندس.

كانـت حيرتـى بالغـة إذ كان مـن الصعب صد هذا السـيل من الزيـارات. لا أحد من الزوار يعانى ما أعانيه من تحمل مسـئولية اسـتضافة الحاجة، وكأنما يـرون أن إكثارهم من التردد على بيتى سوف يبعد عنهم شبح احتمال إقامتها عندهم واضطرارهم للمشاركة فى تحمل مسئوليتها.

كان لابـد من إيجاد حل حاسـم لإعـادة النظـام والانضباط إلى البيت. أعلنت على الجميـع تحديد يومين معينين للزيارة على ألا تزيد مدتها على ساعتين. اسـتاء الجميع بشدة من قرارى، فثقافة الاعتراف بحق الغير فى الحرية الشخصية تكاد تكون منعدمة بين

أفراد الأسـرة مثلما هى منعدمة بـين أفراد المجتمع. رغم ذلك فقد كانوا مضطريـن للالتزام بهذا النظام الصـارم لتجنب خطر انتقال الحاجـة إلى بيـت أحدهم. نديم فقط هو الذى شـذ عـن الالتزام إذ تجاهل قرارى وحضر فى يـوم مخالف لليومين المحددين. فتحت لـه الباب ولم أدعه للدخول إلا بعد أن أعطيته محاضرة قاسـية فى أهمية احترام حقوق الآخرين وحرياتهم. لم أشأ المبالغة فى إهانته فسمحت له بالدخول ولكن بعد أن تعهد – على مضض – ألا يعاود الخروج عن النظام الموضوع حرصا على مسـتقبل أولادى وعلى عودة الاسـتقرار إلى البيت. أما ابن سعدية الأكبر فقد بلغ احتجاجه على قـرارى مبلغ المقاطعة التامـة حتى إنه أقسـم ألا يدخل بيتى مرة أخـرى. غير أن زوجته جاءت بعد ذلـك بمفردها لزيارة الحاجة، وهـى من ذلك الطـراز من الناس الذين يفهمون الدين فهما قشـريا سطحيا غبيا متخلفا ويهتمون بمظاهر الحجاب والنقاب ويتحدثون بلا فهم ولا معرفة عن الحلال والحرام بجدية مضحكة.

كنت منشـغلا بغرفة مكتبى فى الكتابة، لكنى تركت ما بيدى وقمت لاسـتقبالها والترحيـب بها. مددت يـدى إليها لمصافحتها ففوجئـت بأنهـا ترفض مصافحتـى باعتبـار ذلك شـيئا محرما شـرعا!!.. لم أتمالك نفسى من سبها وسب جهلها وتخلفها معبرا لها عـن ندمى البالغ لأننى احترمتها بـأن تنازلت بمد يدى إليها

لمصافحتهـــا. غادرت البيت ولم تدخله منذ تلك الواقعة وحتى اليوم الذى أكتب فيه هذا الاسترسال.

ازدادت مســـاحة الجفـــوة بينى وبين جميلـــة وانقطعت العلاقة الحميميـــة بيننـــا لفترة طويلة. فـــى تلك الآونـــة تعرضت لتجربة عاطفيـــة عنيفـــة، كانت ماريا بمثابـــة محطة مهمـــة توقفت فيها متأملا موقفى من الحب والحياة، والحق أننى حتى هذه اللحظة من استرسالى فى الكتابة لست أجد – لأسباب كثيرة – رغبة ملحة فى التعرض لتلك التجربة الصعبة بسرد أحداثها الخطيرة التى تركت آثارا لا تمحى على صفحة حياتى. كل ما أســتطيع ذكره بثقة تامة هو أنه لولا موقف جميلة من أمى لما تركت نفســى أنساق وراء وهم حب جديد استولى على حياتى لسنوات ثلاث كاملة.

* * *

الفصل الخامس

كلما مر بى الوقت فى الغربة ازداد توحشى، حتى إننى صرت مقتنعا بنصيحة أحد الفلاسفة الملحدين لرجل مقتدر ألا يمنح الناس إلا صدقة – لو كان لا مفر أمامه من العطاء – شريطة أن يتقدموا إليه مستجدين ذلك العطاء. لقد عشت حياة حافلة بالأخطار ورغم ذلك كنت مع كل ضربة نجاح ساحقة أشعر بأن حياتى لا معنى لها. لعلك لا تستطيع أن تتصور معنى أن تتنقل بين غرفة العمليات وغرفة الإنعاش فى مستشفى فاخر دون أن يسأل عليك مخلوق يوحد الله أو يثلثه، فلا زوجة ولا أبناء ولا أحفاد ولا أقارب ولا أصدقاء. ويحدث هذا باختيارى الحر بأن كتبت على نفسى العزلة والوحدة بحيث يظل هدفى أمام عينىَّ لا يفارقهما لحظة.. ولم يكن علىَّ إلا أن أقفز فوق المترددين والمتأخرين والعاجزين. عظمتى وكبريائى فى قوتى. تمردت على كل السنن التى قامت عليها حياتى والتى مازالت تقوم عليها حياتك المتراجعة أنت وبنى قومك حتى الآن. التنافس على المال والسلطة لا يعرف الرحمة، ومن المضحك أننى قرأت قولا لرجل دين يحقر فيه من شأن المنافسة لأنها تبعد المرء عن الله!..

من المؤكد أن السؤال الذى يلح الآن على خواطر الجميع هو كيف أصبحت هكذا، أو ما هى التجارة التى مارستها أو السلطة

التى اغتصبتها أو المال الذى سـرقته أو كسـبته بعرقى وجهدى أو سـقط بين يدى فى ضربة حظ كورقة يانصيب رابحة، وربما كانت سمسـرة عقارات أو تجارة سيارات. من الطبيعى أن يقتلكم الفضول والرغبة فى معرفة كيف أصبح حالى هكذا وأنتم كما كنتم وستظلون هكذا حتى نهاية العمر.

إنه لأمر مرهق للغاية أن أحكى لك الخطوات التفصيلية بترتيبها الواقعـى والتى أدت بى إلى تلك النهاية. الآن وقد رحل الجميع ولم يبق إلا أنا وأنت على قيد الحياة وقد دهمتنا الشـيخوخة المزعجة، دعنى فقط أفيد أبناءك وأحفادك وأبناء إخوتى وأحفادهم بالوسـائل التى اتبعتها حتى أصبحت رجل المال والسياسة الأمريكى من أصل مصرى نديم صادق الذى يتمتع بأعلى مراتب السـلطة والثروة معا، فمن يريد أن يكون مثلى عليه أن يتبع خطواتى بلا تردد، ومن يشاء أن يمضى عمره بين الوظيفة والبيت والمقهى والمسجد فلا شأن له بى أو بما أقول.

• جدى العظيم بتاح حتب ينصح ابنه:

«إذا أصبحـت عظيما يا بنى بعـد أن كنت صغير القدر، وصرت صاحـب ثروة بعـد أن كنت محتاجا، فلا تنـس كيف كانت حالك فـى الزمن الماضى، ولا تتباه بثروتك التى أتت إليك منحة من الإله الملك، فأنت لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر».

• **الخسيس:**

ظللت زمنا طويلا رافضا لمقولة جان بول سارتر الشهيرة بأن الآخرين هم الجحيم، وقد أعجبتنى مسرحية «الآخرون» التى كتبها ترويجا وتفسيرا لمقولته، ورغم ذلك لم أتنازل عن رفضى لهذا الفكر الذى رأيته غريبا.. من الواضح من رسالات نديم أنه كان لا يرى الجحيم فى الآخرين فقط، وإنما كان يراه فى كل شىء عداه هو، وتلك حالة أكثر بشاعة وعدمية مما تصورت فى حياتى وكلما تأملت فى جوهرها ازددت حيرة ولم أجد لها سببا.

لقد مررت خلال رحلة حياتى بالعديد من التجارب الأليمة التى قاسيت فيها من خيانة الأصدقاء وغدرهم وتقلباتهم، فلم أنظر إلى مواقفهم باعتبارها إرادة معاكسة لإرادتى تعمل على إيذائى وإقصائى ومعاداتى حسب فكر سارتر، وإنما نظرت إليها باعتبارها سقطات إنسانية استثنائية لا تعنى بأى حال تعميم فكرة أن كل ما يتعلق بالآخر فهو جحيم بالنسبة لى.

لم تتغير تلك النظرة المثالية إلا بعد طعنة غادرة تلقيتها من صديق لم أجد له أدنى تبرير فيما فعل بى على غير انتظار أو توقع، حيث شعرت ساعتها بأنه لا يعنى بالنسبة لى إلا الجحيم بعينه.

خلال عملى بالقطاع العام كنت أعمل مستشارا فنيا لمجموعة شركات الهلال، وهو عمل إضافى خاص لا علاقة له بعملى الحكومى. كلما استدعيت من قبلهم لإجراء دراسة فنية أو معاينة مصنع أو

ماكينة وما شابه ذلك، كنت أتوجه إلى صديقى ورئيسى فى العمل مصطفى المهداوى طالبا منه الموافقة على إجازة تتراوح بين الأسبوع والأسبوعين حسب مقتضيات الحال. كنت أحكى له بنية خالصة عن تفاصيل عملى مع هذه المجموعة وسفرياتى معهم إلى الخارج. فى مرة أبدى لى رغبة مستترة – وإن كانت قوية – فى أن أجد له مكانا للعمل لدى هذه المجموعة. اتفقت رغبته مع رغبتى فى أن أقدم له معروفا لن يضيرنى فى شىء، بل سيسعدنى كصديق من جهة، ويسهل لى مهمتى من جهة أخرى فلا يضع العراقيل أمام طلباتى المتكررة للحصول على إجازة، فضلا عن أن مشاركته لى فى هذا المغنم ستقطع دابر نظراته الحاسدة التى لم يستطع إخفاءها رغم دهائه الشديد.

وافق المهندس كمال عبد الهادى رئيس مجلس إدارة المجموعة على إلحاق مصطفى المهداوى بالعمل معنا بعد أن أفضت له فى الحديث عن خبرته الواسعة فى المجال الصناعى الذى نعمل به. اصطحبت مصطفى المهداوى معى إلى مكتبى بمبنى إدارة المجموعة فى مصر الجديدة، حتى أقدمه للمهندس كمال. عندما دخل مكتبى – الذى خصصه لى عبد الهادى – لاحظت عليه دهشة شديدة وانبهارا غير عادى بفخامة الغرفة والمكتب. تغير لون وجهه عدة مرات وكانت نظرات عينيه غير مريحة على الإطلاق، وكأنه يستكثر علىّ هذه الرفاهية المظهرية التى لا يتمتع بشىء منها فى مكتبه بالشركة التى نعمل سويا بها. جلسنا بانتظار قدوم الرئيس

وطوال فترة انتظارنا لم يفتح الله على مصطفى بكلمة واحدة مما أثار دهشتى وتعجبى، وجعلنى أصر أنا الآخر على ألا أفتح فمى بكلمة.

عندما دخل علينا المهندس كمال عبد الهادى مرحّبا بنا، فوجئت بمصطفى ينحنى لـه فى احترام زائد به كثير من المبالغة، أضعاف الاحترام الذى يبديه لرئيس شركتنا الحكومية.

لسـت أدرى لماذا جـال بخاطرى الآن هاجـس خيالى جنونى، إذ رأيـت أمى الحاجـة تحية ومعها إخوتى الثلاثـة نادية وكامل وسـعدية قادمـين باتجاهـى وعلى وجوههم ابتسـامات شـديدة العذوبـة، برغم أنهم جميعا قد ماتوا خلال فترات زمنية مختلفة. فقدان الأحبة أمر محزن عسـير لا نملك إزاءه سوى الصبر والتأمل فى مشيئة الله فى شئون خلقه. تصورت أنهم كانوا بنواياهم الحسنة سـيلومونني كثيرا على سـوء ظنى بالمهداوى ونظراته التى ظننتها غيورة حاسدة حاقدة.

تقرر أن نسـافر جميعا إلى قبرص لمعاينة بعض المصانع المملوكة لمؤسسة غير حكومية تنوى تصفية أعمالها. أرشدنا إلى هذه المؤسسة سمسـار يونانى خفيف الظل عاش فى مصر طويلا. كانت الأسـعار مغريـة، كما كانت حالة الماكينات جيدة لولا أن النزاعات القضائية بين الشركاء هى التى أدت إلى عرض مجموعة مصانعهم للبيع بهذه الأسعار.

فـى المطار حدثـت مفاجأة غير متوقعة علـى الاطلاق. تبين أن جواز سـفرى لا يسـمح لى بمغادرة مصر قبل إظهار شـهادة تأدية

الخدمة العسكرية، والتى كنت قد أنهيتها منذ سنوات عديدة. أوضحت لضابط الجوازات أننى تجاوزت الأربعين وبالتالى لم أعد مطلوبا للتجنيد، وأنه ليس هناك مبرر لاحتجازى لهذا السبب غير المنطقى. تمسك الضابط بتنفيذ اللوائح. انقلبت معالم وجه عبد الهادى من السماحة الجميلة إلى الغضب المكتوم أمام هذه المهزلة. طلب منى – بهدوء غير عادى – أن أتجه إلى الإسكندرية بالطائرة لأحضر الشهادة من منزلى ثم أعود فورا إلى مقر المجموعة بمصر الجديدة لتتولى الإدارة تسفيرى إلى قبرص بتذكرة جديدة، ووعدنى أنه سيرتب معهم الأمر فورا.

لم أجد مكانا شاغرا بالطائرة، فعدت إلى الإسكندرية بالأوتوبيس الصحراوى. أمضيت الساعات الثلاث نائما فى مقام المغمى عليه من شدة التعب والإرهاق ومحاولة الهروب اللاإرادى من الصدمة وخيبة الأمل. دهشت جميلة لعودتى المفاجئة. كان المغرب يؤذن. طلبت منها أن تعد لى كوبا من الشاى باللبن – لست أدرى لماذا كان هذا الاختيار– وتوجهت من فورى إلى غرفة المكتب. فتحت الدرج الأوسط واستخرجت منه الشهادة فى ثوان معدودة. أفرغت الكوب فى جوفى بسرعة، ولم أجلس دقيقة واحدة على أى مقعد بالمنزل. فى دقائق كنت بمطار النزهة. وضعتنى المضيفة الأرضية على قائمة الانتظار لأن الطائرة كانت محجوزة بالكامل. كانت المضيفة زوجة أحد أصدقائى لحسن الحظ. لم أعرف ماذا فعلت بحيث دبرت

لى تذكرة. فى خلال ساعة كنت بمطار القاهرة. اتصلت بالإدارة. جاءت عربة من المجموعة أقلتنى إلى فندق السلام هيات بمصر الجديدة. سلمنى الموظف المرافق لى تذكرة السفر الجديدة إلى قبرص. كان موعد سفرى هو الخامسة من صباح اليوم التالى. عبرت له عن خشيتى ألا أستطيع الصحيان فى الموعد المحدد. قال لى:

– اطمئن. أنا مسئول – طبقا لتعليمات البشمهندس كمال – عن إيقاظك وتوصيلك إلى المطار فى الموعد المحدد.

فى الفندق سارعت بأخذ حمام دافئ. تناولت العشاء ثم استلقيت على الفراش كما لو كنت مخدرا. أشعلت سيجارة بعد أن وضعت المنفضة عن يسارى على الكومودينو الملاصق للفراش. صحوت على رنين جرس التليفون. فزعت حين رأيت فلتر السيجارة محصورا بين السبابة والوسطى، والرماد ممتدا بطول السيجارة الأصلى راقدا بالمنفضة فى تماسك غريب. أى إننى استغرقت فى النوم بمجرد أن سحبت نفسا أو نفسين لا أكثر من السيجارة. لو سقطت السيجارة من يدى وهى مشتعلة على الموكيت الذى يغطى أرضية الغرفة والفندق بأكمله، لوقعت كارثة حريق غير مسبوقة فى تاريخ الفنادق المصرية.

فى مطار لارناكا بقبرص لمحت شابا بانتظارى حاملا لافتة كتب عليها اسمى بالإنجليزية. كان ذلك مصدر اعتزاز شديد بنفسى وسعادة ذات طعم خاص لم أتذوقه من قبل. اصطحبنى فى عربة

أنيقة إلى طريق طويل عريض محفوف بالجبال الخضراء والأشجار الشاهقة فى طولها ذات الخضرة الداكنة المريحة للأعصاب. كنت مسحورا بروعة الطبيعة الأوربية الخلابة. كنت أرتعش من فرط الفرحة إذ تحققت أمنية طفولتى حين كنت أرقب نهاية البحر فى تماسه مع السماء عند أقصى حدود رؤيتى له، وهى أن أرى ما وراء خط الأفق من ناس وبلاد وجبال وبحار وغابات. أنا الآن على أرض أوربية وهناك من يستقبلنى بلافتة وعربة، وهناك أيضا من ينتظرنى فى فندق. شكرت الله كثيرا وكنت على يقين بأنه يحبنى، لكنى لم أعرف ماذا يمكننى أن أفعل لأعبر لجلالته عن امتنانى وحمدى لكرمه العظيم.

وصلنا إلى فندق سيبرا ماريس، أجمل فنادق مدينة بافوس الساحلية. فى إحدى ضواحيها يقع مصنع الورق المعروض للبيع، والذى جئنا لمعاينته على الطبيعة.

لا يعرف مخلوق آدمى مهما أوتى من عبقرية ذهنية أو روحانية، متى وأين ولماذا سيكون متواجدا فى مكان ما على سطح هذا الكوكب الكروى الساحر الملغز الجميل، المحاصر ببحرين من الخير والشر ونهرين من الفضيلة والرذيلة. الفندق يطل على البحر مباشرة. على شاطئه نخيل جميل متناثر فى تنسيق عبقرى، ومن حوله مظلات مصنوعة من أوراق النخيل. تحتها مقاعد متنوعة التصميم والألوان. سرق الجمال عينى واستلب روحى، فلم أشعر بنفسى إلا وأنا واقف مع مرافقى فى قاعة فسيحة تتوسط مدخل الفندق.

معظم الأغانى المصرية يتذلل فيها الحبيب للمحبوب ويجد متعة فائقة فى أن يتوسل إليه، ويتسول عطفه ورضاه والكف عن جفاه، ويسأله العطف والرضا والوصال. سبق أن أشار إلى هذه الحقيقة مجموعة من الكتاب الإسرائيليين الذين التقيت بهم حين زاروا المكتبة الأمريكية بالإسكندرية.. الموسيقى التى سمعتها بمجرد أن دخلت الفندق كانت تشع بالبهجة والفرحة والانتشاء. البوزوكى هو القائد تسانده آلات وترية أخرى كالبزق والجيتار. أما الإيقاع الراقص فكان يختلف كثيرا عن إيقاع الواحدة والنصف الذى عشنا عليه عمرنا، مثلما كان النخيل الذى شاهدته مختلفا عن نخيلنا المصرى.

فى صدارة نصف دائرة كبيرة كان يجلس كمال عبد الهادى ومن حوله مساعدوه ومن بينهم مصطفى المهداوى الذى سبقنى بأن سافر معهم من الإسكندرية.

أمضيت عمرى كله أحسن الظن بالناس حتى يتبين لى العكس. تلقانى عبد الهادى بترحاب شديد وسعادة حقيقية. قال بنبرة صادقة:

– متنا من الجوع فى انتظار وصولك. سنسبقك إلى المطعم ولا تتأخر.

اصطحبنى مصطفى إلى غرفتى لأترك حقيبتى وأغسل وجهى ثم نتوجه إلى المطعم. فى المصعد لم أشعر براحة تجاه نظرات مصطفى الغريبة لى. مع ذلك لم يخطر ببالى أن أشك فى نواياه، حتى قال لى:

– لو كنت متعبا فلا داعى لتناول العشاء معنا بالمطعم.

نظرت إليه فى دهشة وتوجس فواصل:

– يمكنك تناوله فى غرفتك ثم تنام ونلتقى فى الصباح.

كان من المستحيل على شخص مثل مصطفى المهداوى أن يتفهم طبيعة مشاعرى وما يجول بصدرى فى تلك اللحظات من إحساس متفجر بالجمال ونشوة الحياة بعد رحلة الطريق المبهرة من المطار إلى الفندق. كنت أتمنى أن أسهر حتى الصباح على هذا الشاطئ الساحر جالسا تحت نخيله ناظرا إلى الجبل الرائع المحيط به، وإلى أشجار الفاكهة المتناثرة على قمته وسفحه، وإلى القمر الساطع فى سمائه الصافية التى تزغرد فيها النجوم وتتغنى بأنشودة الحياة. هذا الكائن البشرى لم يقرأ قصيدة شعر فى حياته. رصيده من الثقافة العامة صفر لا يعلى عليه. هو بارع فقط فى استحلاب مال الشركة بقدرة فائقة لا تعرف الحدود. قلت له بصدق دون أن أعبأ بمقصده:

– بل سأنزل معك فورا ولن أضيع دقيقة واحدة من الوقت دون أن أستمتع بجمال المدينة والفندق والطبيعة.

استسلم المهداوى للأمر الواقع وبدا كما لو كان قد تلقى طعنة فى قلبه عندما استمع إلى ردى الحاسم. بعد العشاء اختلى بى المهندس كمال عبد الهادى وقال لى عن اقتناع شديد كان جليا من لهجته:

– نحن لا نستطيع أن نثق بهذا المهداوى أو نأتمنه على أموالنا.

– كيف؟؟

– لقد انتهز فرصة عودتك من المطار إلى الإسكندرية وقال لى إنه يكفى وحده لإنجاز العمل المطلوب، وإنه لا داعى لانتظارك حتى تعود.

– غير معقول!!

– لكنه حدث بالفعل.. إنه خائن.

الجحيم إذن هو المهداوى، بل هو الآخرون بلا استثناء. حتى فى المسجد حين أدير مفتاح المروحة لاتقاء شدة الحر يغلقه آخر قائلا إن هواء المروحة يضره. حين يستند زميلى فى العمل إلى مركز القوة الذى يمثله قريبه عضو مجلس الشعب، فيستولى على حقى فى الترقية ويسبقنى إليها دون وجه حق. حين أرى بعينى التناحر بين شقيقين على مغنم زمنى فيقتل أحدهما الآخر.. حين تحاصرنى أنانية الآخرين وتجاهلهم لرغباتى بل لكينونتى، فإنى أرى فيهم الجحيم عينه ولا شىء غيره.

فى الصباح تعمدت أن أجلس مع المهداوى على مائدة إفطار واحدة ذات مقعدين فقط، حتى لايشاركنا فيها أحد. لم أستطع التخلص من ذهولى لموقفه وأنا أواجهه بصراحة تامة:

– هل قلت ذلك حقا يا مصطفى؟

– من الذى قال لك ذلك؟

– المهندس كمال نفسه.

أحنى رأسه فى ذلة إلى الأرض. قال متثاقلا:

– أنا آسف. أنا قلت ذلك حقا

– لماذا؟!

أجاب فى انكسار مهين:

– لست أدرى.

– هــل هذا هــو جزائى بعد أن قدمت لك الخــير وكان بإمكانى الاستئثار به لنفسى؟

كادت أذناه تنفجران من شدة اندفاع الدم إليهما حتى أصبحا فى لون الطماطم. فى صمت قــاس رحت أتفحص معالم وجهه بنظرات تفيض بالسخط والاحتقار، حين همس متخاذلا:

– أعترف بأنها غلطة كبرى، لكنى أطمع أن تسامحنى.

فى تلك اللحظة قررت أن أتجاهل الأمر تماما وكأن شيئا لم يكن. تناولت افطارى بلا شهية وتوجهنا إلى العمل.

عندمــا نويت اصطحابــه معى مرة أخرى فى إحدى ســفرياتنا للخارج، عنفنى عبد الهادى متسائلا فى دهشة:

– لم تصر على الاستعانة بهذا الخائن؟.. هل أنت أكتع؟!

يلومنى على تسامحى ويصر على الاعتماد علىّ وحدى فى إنجاز مــا يطلب من عمل. أما المهــداوى فقد ظل شــعوره بالذنب تجاهى يلازمه حتى فرقت بيننا الأيام.

* * *

الفصل السادس

يا سـعيد.. أنت كاتب مبـدع. إذن فلابد أنك عرفت ثلاثى القوة الشهير: ميكيافيللى ونيتشة وروبرت جرين. إنهم أصحاب الفضل فى كل ما وصلـت إليه من مجد إن جاز التعبير، فالبعض لا يعتبر السـلطة والثروة مجدا لأنهم يرونه فى أشـياء أخرى غير مادية، ولكلٍّ الحق فيما يعتقد.

أقولهـا لك بصراحة إنه رغـم الكارثة التى ألمت بى، ورغم أنى لم أعـد أعرف ماذا سـأفعل بـكل ممتلكاتى، إلا أننى لسـت على اسـتعداد لأسـلم أحدا ثمرة جهدى وكفاحى وقتـالى بكامل إرادتى مـا دمت حيـا. افعلوا بثروتى ما تشـاءون بعد موتـى، لكنى الآن لسـت أملـك الإرادة أو الجرأة على التنـازل عنها لأى مخلوق رغم تأكـدى التـام من مصـيرى المرتقب بين يـوم وليلـة.. وحتى ذلك الحين فإنـى أبعث لأولادكم وأحفادكم بخلاصـة تجربتى. بالطبع ستقولون إن مبادئ هذا الثلاثى التى اقتديت بها فى مسيرتى، هى مبادئ انتهازيـة لا أخلاقية تتعارض مع الديـن والقيم الموروثة، وهذا شـأنكم ولا يعنينى فى شىء.. لكنى أثق بأن لأحفادكم وجهة نظـر أخرى ودعونى أجرب معهم، فلدىَّ بعض الأمل فى أن يغيروا من واقع أسرتهم الكئيب بفكر جديد وروح وثابة إلى النجاح.

علموهم أن المفتاح الرئيسى للسيطرة على رئيس العمل هو أن تشعره بأنه هو الشمس التى تبعث الضياء فى الكون، بينما دورك الوحيد أن تدور فى فلكه. أما إذا كان رئيسك أشبه بالنجم الذى ينتظر أفوله، أى إنه على حافة النهاية، فلا تقلق من التغطية عليه ولا تشفق عليه، لأنه غالبا لم يصل هو نفسه إلى ما وصل إليه بالإشفاق على من سبقوه. أما إذا كان شديد الضعف فالأفضل ألا تقترب منه.. اتركه يسقط وحده!..

حذروهم أن يضعوا ثقة فى الصديق، وعلموهم كيف يستثمرون العدو جيدا. الأصدقاء يرون دائما أن ما تفعله شىء جيد لأنهم يرون أفضل ما فيك، أما وجود الأعداء أمامك فيجعلك أكثر حرصا أثناء العمل.

قل لحفيدك ألا يظهر نياته الحقيقية أبدا، فلا أحد يستطيع أن يعد دفاعاته ضده مالم تكن لديه معلومة دقيقة عما ينوى فعله. فى هذه الحالة يمكنك أن تلعب بهم ببراعة، وتقودهم دائما إلى الاستنتاج الخطأ والطريق المضلل.

السيطرة على اللسان أمر حتمى، وعلى الراغب فى الوصول أن يقول دائما أقل مما يجب، فكل من امتلكوا القوة فى التاريخ لم يكونوا يفتحون أفواههم إلا عند اللزوم. القوة تعتمد دائما على المظاهر وعلى الكلام القليل العائم الذى لا يستطيع أحد أن يستخلص منه شيئا. الحالة الوحيدة التى لا ينبغى التزام الصمت فيها هى عندما يكون ذلك الصمت دافعا لأن يشك الناس فى نواياك الحقيقية.

من يريد القوة لابد أن يجعل سمعته دائما بعيدة عن الشبهات والأيدى والألسنة. إن أى إصابة فى حائط السمعة تجعل المرء مكشوفا عاريا أمام الناس وهدفا لضربات الأعداء من كل جانب. إن صناعة السمعة الجيدة تبدأ بإصرارك على إظهار صفات رائعة فيك كالصدق والأمانة والإخلاص والحرص على مصالح الآخرين. ثم تزيد من إحساس الناس بأن هذه الصفات توجد فيك بأكثر مما تتواجد لدى غيرك.

دع الناس يقومون بالعمل بدلا منك ثم احصد النتائج. لا تفعل بيديك ما يمكن أن يفعله الآخرون من أجلك. تأكد أنك لو كنت تريد أن تفعل كل شىء بنفسك فسوف تستنزف قوتك وطاقتك فى أشياء صغيرة يمكن أن يقوم بها الآخرون.

السلطة تعنى أن يظل صاحبها هادئا كامنا. ينصب الأفخاخ للآخرين ويتركهم ينفجرون غيظا بسببها.. وأفضل استراتيجية فى المعارك هى أن تجعل أعداءك يجهدون أنفسهم محاولين الوصول إليك والنيل منك. دع خصمك يأتى إليك بقدميه، بينما تحتفظ أنت بكامل قوتك فى انتظار اللحظة التى تنسحق فيها قوته تماما لكى تهاجمه بلا رحمة.

لابد أن تأتى انتصاراتك من خلال أفعالك، فالمصالح هى التى تحكم كل شىء، والقوة الحقيقية تأتى من معرفة نقاط الضعف والتلاعب بها بواسطة الأفعال. أما إضاعة الوقت فى التلاعب بالكلمات فهى لعبة من لا يجد شيئا آخر يفعله.

فى لعبة السلطة لابد من الابتعاد عن أصحاب المشاكل، والتحالف مع من يماثلوننا فى القوة أو من يتفوقون علينا، أما لو تحالفنا مع من هم أضعف منا فسيضعفوننا بلا شك. إن تعاسة الآخرين يمكن أن تقودنا بسهولة إلى الجنون. لا يوجد قائد ناجح يغرق نفسه أكثر مما ينبغى فى هموم من يعملون تحت إمرته، وإلا تحول إلى شخص يعانى من متاعب الآخرين إلى جانب متاعبه هو.

لابد أن يعتمد الناس دائما عليك. القوة المطلقة تعنى أن تجعل الناس يفعلون ما تريد دون قهر أو إجبار. والأهم أن يرغبوا فى إسعادك لأنك مصدر سعادتهم، ورضائك لأنك ترضيهم كما ينبغى. القوة والسلطة تشتملان دائما على علاقات متبادلة مع الآخرين، سواء كحلفاء أو عملاء أو جواسيس، أو حتى كقادة ضعفاء يمكن التحكم فيهم.

* * *

... سوف أجتهد فى عصر ذهنى حتى أستحضر لك المزيد من عناصر السلطة والثروة اللتان شكلتا معا أهم عناصر قوتى ونجاحى.

اليوم ضحيت بامرأة كندية تعشقنى وتتمنى لو تعيش معى حتى نهاية العمر حتى لو لم أتزوجها. بكت من قلبها لحظة الوداع الأخير وكان أكثر ما آلمها فؤادى الصخرى المتحجر. إنها مثال حىّ تتجسد فيه أجمل معانى وآيات المرأة التى تعرف كيف

تسعد الرجل الذى تحبه. خشيت على نفسى أن أحبها فأدمر بقلبى كل ما بنيته بعقلى لذلك حذفتها بعنف من حياتى.

أصدقائى الحقيقيون الذين أمضى معهم أوقاتا سعيدة هم الكتب لا البنى آدميين. من الغريب أننى حين قرأت «الإمتاع والمؤانسة» لأبى حيان التوحيدى فقد دهشت للمزايا العديدة التى تحققها الصداقة، والحق أننى صدقتها، ولكن لأنى شئت أن أدفع الضريبة كاملة دون تراجع، فقد محوت هذا الكتاب من ذاكرتى. إنى مشفق عليك أنت وأمثالك من الكتاب المصريين، فأنتم تكتبون لشعب لا يقرأ. رغم ذلك فإنى أرجو أن تكون مستمرا فى استرسالك الذى اتفقنا عليه حتى لا تقع فريسة للاكتئاب اللعين. إن فى الكتابة التلقائية علاجًا طبيعيا للنفس وتنفيسا رهيبا عما فى أعماقها المظلمة بدهاليزها السحرية. لا تفكر إطلاقا فى نشر ما تكتب فلن يقرأ أحد وإن قرأ فسينصرف إلى البحث عن الأسماء التى اخترتها محاولا تطبيقها على الواقع ليعرف من تقصد بهذا ومن تقصد بذاك غافلا عن المغزى الذى ترمى إليه تماما.

يا أخى، إن المجتمعات المتخلفة تقف دائما موقف العداء من العبقرى المبدع. عداء قائم على الحقد والغيرة والشعور بالدونية على مستوى الأفراد الأنداد، أو على مستوى الجماعات المهيمنة على الإمكانيات المتاحة لظهور العبقرية واكتشافها. أنا أقول دائما إن سمة المجتمعات المتقدمة هى انتشار التفوق والنجاح والإبداع

بين أفرادها كالعـدوى، إذ يتباهى المجتمع بعباقرته لا بحكامه، ويقدم لهـم أقصى ما يمكن تقديمه من عون ودعم ومسـاندة، بينما سمة المجتمعات الفاشلة هى محاربة الأفذاذ والقضاء عليهم، لأنهم يشكلون خطورة عظمى على المستبدين وأهل الفشل والتخلف.

• العين:

عانيـت كثيرا فى حياتى الأدبية من الغيرة. لم يكن لى ذنب فى أن يكتـب عنى عمالقـة الأدب فى مصر منذ نشـرت روايتى الأولى «جلامبـو» تليها روايتى الثانية «بوابة مـورو». كتب عنى نجيب محفوظ ويوسـف إدريس وعلى الراعى ويوسـف الشارونى وأنا فى بدايـة الثلاثينيـات من العمر. كانـت كتاباتهم مشـجعة للغاية. أشـعلت النار – على غير ما كنت أتصور– فى قلوب معظم الكتاب، مثلما أشـعلت النار فى عزيمتى وألقت على كاهلى بمسئولية القلم والورقة وما يسفر عنهما من فكر وفن وإمتاع وتنوير.

الغيرة والحقد والحسـد مهلكات ثـلاث عرفتها من إحياء علوم الديـن للإمام الغزالى. أنا لا أعترض على الغيرة المهنية البناءة التى تدفع الإنسـان إلى المزيد من الجهد والتجويد بالاسـتفادة من خبرة الآخريـن ونجاحاتهـم. ماسـح الأحذية يغير مـن قرينه الجالس بصندوق الورنيش الذى يسـرح به على بعد بضعة أمتار من موقعه بالشـارع. لكنه لا يمكن أبدا أن يشـعر بالغيرة من صاحب العربة

المرسيدس الواقفة أمامه مباشرة بجوار الرصيف الذى يجلس عليه، لأنه ليس من أبناء مهنته. تلك طبيعة الإنسان. لكن الغيرة تتحول عند الكثيرين إلى حسد بغيض يتمنى فيه الحاسد زوال النعمة عن المحسود، وقد يكتفى بذلك فى قرارة ضميره ولا يأتى بفعل إيجابى يدعم تلك المشاعر، وقد يتخذ بعض المواقف العملية لتحقيق رغبته فى حرمان المحسود من نعمة الله عليه. إنى أرى فى الحسد اعتراضا صارخا على مشيئة الله فى توزيع رزقه على خلقه، وهو اعتراض فى غير محله لا يجلب لصاحبه غير المرارة والألم، فضلا عن عجزه المؤكد عن تغيير إرادة الخالق مهما أتى من شرور ينفس بها عن غضبه البغيض. والحقد وليد الغيرة والحسد معا، وهو ما لمسته مجسدا فى شخصىّ صديقىَّ الكاتبين المعروفين محمد وناصر عقب فوزى بجائزة الدولة التقديرية للآداب. تلك الجائزة الكبرى التى طالما حلمنا جميعا بنيلها وغبطنا كل من حصل عليها. رغم الحلم والتمنى فقد كنا يائسين من حصول أى كاتب إقليمى عليها، لأن ديناصورات القاهرة لا يسمحون – عادة – بخروجها من بين أياديهم. الحدث أحدث دهشة شديدة فى الوسط الأدبى، خاصة بعد أن أعقب استلامى للجائزة حصولى على وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى، وتسلمته من المستشار عدلى منصور رئيس الجمهورية المؤقت فى ذلك الوقت – ديسمبر٢٠١٣م – فى حفل عظيم بقصر الاتحادية.

فى برنامجه التلفزيونى «صح النوم» بقناة المحور قال الكاتب الصحفى محمد الغيطى – الذى لا أعرفه ولم ألتق به نهائيا – وهو يستعرض أسماء الفائزين بجوائز الدولة إن سعادته كانت بالغة بفوزى بصفة خاصة دونا عن بقية الفائزين. فسر ذلك بقوله إننى مصر على البقاء بالإسكندرية بعيدا عن الأضواء والشهرة مكتفيا بالكتابة والقراءة فى بيتى. قال أيضا إننى كنت أستحق التقديرية منذ عدة سنوات لولا مركزية القاهرة وعزوفى عن التجمعات والشلل الأدبية القاهرية.

أى فرحة فى الحياة لا طعم لها ولا مذاق من دون مشاركة الأحباب والأصدقاء وتعبيرهم التلقائى عن سعادتهم وبهجتهم لسعادة الفرحان وبهجته. لا يكفى أبدا أن تقبع الفرحة بداخلى، فلا أراها فى عيون الأحباب ولا أسمعها فى كلماتهم المهنئة. حدث هذا بالفعل حين انهالت على المكالمات التليفونية من كل مكان فى مصر لى به صديق أو صديقة من زملائى الكتاب حتى لو لم نكن قد تقابلنا وجها لوجه من قبل. شعرت بأن الدنيا كلها فرحة لأجلى. ملأت جميلة البيت بالورود واشترت «تورتة» كبيرة كتب عليها: «مبروك التقديرية ووسام الجمهورية»، والتقطت لى صورة مع حفيدى الجميل ياسين وهو ممسك بالوسام الذهبى الملون البراق. امتلأ حسابى على الفيس بوك بباقات الورد وعبارات التهنئة الجميلة حتى تجاوزت المائة فى اليوم الأول وحده، وكان من بينهم

أشـخاص لم يسبق لى أى اتصال بهم من قبل سواء فى الواقع أو على صفحات التواصل الاجتماعى.

أول تهنئـة انتظرتهـا وتوقعتها من قلبى كانـت من محمد.. صديقـى ونديمى ورفيقـى الأول فـى رحلتى الأدبيـة وفى معظم سفرياتى خارج مصر. انتظرت أن يحضر بنفسه إلى بيتى الذى طالما أكل فيه معى وشـرب – مثلما أكلت وشـربت فى بيته – ليحضننى ويقبلنى ويقول لى من قلبه ألف مبروك يا سعيد. لم يحضر أو حتى يتصل تليفونيا وكذلك فعل ناصر الذى لا تصل درجة صداقتى به إلى ما بلغت صداقتى مع محمد من حميمية، لذلك فامتناعه عن تهنئتى لم يعذبنى أو يؤرقنى مثلما فعل امتناع محمد الذى أحبه حبا صادقا رغم عيوبه الظاهرة والباطنة وعلى رأسـها الغيرة القاتلة من تفوقى ومكانتى الأدبية. وضعت نفسى مكانه فهو يكبرنى بثمانية أعوام، لكنـه لم يحصل على جائزة واحدة من الجوائز التى حصلت عليها. هو يطارد النقاد بكتبه المهـداة وعزائمه وولائمه، وأنا يكتب عنى النقاد دون جهد من جانبى. التمسـت له العـذر فى موقفه، لكنى خشـيت أن أفقده كصديق عمر بسـبب هذه الجائزة. اتصلت بكاتب آخر من أصدقائى وطلبت منه أن يتصل بمحمد ليخبره بنبأ الجائزة وكأنه لم يسمع عنها ولم يقرأ فى الجرائد ولم يشاهد تفاصيلها على شاشة التلفزيون. طلبت منه أن يبلغنى برد فعل محمد. كان صديقى فـى غايـة التعجب لموقف محمد الذى قال له إنـه علم بهذا النبأ،

وأضاف إنــه يعانــى من المــرض ولا يغادر الفــراش. انتهزت هذه الفرصة لأكسر شوكة القطيعة المحتملة بيننا، فاتصلت به تليفونيا متجاهــلا الأمر برمته متجنبا أى نبرة عتــاب قد تبدو فى صوتى. ســألته – متغابيا – عن سر اختفائه، ممهدا له الطريق ليولول على صحته كيفما شــاء، أو حتى ليدعى كذبا إنه لم يعلم بفوزى فأصدقه مرغما. لكنه لم يكتف بالتباكى والولولة، بل أحال الدنيا فى وجهى إلى جحيم أسود حارق حين قال بنبرة تفيض بالألم والغضب:

– أنا خلاص تعبت وزهقت من الدنيا. ما نبيت فيه نصبح فيه. الواحد يموت أحسن!!

كانت رائحة الحقد تفوح من كلماته، وكأن الحســرة على فوزى بالجائزة قد أفقدته صوابه فكشف بغباء شديد عن ثلاثية الكراهية الإنسانية البشعة المتمثلة فى المهلكات الثلاث بعد أن سيطرت تماما على مشاعره وأفكاره.

بعــد مرور عدة أســابيع تجاهلــت فيها ناصــر تماما، قررت ألا أتركه يســعد بهذا التجاهل. اتصلت بهاتفه فرحب بى بشــدة وكأن شيئا لم يحدث فى الحياة. رحت أستدرجه فى الحديث حتى جاءت سيرة محمد فقلت له مدعيا الدهشة والتعجب:

– تصور يا ناصر أن محمد لم يهنئنى على الجائزة حتى اليوم.

– مستحيل!!

يقولها المخادع بنبرة اســتنكارية كما لو كان قد غمرنى من قبل بالتهنئة والمحبة.

– هذا والله ما حدث.

– ....

– ربما لم يعلم.

قالها بصوت لا يختلف كثيرا عن فحيح ثعبان سام، فهو يعلم يقينا أن كل أدباء مصر يحفظون عن ظهر قلب أسماء الفائزين بجوائز الدولة التى ينتظرونها كل عام على أمل الفوز بها.

لم تمض أيام قلائل على تلك المحادثة حتى جاءنى نبأ وفاة محمد. حقق له الرب رغبته بأن يموت بحسرته مفارقا الحياة التى كرهها لأنه لم يحصل على الجائزة وإنما حصل عليها صديقه اللدود سعيد صادق. أفسد موت صديقى المفاجئ فرحتى بالفوز. مشيت فى جنازته. جلست بجوار جثمانه بالمسجد قبل الصلاة عليه، وقرأت على روحه جزءا كاملا من القرآن. لم يغب موقف محمد عن بالى أبدا منذ موته فأشرد ذاهلا من طبيعة النفس الإنسانية، حتى تعثرت فى إحدى نوبات شرودى بحجرة فى الطريق، فوقعت على وجهى وتحطمت أسنانى الأمامية كاملة. استبدلت بها أسنانا صناعية كلفتنى بضعة آلاف، ومازالت تزعجنى حتى الآن لارتباطها الشرطى القوى بما تفعله المهلكات الثلاث بالإنسان. رغم مرور وقت طويل فإن كلمات محمد السوداء الأخيرة لم تغب عن خاطرى. رغم أن الزمن كفيل بمحو قسوتها ونسيان مفرداتها، إلا أن ذاكرتى ما زالت تأبى التنازل عن الاحتفاظ بتفاصيل ما حدث. الغريب فى الأمر أننى سامحت محمدا من قلبى على مشاعره البغيضة التى

ختم بها حياته معى ومع نفسه. صرت أتذكره فى كل مناسبة أدبية أو نــدوة ثقافية، أو حتى حين أختلى بنفســى لأشــرب البيرة فى غياب نديمــى الرائع وصديقى الراحل محمد. أدركت أن الشــراب بلا نديــم لا مذاق له ولا قيمة ولا متعة على الإطلاق، وعرفت أيضا أننى مازلت أحبه حتى اليوم رغم كل ما حدث.

* * *

يصيبنــى نديم بفزع جهنمى من النــاس والحياة، وأحمد الله أن منحنى نعم الرضا والتســامح وحب الحيــاة. لقد أصيب نديم بعقدة الخوف من الفقر وظل يعانيها حتى الآن برغم أنه أصبح مليونيرا، وإلا لمــا تقاطــرت من قلمه وقلبه كل تلك الســموم التى أرقدته على فــراش الموت، حيث لن تحــزن عليه الحياة حــين يفارقها، لأنه لم يعرف كيف يعشقها.

• الزمن:

أخى كامل أحب فريدة لكنها تزوجت بغيره. أنا أحببت العديد من النساء لكنى تزوجت من جميلة. نديم يستبعد فكرة الحب تماما عــن حياته لحين أن يحقــق أهدافه الغامضة للحصــول على الثروة والســلطة. لا أحد يستطيع أن يتنبأ كيف ستكون نهاية هذا المخلوق الغامــض. أما قصص حبى فهى شــديدة التنوع وتبــدأ منذ صباى،

لكنهـا لا تنتهى رغم بلوغى سـن الشـيخوخة. اتضح لى أن الحب لا علاقة له بعمر الإنسـان على الإطلاق. عاصرت بنفسى قصة حب عظيمة بين صديق فى الثمانين وسيدة أحبها فى الخمسين.

بعد سـنوات طويلة من انقطـاع علاقتنا الغريبة هاتفتنى زهور تسـأل عن أحـوالى معبرة عـن رغبتها فـى لقائى. توفـى زوجها وتزوجت ابنتها وسـافر ابنها إلى الخـارج، وبقيت وحيدة تعانى الوحشـة والاغتراب. عاد بى صوتها المبحـوح إلى ذلك اليوم البعيد الذى كنت فيه جالسـا بجوارها وهى تقود عربتها بسـرعة، بينما تنبعث من الراديو موسـيقا صاخبة متناغمة تماما مع إيقاع الطيش الجامـح الذى جمع بيننا آنذاك خارج نطـاق الزمن. غير أنى كنت أتميـز عنها بقدرتى على كبح جماح شـهواتى فى بعض الأحيان، ولولا تلك القدرة لحلت بى كوارث عديدة. كانت ضحكاتها صارخة تتفجر بالفرحة وتفيض بسحر الشباب وحب الحياة. كنت أشاركها نفس المشـاعر لكن بدرجـة معينة من الحرص والحـذر والتحفظ، فأنا دائما غير مسـتقر على حـال، أعانى صراعا عصابيا مزمنا بين رغبة محمومة فى سكر البهجة، وأخرى فى صحو العقل وتيقظه.

قلت لنفسـى إن هذه السيدة الطائشة الرائعة سوف تجهز حتما على البقية الباقية من عقلى لو طال زمن علاقتى بها. تسـاءلت وأنا أحسـدها على عنفوان انطلاقها لماذا لا تكـون الحياة بهذه العفوية والتلقائيـة. تذكرت أنها زوجة لأسـتاذ جامعى مرمـوق وأم لفتاة

جميلــة وأن هناك أعرافــا دينية وإنســانية واجتماعية تنتهك فى اســتخفاف غريب، وأنها تقود سيارتها فى طريق زلقة بفعل المطر وتقول لى وعيناها على كفى لا على الطريق:

– أحب يدك جدا

– انظرى أمامك أولا ثم تحدثى بعد ذلك عن يدى كما تشائين.

تتجاهل سخريتى وتقبل يدى بلهفة أثناء القيادة، وأدير وجهها برفــق إلى الأمام حتى لا ينتهــى اللقاء بكارثة. تورطت فجأة ودون إعداد فى تصريح صادق:

– إنى أعشق جنونك الملهم.

تصيح بفرحة صبيانية وقد تركت عجلة القيادة من يدها تماما:

– صحيح يا سعيد؟

– نعم يا زهور صحيح.

– لا أكاد أصدق أنك تتخلى لحظة عن صرامة عقلك الذى يحيلك أحيانا إلى عجوز فى الثمانين.

حين لاحظت أنها انحرفت بالعربة فى اتجاه متعامد مع طريق الكورنيش مقتحمة شــارع المعســكر الرومانى الأنيق، ســألتها فى براءة:

– إلى أين؟

أجابت بنفس البراءة:

– إلى بيتى.

برغم درايتى التامة بطيشــها إلا أننى شعرت بهزة خوف قوية

تجتاح أعماقى وتزلزل كيانى:

– لم؟

– أنت تعرف ولا داعى لأن تتغابى علىّ

– لكنى لن أقدر

– لا تدّع الفضيلة وأنا أعلم الناس بتاريخك

قلت لها بصدق أخناتونى لا يحتمل الشك:

– إننى أشتهيك بالفعل لكنى لا أستطيع أن أثق بقدرتى على الفعل.

– لكنك استطعت مع كثيرات غيرى ولا يمكنك الإنكار.

لم أعرف من أين أتت بهذه المعلومة المغلوطة، لكنى قلت لها:

– معك لن أستطيع.

– هل لى أن أعرف السبب فى تمسكك المفاجئ بالفضيلة؟

– لأن ساقى لن تستطيعا حمل جسدى حتى أصعد سلم منزلك وأقتحم غرفة زوجك المسافر وأنام على فراشه وأرتكب الزنى مع زوجته.

ضحكت بعصبية وهى تربت فى سخرية على صدرى كما لو كانت تلتمس البركة من أحد أولياء الله:

– الله الله يا سيدنا الشيخ.. بركاتك يا مولانا.

– اسخرى كما شئت لكنى لن أذهب معك.

– الحكاية كلها أنك إنسان جبان.

– سامحك الله.

– لا تتحدث عن الله فأنت لا تقل عنى سفالة. أنت لا تخافه وإنما تخاف زوجتك.

أوقفت العربة وانهارت باكية، ثم اندفعت تقبلنى على جبينى وكتفى ورقبتى. قالت لى:

– أنا أشعر أن الله ينتقم منى بك، فأنا أذللت رجالا كثيرين وتسليت بهم دون أن أدع أحدهم يحلم حتى بمصافحتى.

* * *

اتفقنا على اللقاء بإحدى الحدائق وجلست بانتظارها متشوقا إلى مشاهدة فعل الزمن على جمالها الهندى الحارق الذى حرمت من رؤيته لأكثر من ربع قرن.

لمحت سيدة بدينة تتجاوز الخمسين، تسير فى ثبات متكئة بذراعيها إلى عكازين معدنيين. شعرت نحوها بشفقة شديدة وتمنيت لو ساعدتها على تخطى الرصيف الفاصل بين الحديقة والممر، لكنها كانت تتعامل مع عجزها بثقة وكبرياء وكأنها قد تجاوزته ولم تعد تشعر به على الإطلاق. الأمر المفاجئ أنها كانت تتوجه فى اعتداد نحو مائدتى وهى تنظر إلى بابتسامة عفوية جميلة وكأن كلاً منا يعرف الآخر تمام المعرفة. توقفت أمامى صائحة فى دهشة طفولية:

– سعيد؟!!!

تجمدت واقفا وصحت فى دهشة أنا الآخر:

– زهـــور؟!!

ارتمت على صدرى وراحت تمطرنى بالقبلات فى وجنتى يمينا ويسارا بشوق عارم وكأننا وحدنا فى هذا الكون.

– أوحشتنى يا حبيبى.

تطلـب الموقف منـى عبقرية فذة فى القدرة علـى إخفاء صدمتى لتحـول الشـباب إلى كهولة والصحة إلى سـقم والحيـاة إلى موت. تظاهرت بأننى أمام مشـهد عادى رغم أننى لم أعرفها فى البداية، وأنـا أتفحص سمنتها الملحوظـة وعكازيها المعدنيين والشـعيرات البيضاء على خصلة الشـعر النائمة علـى جبينها الذى أصبح غارقا تحت خطوط العمر البارزة فى تشابكات متداخلة.

حدثتنى عن مشـاكل عويصة فى عمودها الفقرى انتهت بعملية جراحية فاشـلة أدت إلى تقوس ظهرها واللجوء إلى العكازين، وعن سـرطان خبيث عاث فى جسـدها، كلما عولجت منـه عاودها من جديـد، كما حدثتنى عن معاناتها من ضغط الدم المرتفع والسـكرى العالى والمرارة والكلى والكبد!!.

– أنت إذن بسبعة أرواح إذ نصرك الله على هذا الكوكتيل الرائع من أبشع الأمراض.

– انتصـارى مبعثه تسـليمى بالقضاء والقدر، فضلا عن عشـقى الشديد للحياة وتمسكى بها.

حكيت لها أنا الآخر عن سلسلة الأمراض المتعاقبة التى حلت بى إبتداء من جلطة القلب، مرورا بسرطان البروستاتا، وانتهاءً بنزيف المخ. أسهبت أيضا فى ذكر الهزائم التى منيت بها فى سعيى إلى الرزق وتحقيق الذات. قلت لها إن الخير والشر فى هذه الحياة ابتلاء، فلا يجوز لنا الغضب من أقدارنا، مثلما لا تجوز لنا الفرحة بها. استمعت إلى باهتمام، لكنها لم تشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد أن استدرجتنى إلى الحديث عن النساء. لم تصدق أبدا أن مغامراتى النسائية كانت محدودة. أقسمت لها أننى لم أنزلق ولو مرة واحدة إلى ارتكاب الزنى رغم اندفاعى إليه فى بعض الأحيان، وكأن الله قد شاء أن يعصمنى من الزلل برغم أنفى. شردت قليلا ثم قالت:

– ألا تلاحظ أن سيرتينا متشابهتان إلى حد كبير؟

* * *

الفصل السابع

هأنـذا نزيل غرفة فاخرة بالمستشـفى العالمى الشـهير منذ عدة أشـهر. ذروة العبـث!!. ماذا أفـدت من كل ما حصلـت عليه من عز ومجد وجاه وقد أصبحـت صريع مرض لا يرحم ولا نجاة منه. لو كنـت أعلم أن هذه سـتكون نهايتى لبقيت فى حـارة الحدينى بـرأس التين. غـارق أنا فى بحر مـن الندم علـى التضحيات التى بذلتهـا والتنازلات التى قدمتها لأجـل أن أصل إلى ما وصلت إليه. عشـرات الأطباء والممرضات فى خدمتى لكنى لا أعرف منهم أحدا. كلهم أغراب يتقاضـون أجورهم منى. سـأموت وأدفن على أرضهم دون أن يشعر بى أحد. لم أستفد شيئا مما جمعته وكدسته من أموال وعقارات. لم يسـتفد مخلوق آخر غيرى منـه أيضا. وجودى أصبح كعدمـى تماما، فكأننى لم أوجد ما دام هذا الوجود لم يحقق شـيئا لأحد. غربة وعزلة ووحشـة وأنانية وجشـع ونهم وخوف وصراع وقلق وكدح، والحصيلة فراش على مستشفى انتظارا للموت.

أعود إلى الأحفاد ربما كنت ذا فائدة للبعض منهم قبل أن أموت، بل ربما تكـون هى الفائدة الوحيدة التـى أقدمها فى حياتى لأحد ممـن يبحثون عن القوة شـريطة أن تعود عليه بالسـعادة والرضا، وأن يكون على اسـتعداد تام لدفع الضريبة المستحقة عما يبتغى من رفعة وارتقاء.

علمهم يا سعيد أن يعطوا بحساب – لا عن جود وكرم – قبل أن يفكروا فى الأخذ، لأن العطاء يجعل من الصعب على الناس أن يلاحظوا ما يؤخذ منهم. عادة ما يؤدى انتزاع أى شىء من الناس إلى ردود فعل عنيفة ضد من يأخذ منهم مهما كانت قوته، ومن الخطر طلب أى شىء مباشرة من أى شخص مهما كان الأسلوب مهذبا، لأن من يطلب يكشف نقطة ضعفه أمام من يطلب منه.

العبوا يا أحفادى دائما على مصالح الناس لا على تعاطفهم معكم أو إشفاقهم عليكم. إن معظم الناس لا يجيدون فن طلب الدعم أو المساعدة. أغلبهم يقع فى مصيدة الاهتمام بذاته والتركيز على احتياجاته الخاصة.. وأول خطأ يأتى دائما من افتراض أن من تطلب منه الدعم يمكن أن يساعدك بدافع من البر أو حب مساعدة الآخرين. لذا لابد أن تدرب نفسك – أيها الحفيد النابه النابغ المتطلع إلى الذرى – فى كل خطوة تخطوها نحو القوة والسلطة والثروة على أن تفكر دائما فى الوسيلة التى ستنفذ بها إلى عقل من أمامك ومصالحه واحتياجاته، مزيحا من الصورة كل مصالحك التى تنشدها. حينئذ لن يرى أمامه إلا ما يريده هو ليساعدك فى النهاية على تحقيق ما تريد، وهو يتصور أنه يحقق ما يريده هو.

يجب أن تتعامل مع المتنافسين كصديق وتعمل فى الوقت ذاته كجاسوس. فى صراعات السلطة يجب أن يكون أحد أهم أهدافك

هــو الوصول إلى درجة من التحكم فى الأحداث التى ســتحدث فى المســتقبل. وجزء من صعوبة هــذا الأمر هــو أن الناس لا يخبرون بعضهم بعضا صراحة بما يســتعدون لفعلــه. لذا فإن أول ما تحتاج إليه هو وجه ترتســم عليه البراءة دائما. إضافة إلى لســان يتحدث طيلة الوقت بود وإخلاص. أظهر نفســك دائما خارج لعبة التجسس التى يمارســها الكل ضد الكل حتى تضمن أن يتحدث إليك الكل بما يعرفون.

إن الوسيلة الوحيدة للحصول على السلام مع خصمك هى اختفاؤه تمامــا من عالمك. اســحق خصمك تماما. واعلم أن كل من يســير فى طريق القوة يخلق لنفسه أعداءً طيلة الوقت. ومن السخف أن يتصور أنه يمكن أن يحصل على دعم أو إخلاص هؤلاء الأعداء فى لحظة ما، لأن العدو سيظل عدوا طالما أنت فى السلطة.

إنهم يشــبهون القائد البــارع بالزلزال. أى أنــه لا يمكن توقع متــى يهاجم ولا ماذا يدمر. يظل النــاس فى خوف دائم من توابعه بعــد أن ينتهى. كثــير من الناس لا يدركون مــدى أهمية أن تكون تصرفاتهــم غير متوقعــة، ويفضلون أن تكــون كل أفعالهم واضحة بالنســبة للآخريــن.. لكن كل مــن امتلك القوة عــبر التاريخ أدرك ضرورة أن يكون دائما صاحب المبادرة. يهز العالم الثابت من حوله حتــى يخاف الناس منــه. ولابد أن يهاجم دائمــا دون إنذار حتى يرتجف الناس فور شــعورهم بأنه ينوى أن يهاجم دون أن يعرفوا كيف ولا متى.

لا تتحرك إلا على أساس المعلومات الدقيقة وحدها عن المتنافسين والخصوم وخذ وقتك فى دراستهم والتجسس عليهم، ولا تثق بالمظاهر ولا تنخدع بها. تعامل مع الجميع على أنهم تماسيح تجيد التظاهر بما ليس فيها. القاعدة الأساسية هنا هى أن الناس هم أى شىء آخر غير ما يبدون عليه. اختر أعداءك وضحاياك بحرص وإياك أن تستفز من لا تقدر عليه. إن أهم مواهب الباحث عن السلطة والثروة والقوة هى القدرة على فرز الناس وفهم معادنهم، وإلا أصبح أشبه بالأعمى الذى يتخبط فى الظلام، ويعتمد على الحظ حتى لا يصطدم بشىء.

من يريد القوة لا يلتزم بأى شىء تجاه أى شخص بل يلتزم بكل شىء تجاه نفسه فقط. التقيت بمحض مصادفة بشاب من جيران حيّنا برأس التين يسأل عن عنوان شركة معينة. صرخ من الفرحة عندما اكتشف أننى ابن نفس الحارة التى نشأنا فيها معا. فى دقائق قليلة لخص لى مأساته فى أمريكا وسارع بطلب النجدة وهو على يقين من تقديمها له. فى لمح البصر تخلصت منه كما لو هششت ذبابة حامت حول وجهى. أنا أكره الفشل والفاشلين، ولا أحب أن أكون فى متناول أيديهم. من يبقى بعيدا عن متناول الأيدى هو الذى يتهافت الناس عليه لأنهم يشعرون بقوته ويرغبون فى ضمه إليهم. لكن لا شأن لك بذلك كله. إن الانضمام إلى أى جانب سيضعف حتما من قوتك.

تعلم أن تخفى ذكاءك ولا تظهره إلا فى حالة واحدة: أن تكون قد بلغت بالفعل أعلى مراتب القوة. تظاهر بأنك أغبى مما أنت عليه. إن أكثر الناس ذكاء هم أولئك الذين يصورون أنفسهم على أنهم أغبى الأغبياء. تذكر أن الناس قد يقبلون منك أى شىء إلا أن تشعرهم أنك أكثر ذكاء منهم، والمهم ألا تهين ذكاء أى إنسان أمامك مهما كان غبيا.

• عالم مبهر جديد:

صافية كالبللور كانت مياه البحر، ويحتمى بيتنا العتيق المكسو لبلابا بنهاية حارتنا المواجهة للشاطئ. النافذة مفتوحة تبعث بنسمات فلول الربيع المنسحب. عبق السكينة يغمر أرجاء البيت بكل ما يحيط به من عالم خارجى وكل ما يحويه من مخلوقات لا تعيش إلا على الفطرة.

نادى عم إبراهيم بصوت منغم فأفاض فى وصف فوله وبليلته. أدلت الحاجة تحية بسلتها وهى ممسكة بحبلها القصير. تناول الرجل القرشين وأمسك بالطبق، ثم أعاده ممتلئا لحافته. التفت الأسرة حول الطبق فأجهزت عليه. قالت لى أمى تداعبنى:

– شد حيلك.. ربنا معك يا آخر العنقود يا حلو.

كنت هائما فى ملكوت لا يدرك سره سواى. وليد حارة الحديني برأس التين سيقتحم اليوم ناديا اجتماعيا عريقا لم يعرف أحد

من أفراد أسرته بأكملها كيفية الوصول إلى بابه. اليوم تجرى مسابقة بطولة الإسكندرية فى سباحة المسافات القصيرة، وثمة خيالات عجيبة تتراقص فى مخيلتى. غرفة مكتب فاخرة. مبنى إدارة الجوازات والهجرة. حافظة نقودى شبه الخاوية. شوارع أوربا الساحرة. حشد كبير بميدان المنشية أخطب فيه كما كان يفعل جمال عبد الناصر. الحاجة تحية تتوضأ لصلاة الفجر والدعاء اليومى على أشرار العدوان الثلاثى بأسمائهم المحددة إيدن وبينو وجى موليه.

رآنى يوما رجل مهم فى المدينة بينما كنت أسبح فى البحر بمهارة، فألحقنى بالنادى الرياضى الشعبى الذى يرأسه لأتدرب فيه على الأصول الصحيحة للسباحة بالمجان. فزت على كل أقرانى فى مسابقات التصفية بعد تدريب قليل. الرجل المهم كان سعيدا بصدق تنبؤه.

اليوم حان وقت الامتحان.. تذكرت يوم بطولة المدارس للسباحة تحت سن الرابعة عشر، حين أعطانى الأستاذ شنوانى مشرف الكشافة قرشين – أجرة المواصلات – ووصف لى كيف أصل إلى حوض الليتوريا بكلية الزراعة لأمثل مدرسة رأس التين الثانوية فى هذه البطولة. فى اليوم الأول فزت ببطولة سباحة الباترفلاى أو الفراشة وحصلت على ميدالية ذهبية مازلت محتفظا بها حتى اليوم. فى اليوم التالى ماتت زوجة كامل بعد أن وضعت

وليدها الوحيد نادر. كنت حزينا مهموما فانخفض مستوى أدائى وكان ترتيبى الثانى فحصلت على الميدالية الفضية.

اليوم سأمثل نادى السكة الحديد الرياضى فى بطولة المنطقة الشمالية. قال لى الرجل المهم:

– لابد أن ترفع رأس ناديك وحارتك اليوم.

لفت لى الحاجة تحية رغيفا محشوا بالحلبة المعقودة فى ورقة. ربتت على كتفى قائلة:

– كله قبل السباق. سيعطيك قوة كبيرة.

سلمتنى أمى للرجل المهم الذى اصطحبنى إلى محطة الرمل وركبت معه الترام ذا الدورين لأول مرة. مبهور أنا بسنواتى الأربع عشرة، مفتون باهتمام الرجل المهم بى. لابد أن بشائر رجولتى المبكرة – كما أحس بها – ذات علاقة بهذا الاهتمام، فعضلاتى قد برزت وصوتى قد اخشوشن، وفتيات الحى صرن يرمقننى بإعجاب وأنا أشق أمواج البحر بثقة وشجاعة. قالت له تحية:

– خل بالك على الولد. إنه أذكى أبنائى.

– اطمئنى واسعدى. ابنك سيكون بطلا.

أمنت على قوله بهزة واثقة من رأسها، مخفية بمهارة قلقها الداخلى على شرودى الدائم بسبب وبغير سبب.

فى الطريق كنت أقارن بين بيتنا العتيق والبيوت الفاخرة التى يمر ترام الرمل بمحاذاتها يمينا ويسارا. الطمأنينة غير المبررة

للمستقبل تسكن نظراتى المبهورة بما ترى. لم تسفر المقارنة عن مشاعر حزن أو غيرة أو حسد، وإنما عن أمل راسخ واثق بمستقبل يتيح لى السكن فى بيت مثل هذه البيوت. قلت لنفسى إن الأمل وحده لا يكفى يا ولد. لابد من فعل أشياء عديدة – ربما لن أدركها الآن – حتى يتحقق هذا الأمل.

أفقت على هزة من يد الرجل المهم تشير إلىّ بالاستعداد للنزول. دخل بى إلى نادى سبورتنج. عالم عجيب بألوانه الرائعة. مبانيه الفاخرة. حدائقه الشاسعة. فتيان يمرحون مع فتيات ببساطة أثارت ذهولى، فمثل هذا محظور عندنا فى الحارة. ملابس استحمام الفتيات تكشف عن أكثر من ثلثى لحمهن وكأن الأمر طبيعى لا غرابة فيه.

حضر مندوبو الأندية المشاركة فى البطولة. خلعت ملابسى النظيفة المتواضعة فى غرفة فاخرة يقف عليها حارس فى زى ناصع البياض. قيل لى إنه لابد أن أستحم تحت «الدوش» قبل النزول إلى الحوض، ففعلت.

ما هذا العالم؟!..

إنه يبعث فى نفسى شيئا من الخوف والشعور بالضآلة. يستحيل أن أفوز على أقرانى فى هذا المكان بالذات. لو أقيم السباق فى البحر لاكتسحتهم جميعا دونما حاجة إلى استنفار عزيمتى وثقتى بنفسى وبمهارتى. ما تراه عيناى الآن يؤكد أننى أعيش وأسرتى

وأهل حارتى فى عالم آخر، وربما كوكب آخر. حتى لون مياه الحوض الفائق الزرقة، الذى لم أر فى صفائه ونقائه وشفافيته من قبل، يؤكد لى هذا المعنى. كنت مضطرا إلى استلهام شىء من الطمانينة وابتعاث المزيد من الثقة، فتذكرت دعوات أمى وتشجيع الرجل المهم ونظرات إعجاب فتيات الحى. تسللت بحرص إلى غرفة الملابس والتهمت رغيف الحاجة ثم عدت إلى موقع المسابقة. كان علىّ أن أنتظر دورى حتى ينادوا على اسم النادى الذى أمثله. لو فاز النادى بالكأس أفوز أنا بميدالية ذهبية، ويصرف لى النادى مكافأة مالية، ثم تقام حفلة ابتهاجا بالفوز، يمكن لأسرتى حضورها.

اتجهت بثبات إلى الحوض المواجه لحوض المسابقة. جلست على إحدى الخانات التى يقفز المتسابقون منها إلى الحوض ويسمونها الحارة. الحوض مقسم إلى حارات ست لستة متسابقين، تفصل بين حاراتهم حبال من الفلين الملون تصل بين بداية الحوض ونهايته.

فى نفس اللحظة وصلت سابحة إلى نهاية الحوض. فوجئت بها تمد يدها إلىّ بأنفاس لاهثة وأنا جالس على ناصية الحارة. سحبت يدها بتأثير منوم مغناطيسى جبار، باذلا أقصى جهدى كى أحافظ على فمى مغلقا لشدة ارتباكى. صدت الحائط بقدميها تمهيدا للصعود، فلم أستطع أن أبعد عينى عن فخذيها البرونزيتين أو القطعة السفلى من «المايوه». مالت منحنية فى اتجاهى حتى تستقر على ناصية الحارة، فلم أخجل من تركيز بصرى على القطعة

العليا من «المايوه»، وعلى ما انحسرت عنه من بياض مكتنز مثير. ابتسمت لى فى هدوء وجلست بجوارى وكأنها تعرفنى منذ زمن بعيد. لكنها لم تسمع دقات قلبى الصاخبة حين سألتنى:

– هل أنت عضو جديد بالنادى؟

– لا.

– إذن فأنت مشترك فى السباق.

– نعم.

انصرفت على الفور رغم شغفى لبدء حوار معها. استكملت مشاهدتى بتركيز شديد على خلفية القطعة السفلى ودراسة اهتزازاتها القاتلة. حينئذ أدركت أننى لا أخاف هذا العالم – كما توهمت من قبل – وأننى فائز لا جدال ببطولة السباق، وأن الأمل المجنون الذى لاح لى بين البيوت الأنيقة ليس من المستحيل أن يتحقق.

بمجرد سماع طلقة بدء السباق انطلقت كقذيفة صاروخية مدفوعة بجهد إلكترونى خارق. كانت يداى أول يدين لامستا حائط نهاية الحوض. حينئذ كشفت خريطة عالمى عن خزانة بنك دولى مكدسة بسبائك من الذهب.

العديد من الأيدى تمتد إلى لتتلقفنى إلى خارج الحوض. كاميرات الصحف المحلية والقاهرية تبرق فى وجهى. الرجل المهم يحتضننى بملابسه الأنيقة ويكاد يبكى من شدة الفرحة. يد أخرى

تنتزعنى برفق من حضن الرجل المهم وتجفف لى جسدى. يد أخرى تقرب لى مقعدا لأجلس عليه..

ما هذا الذى يجرى فى هذه الدنيا الغريبة عنى؟ إنه شىء رائع حقا. إنه الفوز والبطولة والنجاح الساحق فى اقتحام الحياة والكشف عن أسرارها الضاربة فى أعماق الزمن. من بين الأيادى المصافحة للتهنئة اكتشفت يدا أعرفها. هى تماما. لكن ابتسامتها هذه المرة تشكل اعترافا صارخا بوجودى ورغبة قوية فى استكمال الحوار معى. اقتربت منى، ووسط ضجيج التهنئة قبلتنى!!.. يا إلهى. هؤلاء الناس واثقون بأنفسهم تماما ولا يعطون بالا على الإطلاق للآخرين. أغلب ظنى أنهم لو كانوا فقراء ما تمتعوا إطلاقا بهذه الجرأة والحرية التامة فى التعبير عن مشاعرهم كما يشاءون.

كان علىّ أن أستحم من جديد قبل ارتداء ملابسى. اكتشفت هذه المرة أن هناك صنابير للمياه الباردة وأخرى للساخنة. عالم رائع يستحق الدراسة والبحث والاهتمام. من التخلف أن يتواجد مثل هذا العالم دون أن أدرى عنه شيئا. طال تنقلى بين صنابير المياه الباردة والساخنة ومياه الدشات. ما أروع مبنى الجامعة وقبلة الفتاة الحلم ومجانية التعليم. بعد قليل سأسمع اسمى فى الميكروفون وأذهب لتسلم الكأس والميدالية. إنها لحظة الانتصار التى تفجر شرارة بدء اكتشاف العالم الجديد. لكن المياه الدافئة مغرية وسيحوى الظرف المغلق مكافأة لا تقل عن عشرين جنيها. تصفيق حاد.

الفارق شاسع بين استخدام وابور الغاز والحلة والكوز النحاسى، واستخدام الدوش الساخن. ليت صاحبة الجسد البرونزى والشعر الكستنائى والقبلة الخاطفة تشاركنى لذة الاستحمام – منفردين – فى هذا المكان الجميل. ليتها تشهد لحظة تسلمى الكأس والميدالية. ليتنى أواصل معها الحوار الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى.

لم أشأ أن أحكى لأمى عما رأيت وعما حدث رأفة بقناعتها الراسخة بعالم الحارة والبيت المحاط باللبلاب، فالمسافة بينه وبين عالمى الجديد ساحقة فى البعد، ولا معنى عندها لقياسها أو محاولة اجتيازها. أما حين قفزت من ناصية حارتى ولحظة ارتطام جسدى القوى بصفحة ماء الحوض، فإننى كنت قد بدأت القياس والاجتياز. عندما قلت لأمى إننى أريد أن أصبح من كبار رجال الأدب أو الفكر، ربتت على صدرى بحنان وقالت لى:

– يا بنى نحن على قد حالنا.

– هذا لا يمنع يا أمى أن أكون كبيرا فى شىء ما.

– إنى أحترم طموحك لكنى أخشى عليك منه.

أمام منصة الاحتفال نودى على اسمى عدة مرات. علمت أن الرجل المهم قد استشاط غضبا لغيابى. أين الولد؟. ابحثوا عنه فى الحمام. فاز النادى الشعبى بالرقم القياسى الأول الذى ضربه الولد الشيطان. اضطر الرجل بعد استلامه كأس النادى أن يتسلم أيضا ميداليتى الذهبية نيابة عنى.

جئت مهرولا أمام المنصة. امتص الرجل المهم غضبه واغتصب ابتسامة. صافحنى وسلمنى الميدالية واستدعى مصورا صحافيا التقط لى معه صورة وأنا ممسك بالكأس. قال الرجل:

– انتظرنى أمام عربتى لنتوجه إلى النادى ومعنا الكأس.

أفلتت منى لحظة الانتصار. نظرت إلى ناصية الحارة التى قفزت منها ورأيت الحارة التى أتيت منها وفى نفس اللحظة رأيت مطار القاهرة الدولى. بحثت عن الفتاة فلم أجدها. استعرضت العديد من الأجساد شبه العارية. المناضد الملونة وعليها المشروبات الساخنة والمثلجة. الخدم فى زيهم الأصفر والأبيض والأخضر. تجمدت مشاعرى عند لحظة صفرية لا هى الحزن ولا هى الفرحة. قرب باب الخروج لمحت الفتاة مرتدية بنطلونا من الجينز تسير مع فتى أنيق يضع فى فمه سيجارة. أمام العربة قال لى الرجل المهم بسعادة بالغة:

– اركب يا بطل.

تقدمت نحو العربة فى خطوة واثقة.

• **المجنون فى الزنزانة:**

كنت أعد رسالة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور بكر رئيس قسم الهندسة الكيمائية. دفعتنى ميولى الفنية إلى اختيار موضوع متعلق بالخزف والألوان التى يطلى بها. كان موضوع البحث

هو صناعة الطلاءات الزجاجية والمينات باستخدام خامات مصرية. الدكتور بكر صعيدى قنـاوى متخصص فى علم الحراريات. أنجب ابنتين ولم ينجب ولدا. أحبنى بشـدة واعتبرنى تعويضا من الله فى حياته عن هذا الابن. كثيرا ما كان ينصحنى فى أمور الدنيا بإخلاص أبـوى أكثر مما كان ينصحنى ويرشـدنى فى تفاصيل البحث. فجأة أصيب بذهول وراح يهمس فى ريبة لبعض زملاء دفعتى:

– سعيد اتجنن!!

عرفت منه بعد ذلك أنـه رأى صورتى بإحدى الجرائد وتحتها اسمـى وبجوارها عنوان لقصة قصيرة مـن تأليفى، حين راح يردد على مسامع الجميع:

– لا حـول ولا قـوة إلا بالله.. سـعيد أدركته حرفـة الأدب.. سيضيع مستقبله بيده.

أحدث كل هذا الضجيج قبل أن يواجهنى مباشرة:

– ما هذا الكلام الفارغ الذى تكتبه يا بنى؟

– أنت تعلم يادكتور أننى من عشاق الأدب.

– أن تعشق الأدب شىء وأن تكتبه شىء آخر.

– وما يضيرنى أن أتخذ منه هواية إلى جانب عملى؟

– يجـب أن تعلم أن الأدب فى بلادنـا والفقر صنوان متلازمان. سيعطلك عن الدراسة والعمل ولن تجنى من ورائه شيئا ذا قيمة.

لم أعبـأ بنصيحتـه، بـل كنـت ناقما علـى معاداتـه للأدب، وكنت أرى فى ذلك نقيصة كبرى فى حق أسـتاذ جامعى مسـتنير.

المهـم أننى كلما انهمكـت فى الكتابة والنشـر ابتعدت عن المعامل وانقطعـت عن البحث، مثلما توقع الدكتـور بكر. لكنى كنت أعود ثانية خشـية أن تضيع منى الفرصة، خاصة أننى ألقى من الدكتور بكر كل المسـاعدة والاهتمام، الأمر الذى لم يكن متاحا لنظرائى من الباحثين.

حذرنـى أحـد المعيدين بالقسـم مـن الاندماج فى عـالم الأدب والاستسلام للذة الشـهرة والذيوع فى الجرائد والمجلات والإذاعة والتلفزيـون. نصحنى بانتهاز فرصة العمر فالدكتور بكر لن يعيش إلى الأبد.

فـى ذلك الوقت التقيت بالمهندس محمـد النجار صاحب مصنع البويات الحرارية بالسـويس. ينتج المصنع طـلاء حراريا مصنوعا مـن البتيومين أو القار، لسـت أدرى من أين حصـل على تركيبته الكيمائية رغم أنه مهندس كهربائى. تستخدم هذه البوية السوداء فى طـلاء القزانات والمراجل البخارية التـى تصل درجة حرارتها بالداخـل إلى ما يقرب مـن ألف درجة مئويـة، وذلك بغرض عدم تسـريب الحرارة من جسـم المرجل إلى الجو. أطلعنى محمد النجار على عينة مستوردة من نفس الطلاء، لكنها كانت فضية اللون لامعة جذابة المظهر. كان سـعرها ضعف سـعر الطلاء الأسود البتيومينى رغم أن التركيبة الأساسـية واحدة. قـال لى إننى لو أجريت بعض التجـارب والمحاولات على هذا الطـلاء لتوصلت إلى طريقة تجعله

فضيا فى لون العينة المستوردة. حفزنى إلى المحاولة بأن وعدنى – فى حالة نجاحى – أن ينتج الصنف الجديد وأن أناصفه فرق الأرباح بين سعرى المنتجين. لم يكن هناك ما يدعو إلى سوء الظن بوعده فهو الشقيق الأكبر لصديق طفولتى عادل. لم يكن عندى بديل لإجراء تجاربى عن معمل الدكتور بكر الذى أجرى فيه أبحاثى للحصول على الدكتوراه. أخفيت جراكن البوية السوداء فى أحد دواليب المعمل البعيدة وأغلقته بحيث يصعب على أحد التوصل إلى مكانها. بدأت أجرب إضافة مواد عضوية وغير عضوية إلى الطلاء بصفة يومية فى الأوقات التى لا يكون فيها الدكتور بكر متواجدا. كان الوقت يمتد بى دون أن أدرى فأستمر فى تجاربى لما بعد الواحدة صباحا فى بعض الأحيان. لفت ذلك نظر كونستابل الحرس الجامعى. زارنى فى المعمل ذات مساء مدعيا تشجيعى على مواصلة العمل رغم تصريحه الواضح بأنه محظور على طلبة الأبحاث البقاء بمعاملهم لما بعد منتصف الليل. كانت عيناه الجاحظتان ترمقان فلاسكة زجاجية لها فتحة جانبية مثبت بها خرطوم، وفوهتها مسدودة بفلين مستورد به ثقبان. قال وهو يتحسسها بشغف شديد وكأنه عثر على كنز:

– أريد هذه الفلاسكة.

على الفور فهمت مقصده، فهو يريد استخدامها كجوزة ليدخن بها الحشيش الواضح فى عينيه البارزتين من محجريهما، وصوته الأجش المحشرج وسعاله المتكرر. قلت له على الفور ودون تفكير:

– خذها.

كان هدفى إبعاده عنى حتى يتركنى أسهر أو حتى أبيت فى المعمل كما أشاء. دفعت المقابل رغم أنه ليس من جيبى. كان انقضاضه عليها بمثابة تصريح لى بالسهر والمبيت دون علم أحد، فهنيئا له بجوزة معملية يدخن بها الحشيش تدخينا علميا راقيا يجمع بين الأصالة والمعاصرة. بعد قليل لاحظت أنه ينظر إلى الرف العلوى فى مواجهة باب المعمل متأملا إطارا خشبيا مستطيلا رسبت عليه بللورات من مادة كيمائية رمادية اللون منقوشة على شكل حروف يقول منطوقها: «ما شاء الله توكلت على الله». قال بنفس حشرجة الصوت والنظرات الزائغة ولعاب الطمع السائل من فمه:

- إنها تحفة.

مد يده وراح يتحسسها بشغف. قلت له بنفس بساطتى حين طمع فى الآنية الزجاجية:

- خذها.

غادر المعمل حاملا الهديتين، وهو على اقتناع تام كرجل بوليس، بأحقيته فى الحصول عليهما نظير سماحه لى بمخالفة القانون.

فى اليوم التالى لم يسألنى الدكتور بكر عن الفلاسكة إذ كنت قد وضعت مكانها واحدة أخرى مماثلة لها، لكنه سألنى فى دهشة عن اختفاء الإطار الخشبى المستطيل. قلت له ببساطة:

- أعطيتها للكونستابل

- لماذا؟!

- لأنه طلبها منى.

– وهل تظن أنه معمل «أبوك» حتى تعطيها له بهذه السهولة؟

الدكتـــور بكر رجل طيب. اعتبر تصرفـــى هذا ضربا من الجنون الـــذى يحلو له دائما أن يصفنى به. واصلت تجاربى الســـرية حتى نجحت فى الحصول على عينة مماثلة للطلاء المستورد. رحت أرقص وحدى فى المعمل بينما كان الفجر يؤذن. فى الصباح طرت فرحا إلى المهندس محمد بركات متوقعا أن يأخذنى بالأحضان لشـــدة فرحته بالتوصل إلى ما كنا نحلم به. فوجئت بنظراته تســـحقنى وتستهين بشـــأنى وتستكثر على التوصل إلى هذا الابتكار، وعلى ملكيته التى ستؤدى طبقا للاتفاق إلى مناصفته فرق الأرباح بين السعرين. سألنى بنعومة مدروسة وقد كشفت لى فطرتى ما يضمره لى من سوء:

– ما هى المواد التى أضفتها؟

يا لوقاحتك يا رجل!!

– وبأى نسب أضفتها؟

واثق هو لدرجة اليقين بسذاجتى إذ يتوقع أن أجيبه على الفور. ذكرت له أسمـــاء كيماويات وهمية لم أضفها ولكـــن من بينها مادة واحدة حقيقية هى مســـحوق الألومنيوم. عندما سمع هذا الاسم بدا عليه الامتعاض وقال بوجه مصفر:

– لن نستطيع الحصول على هذه المادة فهى لا تنتج إلا فى المصانع الحربية وهى خاضعة للرقابة العسكرية.

امتزج امتعاضه بشـيء من الشعور بالسـعادة لأننى لن أستطيع مشاركته الربح، وكأنه يعاقبنى على اجتهادى ونجاحى باستحالة الحصول على مسحوق الألومنيوم من السوق بسهولة وبكميات كبيرة تغطى إنتاج المصنع. نظراته الصفراء تستنكر بشدة أن تتساوى رأسى برأسه حين نتقاسـم الربح، فمن أكون أنا فى نظر الرأسمالى الثرى صاحب المصنع الكبير، وكأن لسان حاله يقول:

– بركة يا جامع أن جاءت منك.

ورغـم أنه الخاسـر الحقيقى حال عدم العثـور على هذه المادة، إلا إنه كان سـعيدا لأننى لن أكسـب من ورائه شيئا.. يا إلهى!!.. ما هذا الكم الرهيب من الحقد الأسود غير المبرر من رجل قوى غنى ناضج تجاه شـاب فى مقتبل العمر مترع قلبه بالنوايا الحسنة تجاه الدنيا؟!..

كان درسا قاسيا تعلمت منه ألا أستسلم مرة أخرى لرومانسيتى وحسن ظنى بالناس والحياة. لكنى لم أيأس. طلبت من زميل دفعتى سمير مرقص أن يفكر فى وسيلة للحصول على كمية من هذا المسحوق الذى ينتجه المصنع الذى يعمل به فى الهايكسـتيب على أن نبيعه ونتقاسـم الربح، وما دامت الصناعة قد خذلتنى فلأجرب التجارة. رغم ندرة هذا المنتج بالسـوق إلا إنه مخزن بمصانع الهايكسـتيب كبضاعـة راكدة كمـا فهمت من سمـير. يا سـبحان الله!.. ذهبت

مع سمـير والتقينا بمديـر المصنع حيث أقنعنـاه – كذبا – أننا لن نتاجر فى هذه المادة وإنما سنستخدمها لأغراض بحثية.

كنـت قد التقيت بالقطط سمسـار الكيماويـات العجوز الذى عرفته عـن طريق أحد زملائى بالشـركة. أكد لى اختفاء مسـحوق الألومنيوم من السـوق وأن الإتجار فيه سيكون مربحا للغاية. قلت له هامسا بثقة مصطنعة:

– عندى صنف ممتاز من هذا المسحوق.

فتح فمه على اتساعه دهشة ونظر إلى بعينى محمد النجار وقال متوجسا:

– غير معقول.

– لماذا؟

– كيف استطعت الحصول عليها؟

فى تلك اللحظة أدركت أنه قد آن أوان ارتباطى الرسمى بجميلة.

– سر المهنة يا معلم.

– مصرى أم مستورد؟

للمغامرة مقتضياتها. أكمل مسيرتك ولا تتراجع، فمن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

– مستورد طبعا.

– عجيبة!!

جاءتنا أنباء مؤكدة باستشهاد الرائد ابراهيم النحراوى زوج نادية فى منطقة أبى عجيلة بسيناء، دون أن ينجح فى المساهمة فى إزالة اسرائيل من الوجود أو حتى احتلال تل أبيب كما كان يتمنى هو وكل المصريين المخدوعين فى آمال قادتهم. كان لابد لى من الحصول على مال بأية وسيلة حتى أحفظ ماء وجهى أمام جميلة، خاصة بعد أن فشلت مشاريعى المشتركة مع صديقى المهندس محيى العيسوى لإنشاء مصنع لإنتاج الكيماويات المصرية من الخامات المحلية.

دفع لى القططى العربون مقدما لشراء ربع طن من المسحوق. أصبح فى جيبى مئات الجنيهات لأول مرة فى حياتى. اكتسحت مشاعرى طمأنينة عظيمة فاستسلمت لها وكأنما ليست لرحلتى نهاية. أمضيت فى القاهرة ليليتين حافلتين. سينما. مسرح. ملهى ليلى. مقام السيدة زينب. المركز القومى للبحوث. شقة سمير مرقص التى لا يمكن أن تخلو من النساء. فى الليلة التالية شعرت بالندم، فتوجهت إلى مسجد سيدنا الحسين لأصلى العشاء وأطلب المغفرة والتوفيق من الله. دخلت المسجد بصدر منشرح وقلب عامر بالنوايا الحسنة ونويت الصلاة. فوجئت بيد حانية تستقر فى لطف على كتفى، وشيخ عجوز يقف من خلفى:

– ماذا تفعل يا بنى؟

– كما ترى يا مولانا.. أصلى.

كانت دهشة الشيخ منى تفوق الوصف، وأنا لا أفهم لها سببا، حين اقترب منى هامسا:

– أنت تعطى ظهرك للقبلة.

أفقت على جرمى غير المقصود وطار مفعول البيرة. عدت إلى الوضوء من جديد وقد استبد بى شعور طاغ بالخوف من مجهول لابد أنه واقع على رأسى. أنا موظف حكومى لا يحق له ممارسة التجارة فى أى شىء. رغم ذلك فهأنا أتاجر فى مادة حربية وأسعى لبيعها فى السوق السوداء.

فى صباح اليوم التالى جلست بجوار سمير فى عربة المصنع الحربى. اعتقد السائق والموظفون أننى موظف جديد عندما رأونى أبادله الحديث. قدمنى سمير إلى مدير المصنع كزميل له أعمل فى بحث للحصول على الدكتوراه فى هذا المسحوق. طلبت شراء ربع طن. أبدى المدير دهشته فالمادة بطبيعتها هشة للغاية، تشغل عبواتها حجوما كبيرة جدا مهما قل وزنها. فى النهاية وافق على البيع فهو الرابح بترويج بضاعته الراكدة.

كان سر دهشة القطط واستغرابه للأمر أننى لم أدله على مصدرى الذى حصلت منه على المسحوق. كل ما قلته أنه وارد من الخارج. سارعت بمجرد استلام الصفائح الكثيرة المحتوية على المادة بإزالة الورق الملصق عليها والذى يحمل اسم المصنع الحربى المنتج لها، وما أقبح الحياة حين تخلو من مغامرة.

فى الموعد المضروب وفــى المكان المتفق عليه حضر القطط ومعه بقيــة المبلغ. كانت هــذه البقية تعادل صافى مكســبى من الصفقة. أحصيت الأوراق المالية بسرعة ووضعتها بفرحة فى جيبى، ثم قلت له بثبات:

– تفضل.. استلم البضاعة.

نظر إلىَّ بعينين هما عينى محمد النجار تماما. هو الآخر يستكثر علــىَّ أن أقوم بأى إنجاز يدفعنى خطوة إلى الأمام. كان يخاطبنى من قبل بأدب مبالغ فيه مخفيا دهشــته مــن قدرتى على الحصول على هذا الشىء النادر. الآن يخاطبنى بلهجة ضباط المباحث:

– قل لى يابشمهندس.. من أين جبتها؟

أجبتــه بغضب مدروس بينما كان يتفحــص عينة منها بانبهار شديد.

– وما شأنك؟. لك أن تتسلمها أو ترفضها.

راح يتباطأ فى الحركة بين الصفائح يتحسسها ويتلمسها ملتفتا مــن حوله بين الحين والآخر فى توجس حيرنى وإن لم يدفعنى إلى الارتياب فى فعله أو نواياه.

كالقضــاء العاجل مرقــت من حولنا عربات ثــلاث، ثم توقفت فجــأة بعد حركة التفاف وانقضاض مثــيرة أحاطت بى وبالصفائح. نزل منها رجال غــلاظ التقاطيع وبيد واحد منهم طبنجة. فوجئت بســيل من اللكمات ينهال على وجهى من كل جانب، وأياد كثيرة

تفتش بعنف فى جيوبى وتستخرج منها الأوراق المالية والفواتير. انهارت عزيمتى دفعة واحدة ولم أعد أفهم شيئا مما يجرى لى. توقف مخى عن التفكير فلم يكن بمقدوره أن يعمل. تناثرت من حولى كلمات كثيرة لم أستطع أن أميز منها إلا كلمات الرائد قائد الحملة حين خاطبنى ساخرا:

– كيف حالك يا بشمهندس سابقا.

التقطت أذناى حديثا جانبيا هامسا بين اثنين منهم كانا يتفحصان أوراقى وبطاقتى الشخصية:

– شىء غريب.. معه فواتير رسمية.

– نجا ابن القحبة من الفخ بعد أن دوخنا معه السبع دوخات.

– نحولها إلى تهمة المتاجرة فى السوق السوداء وأمرنا لله.

تلفت حولى فلم أجد أثرا للقططى. قبضوا عليه هو الآخر لإتقان تمثيل الدور. لم يكن يخطر ببالى حتى هذه اللحظة أنه يعمل مرشدا للمباحث، وأن غباءه صور له أننى لص يتعامل مع عصابة تسرق هذه المادة النادرة من المصنع الحربى ليتجروا بها فى السوق السوداء. فحصوا الفلوس وفهمت من حديثهم أنها كانت تحمل أرقاما معينة معلومة لديهم. ساعتها فقط بدأ الشك يساورنى فى القططى الكلب الذى خسر عمولته وهدد مستقبلى.

لم ألبث أن استعدت ثقتى بنفسى إذ كنت على يقين من أننى لم أرتكب جرما جنائيا وإن كنت قد ارتكبت مخالفة مهنية لكونى موظفا عاما تجرأ بممارسة التجارة الحرة إلى جانب وظيفته.

من الغريب أننى نمت بعمق فى العربة العسكرية التى اصطحبونى فيها إلى المصنع الحربى لاستجواب مديره الذى أمدنى بالمسحوق. فى المساء كنت أرقد فى زنزانة بسجن عابدين بينما كان سمير منخرطا فى البكاء بزنزانة مجاورة. أكلت الفول الأميرى المدمس والفجل الملطخ بالطمى والخبز الأسود بشراهة. التقيت لأول مرة فى حياتى بعالم الإجرام والمجرمين. أفردوا لى قطعة كبيرة من الورق المقوى على أرض الزنزانة. خلعت حذائى ووضعته بتلقائية تحت رأسى كسجين متمرس. تمددت عليه وبداخلى نشوة خفية كما لو كنت أشاهد تمثيلية تلفزيونية وأرقب فى فضول شديد ما يحدث لى وكأننى أتفرج على شخص آخر غيرى.

لم أفكر فى جميلة منذ لحظة الهجوم علىّ فى صحراء مصر الجديدة وحتى لحظة النوم السعيد على «البورش» الكارتونى. قال لى كبيرهم وأنا لا أعرف إن كان هو الآخر مرشدا للمباحث مثل القططى الخائن، أم أنه مجرم حقيقى قادم لتوه من جناية ارتكبها:

– قل لى إيه حكايتك بالضبط.

حكيت له ما حدث بأمانة. ضحك فى ثقة وأصدر قراره:

– اطمئن. لن تبيت معنا اليوم.

تفاءلت بنبوءة المجرم وسألته بمودة صديق قديم:

– ماذا تقصد؟

– لو كان ما ذكرته صحيحا فأنت لم ترتكب جناية.

– بشرك الله بالخير يا صاحبى.

– لكن خذها منى نصيحة : احذر أن تمشى معهم فى الأزرق.

– وما الأزرق؟

– يعنى قل لهم الحقيقة كما رويتها لى بالضبط لتوفر على نفسك الضرب والإهانة.

كان المحقق برتبة عميد. نظر إلى فى دهشة أغلب ظنى أنها راجعة إلى صغر سنى وحجمى. سألنى بابتسامة ساخرة:

– هل أكلت الفول الأميرى والفجل يابشمهندس؟

– نعم ونمت أيضا.

لم أقل غير الحق، فعندما جاءوا يستدعوننى فى المساء وجدونى مستغرقا فى النوم بالزنزانة، مثلما نمت من قبل فى العربة بعد القبض علىَّ بقليل.

استدعى المهندس سمير، ووقفنا معا أمام العميد. انتهى التحقيق بنصيحة لم تبارح ذاكرتى حتى اليوم:

– إياك أن تفكر مرة أخرى فى المكسب السريع وإلا انحرفت عن الصواب دون أن تدرى.

تأثرت بلهجة الرجل الأبوية الصادقة وحنانه الممتزج بالحسم والشدة تجاه شابين فى مقتبل العمر، فلم أعلق. واصل حديثه:

– سأكتفى هذه المرة بإخطار جهة عملك لتوقيع جزاء إدارى عليك.

كان معظم حديثه موجهـا إلىَّ وحدى منذ بداية التحقيق، وكأن سمير غير موجود. عدت إلى صديقى المجرم لأودعه قبل الانصراف. شـكرته على كرم ضيافته وصدق نصيحته. ودعنى بحرارة دهشت لها وكأننا صديقان قديمان. انصرفت بعد مصادرة البضاعة والفلوس وكل شـىء. تذكرت السـيدة زينب والحسـين. كنت مفلسـا. قلت لسمير:

– أنا ميت من الجوع.

لم ينطق فسألته:

– كم معك؟

– سبعة جنيهات.

– اعطنى جنيهين أعود بهما إلى الإسكندرية.

بوداعة واستسلام أعطانى الجنيهين.

– ألست جوعانا؟

– من أين تأتينى الشهية للطعام؟

كان حزينا محطما، لكنى لم أعبأ بذلك. سحبته إلى مطعم قريب فانقاد ورائى كما لو كان واقعا تحت تأثير منوم مغناطيسى. جلسنا إلى مائدة صغـيرة. لابد أن أروى لجميلة هذه المغامرة الظريفة التى جعلت منى «رد سجون». بصعوبة أكل سمير قطعتين من الكباب ثم توقف. لم يستطع ابتلاع المزيد. أجهزت على نصيبى وبقية نصيبه، ثم دفع هو الحساب وتقيأ ما أكله فى الطريق.

تنسمت هواء الحرية فى شوارع القاهرة الساحرة بمعدة ممتلئة وعينين تلتهمان المحلات والأزقة والنواصى بحب وشغف رغم الحظ المنحوس الذى لا يريد مفارقتى، والذى أخاف منه على جوهرتى الغالية التى ربطت مصيرها بمصيرى. حجزت فى الديزل الفاخر إلى الإسكندرية ولم يكن بجيبى سوى علبة سجائر وربع جنيه.

عندما رويت لجميلة ما حدث لى فى القاهرة قالت من خلال دموعها:

– اللعنة على الفلوس ومن بدعها.. ماذا كنت أفعل لو سجنوك؟

– الحمد لله على كل شىء. المهم أن تتم الخطوبة فى موعدها.

لم أكن قد حصلت على براءة شهادة الماجستير المعتمدة من مدير الجامعة حتى ذلك الوقت. ذهبت إلى الكلية لاستلامها، حين اندلعت مظاهرات الطلبة بعنف لم أشهد له مثيلا من قبل. اعتقلوا محافظ المدينة داخل أسوار الكلية. تبادلوا اختطاف الميكروفون فى المدرج الكبير وصدورهم ملطخة بالدماء من أثر طلقات الرش التى استخدمها البوليس لتفريقهم. جموعهم الثائرة الهادرة تهتف بسقوط وزير الداخلية شعراوى جمعة أثناء استماعهم إلى الخطب النارية الملتهبة من المصابين. أقاموا محطة إذاعة موجهة من خلال ميكروفونات كبيرة إلى الجماهير الثائرة فى الشارع. اشتبكت الجماهير مع البوليس وانهالت عليه رميا بالطوب والحجارة وازداد الموقف اشتعالا. ضربوا ضابط بوليس ذا رتبة كبيرة عندما بصق فى وجه أحد زعماء المظاهرة خلال احتداد الآخر عليه فى

الحوار. ألقوا به أرضا وبالغوا فى الإســاءة إليه جزاء لفعلته. بكى المحافظ المعتقل وهو يخاطبهم فى الميكروفون:

– أنتم أولادى.. اهدأوا حتى نتفاهم

لو لم أنصرف فى الوقت المناسب لقبضوا على بتهمة أننى مندس وعنصر غير طلابى يسهم فى إثارة الطلبة وتحريضهم، مثلما حدث مع صديقى عبد الحليم عجور رحمه الله، والذى تخلص من تعذيبهم بالانتحار فى المعتقل.

لست أدرى لماذا رويت كل تلك الوقائع لجميلة، ولا لماذا حددت لها الأسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٦٨م كموعد لعقد القران. قررت أن أحســم الأمر وأتوكل على الله بأن أحتاط من غدر الزمن وتقلبه بحد أدنى من الفعل. أخفينا عن صهرى أننى مســتدع للخدمة العسكرية بعد أســبوع من توقيع العقد، وليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر، فإبراهيم النحراوى لن يعود، ونساء بنى صهيون تستحم عاريات فى قناة السويس أمام جنودنا الممنوعين من إطلاق النار على الضفة الشرقية المحتلة لحين صدور أوامر أخرى.

لم أستطع إخفاء سرى أكثر من ذلك عن الدكتور بكر. توقعت أن يغضب منى بشدة، وربما يحرمنى من مواصلة البحث معه للحصول على الدكتــوراه. فوجئت بطيبته وحنانه وهو يغفر لى كل ما فعلته من خلف ظهره، بل إنه نصحنى بإخلاص أن أكون حريصا على ألا أفشى سر تبييض الطلاء إلى محمد النجار أو غيره من أصحاب المال.

مات الدكتور بكر دون أن أحصل على الدكتوراه، بعد أن اخترت الأدب غـير نـادم. لكنه من المنصف أن أقول إننى على مر السـنين كنت أشعر بالندم فى بعض الأحيان على فرصة من أهم فرص حياتى الضائعة.

... أنـا ونديم خرجنا إلى الحيـاة من نفس المكان. أنا تفننت فى تضييـع الفرص وهـو تفنن فى اقتناصها.. لكن لا أحد يسـتطيع أن يدلنى من منا المخطئ ومن منا المصيب.

• رسالة الماجستير تكتب بحب على أنغام العود ورقص رجاء ودخان البخور:

دبت خناقة شـديدة بينى وبين نديم بسبب تشدده فى محاسبة الحاجة تحية ومراجعتها على ما أنفقته من جنيهات قليلة لشـراء بعـض احتياجات البيـت. كل ما أذكره من هـذه الواقعة هو لومه الشديد لها لأنها اشترت قاروصة كبريت كاملة، إذ قال لها إنه كان يكفى شراء علبة واحدة أو علبتين على الأكثر. انفجرت فيه غاضبا:

– أنت بنى آدم نتن.

اندفـع نحوى رافعا كفه محـاولا أن يصفعنى على وجهى، لكن تحية ألقت بثقلها عليه ممسـكة بذراعـه. وقفت حائلا بيننا وهى تبكى بحرقة قائلة:

– لا.. لا.. الأخ لا يضرب أخاه.

وإذا بها تنهار ساقطة على الأرض فى حالة ما بين الإغماء والتشنج. أصبحت مشكلتنا المشتركة التى علينا أن نواجهها متناسين ما حدث بيننا هى كيف نفيق أمنا من غيبوبتها ونعيدها إلى حالتها الطبيعية. استخدمنا المياه ثم الكولونيا وكل منا يأخذها فى حضنه تارة ويربت على وجهها تارة أخرى.

بعد أن عادت الأمور إلى مجراها لم أكن قادرا على الاستمرار فى مشاركة نديم المعيشة بعد أن تفرق الإخوة وبقينا وحدنا مع أمنا تحية. كان من الضرورى أن أنفصل عنه حتى أتجنب معاودة الاحتكاك به بسبب سلوكياته المادية المزعجة التى سمحت له بمحاسبة أمه بالقرش على ما تنفقه، والتى جعلت من شراكتنا فى الإنفاق على مصروف البيت مشكلة مرهقة. استأجرت شقة صغيرة فى الدور الأرضى بإحدى عمارات الإبراهيمية المواجهة للكورنيش وقررت الإقامة بها وحدى حتى ينصلح حال نديم ويتعهد ألا يعود إلى محاسبة أمى مرة أخرى. وكنت قد عاهدت أمى سرا أن انفصالى لن يدوم طويلا حتى لا تغضب منى.

كانت الشقة مقسمة إلى قسمين أحدهما يشغله الأسطى جمعة وزوجته رجاء، أما القسم الذى شغلته فكان به شرفة واسعة طويلة تطل على البحر وعلى الممر الفاصل بين العمارة والعمارة المواجهة لها، والذى ينتهى بسد عرضى من عمارة ثالثة متعامدة على العمارتين. هكذا يصبح الممشى المستطيل المغلق الناشئ عن ذلك

التكويـن المعمارى العتيـق، مكانا رائعا للجلوس بـه ليلا ونهارا لتميزه بتيار هوائى منعش فضلا عن مواجهته للبحر مباشرة.

الأسطى جمعة حرفى كسّيب. نحيف كالبوصة رقيق كالنسمة. صوته منخفض أشبه بالهمس. نظراته شكاكة خوافة لست أدرى من ماذا. يؤمن بالجن والعفاريت بشكل ملفت. كثير التلفت يمينا ويسارا من حوله خاصة فى المسـاء. يحاول قدر المسـتطاع تجنب الاحتكاك بزوجته المتسـلطة عليه والتى تستغل طيبته إلى أقصى مدى. تقرب منى فاسـتجبت له. حكاء من الطراز الأول وكل حكاياته خرافات ومعتقدات وهمية. بمرور الوقت أصبح زائرا شـبه مستديم لغرفتى بعد أن لقى ترحيبا من جانبى فقد استهوتنى خفة ظله ووجدت فى هوسـه بالخرافات وسيلة نادرة للتسـلية... عندما يريد أن يغتاب زوجتـه رجاء وينعتها بألفاظ قبيحة فإنـه يتأكد أولا من أن الباب مغلـق فى إحكام حتى لا تتصنت عليـه وتعاقبه، وفى الوقت ذاته فهو يدعى لى أنه أبو الرجال وأنها لا تسـتطيع أن تخالف له أمرا. من حين لآخر تأتى أم رجاء – الشـهيرة فى المنطقة بالمعلمة حسنة – فى زيارة قد تطول لعدة أيام. يتولى جمعة خدمتها بإخلاص فيعد لها الشيشـة والفحم والمعسـل ويجلس تحت قدميها كطفل مطيع. جمع بينى وبينها حديث السياسـة فقد كانـت مولعة بها. عندما توطدت صداقتنا صارت تطلب منى أن أعزف لها على العود، ويوما اسـتبد بها الطرب فأصدرت تعليماتها القاطعة إلى رجاء أن تتحزم

وترقــص، وقد كان، ثم تكرر بعد ذلك كثيرا حتى فى غياب المعلمة حســنة فى بعض الأيام. عندمــا عرفت أننى أحب البخور أحضرت لى أصنافا نادرة منه ذات رائحة طيبة، وكان يحلو لى ولها مشاهدة دخانه واستنشاق رائحته بينما تهتز مؤخرة رجاء على إيقاع العود وطبلة جمعة التى يؤدى دورها على منضدة صغيرة.. وأحيانا كانت حسنة ترَجلى فتغنى بصوت أجش وإن كان بعيدا عن النشاز.

كان الأســتاذ صديق سكرتير قسم الهندســة الكيمائية بالكلية يكتب لى رسالة الماجستير على ورق الاستنسل الذى كان استخدامه شــائعا فى ذلك الوقت حتى يمكن تجهيز نسخ عديدة من الرسالة. كان قد وصل إلى قرب النهاية حين دعوته لاســتكمال الكتابة عندى بالشــقة بدلا من الذهاب إليه يوميا فى العصافــرة. كنت واثقا بأن الجو عندى ســيعجبه كثيرا وقد صدق حدســى إذ كان صديق محبا للهو والمرح والموسيقى والطرب.

كانت ليلة لا تنســى تلك التى اختتم فيها صديق كتابة الصفحة الأخيرة فى الرسالة على آلته الكاتبة العتيقة والتى كانت تكتكاتها تتقاطــع مع أنغــام العــود وإيقاع الطبلــة واهتزازات وســط رجاء وقهقهاتــى أنا والمعلمة حســنة، وأمامنا زجاجــات البيرة المثلجة وكثير من المزات التى أعدها لنا جمعة بمحبة ورضا.

فى الليلة التالية قررت مغادرة الشــقة، إذ خشيت على نفسى مــن إغــراء رجاء بعد أن أحببــت زوجها الطيــب، وبعد أن بدأت

تلاعبنـــى، كما راعيت ألا يطول غيابى عن أمـــى أكثر من ذلك بعد أن أكدت لى أن نديم سوف يتحرر مع الوقت من مادياته السخيفة.

كلما تذكرت الدكتور بكر الذى أشـــرف على رســـالتى وأحبنى كابنه، شعرت بشىء من الندم لأنى لم أستجب لنداءاته العديدة لى بإكمال الدكتوراه قبل أن تســـتولى علىّ حرفة الأدب، ولكنها خطى كتبت علينا فمشيناها.

• دائرة المحبة:

قالت لى أمى:

– من يحبه ربه يفرجه على خلقه.

منذ طفولتى لم يفارقنى الحلم بهذه الفرجة. كلما مرت من عمرى سنة تضاعفت خشيتى من الموت قبل الاستمتاع بهذه الفرجة. أنظر من نافذة بيتنا العتيـــق المطل على البحر، متجاوزا بخيالى الأخضر منتهى حد الرؤية حيث يعانق البحر الســـماء. المعادلة الشـــرطية صريحة وواضحـــة. كى أنعم بالحلم ينبغى أن أحظى أولا بالمحبة. يطل الســـؤال على عقلـــى الصغير فى اســـتحياء ممزوجا بالتحدى. كل عـــام أواجهه بفكـــر مختلف وأنظر إليه برؤيـــة مغايرة.. «هل يحبك ربك؟!».. ولا أعرف الإجابة القاطعة.

عندما رسبت فى مادة الجغرافيا وجاءت بطاقة الدرجات مزدانة بكعكة حمـــراء، صفعتنى أمى على وجهـــى فعرفت أننى بعيد عن

دائرة المحبة. لكنى لم أفقد الحلم ورحت أطارد السواح عند قصر رأس التين محاولا الحديث معهم بالجملة الوحيدة التى أحفظها».

– جود مورننج.

كانت ابتساماتهم لى تنعش فى قلبى الأمل بتحقيق الحلم. كثيرا ما كنت أختلى بنفسى بعيدا على الشاطئ أتفكر فى تلك المخلوقات التى تعيش وراء هذا البحر الواسع العظيم. تذكرت قول أمى إن الله أكبر بكثير من كل هذا البحر، فهو الذى خلقه وخلق معه السماوات والأرض والبشر والحيوانات والطيور والأسماك. سألتها كيف السبيل إلى محبته فعلمتنى الصلاة. فرحت كثيرا أركع وأسجد، لكنى أحببت سيدة جميلة فى عمر أمى أفسدت مخططى لتحقيق الشرط. كنت أحب قبلاتها وأنتشى لطراوة يديها وهى تربت على خدى وتعطينى الحلوى. كنت أتمنى أن تدوم صداقتها لأمى إلى الأبد حتى لا أحرم من رؤيتها والتمتع بلين حديثها وطراوة يديها.

ظل السؤال الشرطى معلقا حتى قامت ثورة يوليو وسمحوا للجمهور بارتياد حدائق القصر الملكى بالمجان. عشقت هذا المكان وداومت على الانسلاخ من الزقاق والاختفاء بين أشجاره متأملا فى لغز الحياة الغامض على عقلى البرىء. هناك كتبت أشعارا فى حب فتاة خضراء العينين تسكن على مسافة لا تبعد كثيرا عن بيتنا. كان شعرها الأشقر يقربنى من الحلم. تنقلنى بشرتها البيضاء من حارة جودة

برأس التين إلى ميادين أوربا التى يتجمع الحمام حول نافوراتها فى طمأنينة وهو يتلقى الحبوب من الناس كما أراها فى الصور والأفلام.

عدت إلى الصلاة أمارسها أحيانا وأنقطع عنها أحيانا أخرى. علمنى الرفاق شرب الخمر ومضاجعة النساء، نسيت الحلم وضاعت من ذاكرتى المعادلة الشرطية، انهمكت فى صراع الحياة اليومى حتى عاودنى الحلم يوما حين قذفت بنفسى إلى البحر وكانت أمواجه ثائرة عالية، ولما عبرت المحيطات الخمسة قلت لنفسى:

– افعل شيئا تقترب به من دائرة المحبة.

عشت عمرا آخر فى البحر، لم أرفع رأسى فوق سطحه أبدا. لم تراودنى الرغبة فى رؤية أهلى وعشيرتى. الحياة تحت الماء أكثر روعة. صحيح أن قانون الأرض سائد هنا، فالأضخم يبتلع الأصغر، لكن أحلام السعادة استقرت فى خيالى بقوة... أصحو من النوم دون أن يتبدد الخيال أو يغيب الحلم... يعد لى الخدم الإفطار.. أعاملهم أحيانا بأدب جم.. أثور فيهم أحيانا لأتفه الأسباب. أتوجه بعد ذلك إلى الحمام، بداخله أغنى كثيرا بصوت عال، بعد أن أخرج أقرأ عدة أسطر متناثرة من الجرائد اليومية، ثم ألقى بها على الأرض مبعثرة كيفما اتفق. أدير جهاز الموسيقى بصوت عال جدا، أظل أروح وأجىء بين أرجاء الغرف بملابسى الداخلية.. أتجه إلى الهاتف.. أتحدث مع المحامين فى القضايا العديدة حول أطيانى وعقاراتى ونزاعاتى مع الخصوم من الأهل والأغراب.. تزداد حدة

عصبيتى فأتصل ببعض الصديقات، لكل منهن حديث مختلف، أضحك بجنون من أى شىء. أرتدى ملابس الخروج، أطير بعربتى إلى غير هدف بسرعة شديدة، أتوقف بأى مكان يخطر فجأة ببالى. أذهب إلى أى مخلوق أتذكره بمحض الصدفة، أثير زوبعة مع بائع من أجل بضعة قروش، أمنح آخر «بقشيشا» يعادل خمسة أضعاف قيمة مشترياتى منه، أخرج بندقيتى من حقيبة العربة، أتسلى بصيد النورس ومشاهدته وهو يسقط فى البحر، مستمتعا بالفرجة على رفاق الطائر المصاب حين يحومون حول فقيدهم ويصدرون أصواتا حزينة متعاقبة فى إيقاع سريع محموم. أخلع ملابسى وأسبح عاريا فى البحر. أصب فى جوفى ما يقرب من نصف زجاجة من الويسكى وآكل بأصابعى بلا شوكة ولا سكين ولا ملعقة. عمرى أربعون عاما، أتحدث لغات ثلاث بطلاقة، أعيش فى قصر على النيل شتاء وفى قصر آخر على البحر صيفا، أشعر دائما أننى ألعب فى الوقت الضائع من مباراة عمرى، جربت الحياة فوق الأرض وتحتها فوجدتها غير ذات جدوى، لا أطيق معاشرة إنسان لفترة طويلة، لا أحب الخسارة، أبخل بإبداعاتى الفنية والأدبية على النشر بين أفراد مجتمع معجون بالظلم والجهل والقسوة والنهم المجنون إلى المال، كما أن الشهرة لا تستهوينى إطلاقا لأنها غير واردة فى دائرة اهتماماتى التى أصبح قطرها صفرا.

... وأفيق من أحلام يقظتى على واقع حياتى البسيطة التى أقبل عليها بمحبة واستمتاع، بينما وصل الحال بنديم إلى أن يقول: «إن الوسيلة الوحيدة للحصول على السلام مع خصمك هى اختفاؤه تماما من عالمك. اسحق خصمك تماما، واعلم أن كل من يسير فى طريق القوة يخلق لنفسه أعداء طوال الوقت».. إنه حتى هذه اللحظة لم يطلعنى على مكانه حتى أتكلم معه وأراجعه فيما آل إليه من تحول بغيض معاد لسلام العقل وصفاء الروح.. آه كم تمنيت لو كان هاتفى الغامض ساحرا فيحيلنى إلى يمامة!!..

• نساء مفرطات فى الواقعية:

رومانسيتى المفرطة تلازمنى منذ طفولتى، ممزوجة بقدرة غير عادية على الدهشة والتعجب، تصوراتى للناس والحياة والمواقف والأشياء تقوم كلها على هذه الرومانسية، أفكارى عن الصدق والحق والخير ثابتة لا تهتز دون أن أدرى من أين أتيت بها وأنا مازلت صبيا، أما عن حسن نيتى تجاه الناس فحدث ولا حرج، لا يمكننى بأية حال أن أشعر بسوء النية تجاه مخلوق إلا بعد أن يقع علىَّ منه أذى أو ضرر. برغم ذلك فإنه قد يستطيع بكلمتين منه أن يزيل عنى خواطر الشك والوسوسة تجاهه تماما، وكأن شيئا لم يكن.

لم يكن كامل سعيدا بسكننا فى ذلك البيت العتيق برأس التين، حبه للمظاهر أفقده تلك المشاعر الجميلة التى توحد بين الإنسان وبيته والطبيعة المحيطة بهما والبشر، فما زال ابن آدم يتكبر

برغم أنه خرج من مجرى البول مرتين. لم أكن قد تخرجت بعد فى كلية الهندسة، أما نديم فلم تمض سنوات معدودة على عمله بأكثر من شركة ومؤسسة حتى شد رحاله إلى الخليج باحثا عن تحقيق حلمه الدفين بالثراء. فى الأشهر الأولى من سفره كان يتواصل معنا ليعلمنا عن مدى توفيقه فى العمل، لم يعلمنا بنجاح مسعاه فى الحصول على فرصة عمل طيبة، كنا قلقين عليه، ازداد القلق عندما توقفت رسائله واتصالاته. لم يدلنا على عنوانه الجديد بعد تغيير مسكنه بتغيير المدينة التى كان يقيم بها. بمرور الزمن وبحكم اعتياد الإنسان على أى شىء، لم تعد تشغلنا هذه المسألة كثيرا.

لم يهدأ كامل حتى نقلنا إلى مسكن آخر بسيدى جابر لم أحبه كما أحببت بيت رأس التين، بجوار البيت كانت فيلا صغيرة تتوسط حديقتها شجرة ياسمين هندى ذات رائحة جميلة. عشقت مشاهدة زهور تلك الشجرة ذات اللون الأصفر الذى يتوسط بياضا شاهقا. كثيرا ما كنت أجمع منها باقات صغيرة حين تتساقط على أرض الحديقة. بالفيلا كانت تعيش أسرة مكونة من أفراد ثلاثة فقط. رجل قصير سمين فى حوالى الستين يدعى بهجت، وزوجته الحسناء التى لا تتجاوز الأربعين، وابنهما الوحيد أيمن، وهو صبى جميل أنيق يتعلم فى مدرسة أجنبية ويتكلم برقة شديدة وأدب جم. كنت أشعر بشىء من الغموض تجاه العلاقة العائلية بين الثلاثة دون أن أفهم السبب، غير أن الرجل وزوجته كانا دائما

يدللان وحيدهما ولا يكفان عن النداء عليه طول اليوم، فيرد عليهما بالفرنسية فى معظم الأحيان. بجوار الفيلا مباشرة كانت هناك فيلا صغيرة يسكنها قبطان بحرى شاب فى عمر أم أيمن، شرفة مسكنه تطل مباشرة على غرف فيلا بهجت. لفت نظرى أكثر من مرة أن القبطان يتبادل مع أم أيمن أحاديث خاطفة حين يكون زوجها فى عمله وابنها فى مدرسته. يسافر لعدة أشهر ويعود فى إجازات طويلة يمضى معظمها فى الصيد أو الجلوس على مقهى سيدى جابر مع شلة من الأصدقاء. لم يصدف أن رأيته مرة يتحدث مع بهجت. فهمت من حوار دار بين القبطان وأم أيمن أن هناك خلافا حادا بين الرجلين حول بيع أو شراء عقار معين.

صباح يوم غائم كنت متوجها من منزلنا إلى محطة ترام سيدى جابر، كانت خطواتى مسرعة خشية سقوط المطر، فوجئت بزحام أمام مقهى سيدى جابر المواجه للمحطة. اقتحمت الزحام لأفاجأ بمشهد أصابنى بالرعب، القبطان يصفع بهجت بعنف على وجهه يمينا ويسارا فى تعاقب مستمر ودون توقف، يترنح بهجت على الجانبين دون أن يبدى أية مقاومة. سقط قلبى بين ضلوعى من شدة الجزع فعدت إلى البيت راكضا وكأننى فى سباق للجرى، وصلت إلى فيلا بهجت وأنا ألهث وضربات قلبى تكاد تصدر صوتا خارج حدود جسدى. وجدت أم أيمن واقفة فى الحديقة، صرخت فيها بأعلى صوت:

– الحقى.. .. القبطان.. ..

التقطت أنفاسى حتى أستطيع استكمال الإنذار:

– القبطان يضرب الأستاذ بهجت فى المقهى.

توقعت أن تضرب بيدها على صدرها من شدة الفزع وأن تفعل أى شىء لحماية زوجها والدفاع عنه.. أى شىء، كأن تتصل تليفونيا بأحد أقاربها أو أقارب زوجها لنجدته، كحد أدنى لرد الفعل الطبيعى من زوجة تجاه زوجها فى مثل تلك الحالة..

كانت صدمتى عنيفة وخيبة أملى عظمى ودهشتى صارخة حين رأيتها تستمع إلى بلا مبالاة تامة ودون تعليق، كما لو كانت سعيدة بما سمعت. طعنت رومانسيتى فى مقتل وهى تقول ببرود شديد:

– متشكرة.

ثم تركتنى غارقا فى ذهولى وعرقى وأنفاسى اللاهثة ودخلت إلى الفيلا.

تعلمت للمرة الأولى أنه ليس بالضرورة أن تكون الزوجة سكنا لزوجها، وليس بالضرورة أن تحبه وتخاف عليه وتتأذى لأذاه. بالتالى فمن الممكن أن تعيش زوجة مع زوجها وهى تضمر له العداء والكراهية بينما تنام معه على فراش واحد!!. جميلة هى الحياة، ولكن كم هى مرهقة لمن منحه الله نعمة الإحساس ونقمته. تركت هذه الواقعة أثرا مؤلما فى حياتى وبقى جرحها غائرا فى الوجدان، حتى التقيت يوما بالسيدة «فلورا» زوجة صديقى حمدى عبد الغنى بمحض مصادفة فى نادى سموحة مساء يوم من أيام شهر رمضان. لم أكن قد رأيت حمدى منذ حوالى عامين. كنت قد آثرت الابتعاد

عنــه لفــترة طويلة تجنبا لانتقال مشــاكله العديدة مع النســاء إلى حياتى الخاصــة، حين أصبحت صداقته مصــدر خطر على حياتى الاجتماعية والمهنية.

لقد فوجئت يوما بموظف الأمن ببوابة الشركة التى أعمل بها، يتصل بى تليفونيا ليبلغنى أن هناك سيدة تحمل طفلا رضيعا تطلب مقابلتى، اعتقد الموظف أنها زوجتى فأنكرت له ذلك قبل أن أعرف مــن تكون هذه الســيدة. الخبيثة لم تخبره من تكون لتســهل على نفســها لقائى، طلبت محادثتها تليفونيا قبل أن أسمح لها بالقدوم إلى مكتبــى. عندما أخبرتنى أنهــا إحدى زوجات حمدى طلبت من الموظف أن يبقيها لديه حتى أحضر بنفســى إليها، متعمدا علانية اللقاء درءا للشائعات.

قالــت إنها غادرت الشــقة الجديدة التى اســتأجرها لها عقب خلاف نشب بينهما، وأنها تريد الصلح والعودة إلى بيتها. نجحت فى تدبير خطة للإفلات منها ومن رجلها المزواج إلى الأبد. أعطيتها بعــض المال وطلبــت منها التوجه إلى بيت صديق مشــترك وأبلغت حمدى بمكانها.

زوجتــه الأولى كانت فلورا ابنة يونانــى صاحب محل لصناعة الأحذية يدويا، كان يعمل مســاعدا له، ولما مات استولى على الدكان وعلــى ابنته أيضا. مع الوقت برع فى مهنته وأثرى منها. كان كبار رجال الإسكندرية يفصلون عنده أحذيتهم ويدفعون المئات ثمنا لها فى الســتينيات. صداقاتــه بكبار رجال الأمــن والمحافظة توطدت

بقــوة نظير إهدائــه إياهم الأحذية مجانا، فصــار صاحب نفوذ فى المدينة وله كلمة مسموعة فى كل مكان. بإمكانه دائما الحصول على كميات وفيرة مجانية من الحشــيش، وأن يمضى سهراته فى أفخم فنادق وكباريهات ومطاعم الإسكندرية حيث يلقى الترحيب الحار والاحترام الشــديد. توالت زيجاته وتكاثــر عدد أبنائه منهن. كان ينفق عليهن جميعا بســخاء ليمتص غضــب كل من تثور عليه لأنه تــزوج عليها. فى النهاية ارتبك عمله وكثرت ديونه وانهالت عليه القضايــا من كل جانب حتى انتهى بــه المطاف إلى زوجته الجريئة التى اقتحمت مقر عملى لأحل لها مشكلتها معه.

هجم الدائنون على شــقته التى اســتأجرها مؤخرا فى ضاحية بعيــدة هربا منهم، لكنهم تمكنوا من الوصول إليه. هددوه بكســر البــاب واقتحام الشــقة إن لم يفتح لهم ويســدد ما عليــه من دين. نصحته زوجته بالهرب عن طريق المنور والنزول منزلقا على إحدى مواسير المياه. كان حمدى عملاقا ضخم الجثة، استجاب لنصيحتها فسقط من الدور الثامن إلى حوش المنزل.

لم أعلــم بما حدث حتى التقيت بفلورا فى النادى، كانت فلورا تروى لى مأســاة زوجهــا وهى تدخن ســيجارة وتشــرب القهوة، وكأنها تحكى عن شخص لم تشــاركه فراشه وتنجب منه الأولاد، بل لا تعرفه على الإطلاق، أو كأنها كانت تحكى لى فيلما شــاهدته أو قصة قرأتها واستمتعت بأحداثها المثيرة. كان واضحا أنها راضية تماما عن النهاية التى اختتمت بها حياة زوجها حيث تلقى الجزاء

العــادل عن تبديد ثروته على النســاء، بعــد أن وضعت لها حجر الأســاس حين تنازلت له برضاها عن محل أبيها الذى ورثته عنه.. لم تــذرف عليه دمعة وهى تروى تلــك التفاصيل الدامية. لم تنطق بلفظ يوحى بالحزن أو الأسف على رفيق حياتها.

... أمضيــت عمرى كله غارقا فى بحور الدهشــة!!.. وما زلت قادرا على الدهشة حتى اليوم.

* * *

obeikan.com

الفصل الثامن

عندما ينتصر عليك خصمك فى جولة، انسحب بلا مناقشة. لا تظل واقفا مكانك بانتظار الجولة التالية التى قد تربحها أو يربحها هو، فما جعلك تحتمل الهزيمة الأولى قد لا يجعلك تحتمل الهزيمة التالية. استسلم فقط حتى تتمكن من تحويل الضعف إلى قوة ثم تعاود الهجوم. لاحظ أن الاستسلام يكون أفضل دائما من الهروب، لأن الهروب فى نهاية الأمر مجرد حل وقتى يدفع خصمك إلى ملاحقتك بمزيد من الشراسة، وغالبا ما يصل إليك فى النهاية، ولحظتها تكون نهايتك حقا. أما الاستسلام فيعطى الانطباع بأنه لا خطر منك، بل ربما يسمح لك بالمزيد من الاقتراب من خصمك كى تكتشف فى النهاية أكثر الوسائل فاعلية فى تدميره.

لا تشتت مجهودك فى كسب ثقة الكثير من الناس، وركز كل طاقاتك ومهاراتك وبراعتك على الرئيس وحده، أو على صاحب القوة الفعلية فى مكان الصراع. من المهم أيضا أن تركز قوتك أمام أعدائك. نابليون كان أكثر من استطاع فهم هذه الاستراتيجية. كان يركز قوته دائما على أهم نقاط ضعف عدوه فى ميدان المعركة، وهو ما كان يجعله يربح فى معظم معاركه.

إن الباحث عن القوة ممثلة فى السلطة والثروة، لابد أن يتحكم فى الصورة التى يراه الناس بها، ولا يدع أحدا ينحت هذه الصورة على هواه. ينبغى عليه تجديد صورته باستمرار بحيث يجيد التمويه على ما يبطنه ويخفيه. إنه لايوجد قائد واحد ناجح فى التاريخ سبق له أن أظهر مشاعره الحقيقية أمام الناس. إن السياسى الداهية هو الذى يجيد صياغة انفعالاته فى لغة يفهمها الناس ويستطيع أن ينتزع بها الإعجاب والتعاطف معه أو الخوف منه كما يريد. إنه يستطيع أن يكون قديسا وسط القديسين ورجلا عاديا بين العامة، أى أنه يجيد التمثيل كفنان محترف بحيث يجذب انتباه الناس لأطول فترة ممكنة. إن اللحظة التى يفقد فيها هذا الانتباه هى نفس اللحظة التى سيقفز فيها شخص آخر إلى الساحة ليقدم عرضا أكثر قوة من عرضه ويربح بذلك كل شىء.

تريد القوة. إذن ابتعد عن الشبهات واظهر أمام الناس كمثال للطهر والنقاء والشرف. صاحب السلطة الناجح هو من لا يستطيع أحد أن يمسك عليه أية تهمة.

حافظ على مظهرك المحترم بإلصاق تهمك بالآخرين أحيانا أو بتقديم كبش فداء للناس وقت اللزوم. إن استخدام ذلك الكبش أمر قديم قدم الإنسانية نفسها، ويعتمد على تحويل انتباه الناس إلى شىء أو شخص يتحمل الذنب كله، ثم القضاء عليه وتدميره

لامتصاص الغضب العام. حتى الثقافات البدائية كانت تقدم القرابين البشرية للآلهة لنفس الهدف.

فى قلب هـذا المجتمع المطلى بدهان التحضر والمدنية هجم على بعض السـود المشـردين وكان معظمهم عمالقة طولاً عراضا بشـكل ملفت. لم تكن معى عربتى ولا سائقى الخاص. كنت وحيدا. شعرت برغبـة فى التسـرية عن ذهنى بالمشـى فى شـوارع العاصمة قرب الفجـر والحديث إلى نفسـى. كان النوم قد اسـتعصى على أكثر من أى يـوم آخر وقد اعتدت الأرق فلم أعرف طعما للنوم الطبيعى بغير عقاقير مهدئة. انقضوا على بوحشية منتزعين ساعة يدى الذهبية. طلبوا حافظـة نقودى التى لم تكن بها نقـود تذكر، فمعظم ما بها بطاقات ائتمـان بنكية. كان من الممكـن أن يقودونى إلى ماكينة من ماكينات الصرف الآلى ليستولوا على أموالى. فوجئوا بأفراد حراستى الخاصـة – الذين كانوا يتبعوننى عن بعد دون أن أدرى – يهجمون عليهم شـاهرين أسـلحتهم فى وجوههم فولوا الأدبار على الفور. أنا واثق أننى لو مشيت فى منتصف الليل أو قرب الفجر فى حوارى الأنفوشى والسـيالة لما شعرت بخوف أو قلق برغم الانهيار الأمنى الذى تعرضت له مصر مؤخرا. مصر شىء وأمريكا شىء آخر.. إننى أبكـى الآن على حالى، فأنا عاجز حتـى عن اتخاذ قرار بالعودة إلى أرضى الطيبة واسـتثمار أمـوالى بها.. لقد صرت شـيئا كريها فى هذه الحياة العدمية الغامضة.

• اللصوص الثلاثة:

دائما ما أجد متعة فائقة فى التصدى للشر والفساد بأى مكان حتى لو لم يصبنى رذاذهما مباشرة.. كان المصنع الذى أعمل به مجالا خصبا لممارسة الفساد فى كل صوره الممكنة. أتاح لى عباس الشيمى مدير المصنع فرصة هائلة للعمل بدأب وإخلاص فى محاربته بشتى الطرق، فقد كان لصا خطيرا يأكل مال النبى إلى جانب مال المصنع، ويرتشى من الموردين والمستوردين لمدخلات المصنع ومخرجاته. الغريب أنه لم يكن يجلس إلى مكتبه إلا فى القليل النادر، وإنما كان يمضى معظم يومه بين الماكينات يعمل بجد وحماس كما يفعل الشرفاء حتى ليصعب على أحد أن يشك فى حقيقته.

كان مدير المخازن صديقا حميما لى، كثيرا ما كنت أزوره فى مكتبه لأتعرف إلى نماذج نادرة من البشر الذين يتعاملون معه، من تجار ومقاولين. كثيرا ما سهرنا معا فى غيط العنب بصحبة الريس عبد الإله شيخ الخفراء ذى الرأس الضخمة والعين الزجاجية والجسد العملاق، والذى ستكون لى معه قصة شيقة. توطدت صداقتى كثيرا مع بعض هؤلاء التجار. أتحفونى بأدق أسرار الشركة وبتفاصيل الرشاوى والعمولات التى يتقاضاها منهم عباس الشيمى. كالمعتاد لم أصدق فى البداية حين استولت علىّ دهشتى الرومانسية العبيطة، حتى أكد لى أحد هؤلاء التجار أنه هو الذى يقوم بجمع الرشوة الشهرية التى يقدمها تجار دشت الورق للشيمى ويسلمها

له بنفسه. مع ذلك ظللت متشككا فى صحة ما سمعت حتى فوجئت يوما بعباس الشيمى يدخل إلى مكتبى. كان محمد يوسف مساعدى الأول يجلس عندى. هو موظف فنى تجمعنى به عشرة طويلة ومحبة وتقدير. يتميز بأداء جيد فى العمل ورجولة فائقة تبدت لى فى مواقف عديدة له، كانت تصب فى مساندتى بالقول والفعل ضد أساطين الانحراف والفساد بالشركة. جرأته فائقة ولسانه سليط، كما أنه يتميز بقدرة عالية على جمع البيانات والأرقام والمعلومات عن الشركة بتفاصيلها الدقيقة وأسرارها الدفينة. ما إن دخل عباس حتى انتفض يوسف واقفا فى احترام مبالغ فيه، يتناقض مع احتقاره الشديد له، والذى يعبر لى عنه فى كل لحظة، إذ كان على علم تام بكل ما يتقاضاه من رشاوٍ وعمولات، وقد جمع هذه المعلومات من أصدقائه الذين يعملون فى أقسام المصنع المختلفة ويمدونه بها.

بعد مصافحته بانحناءة تمثيلية انصرف يوسف من المكتب، حين قال لى عباس فى لهجة تحمل كثيرا من التودد القريب إلى النفاق:

– محمد يوسف ولد ممتاز.

– فعلا يا فندم وأنا أعتمد عليه دائما فى المهام الصعبة.

عباس يده مغلولة بشدة تجاه العمال والموظفين. فى كل شهر يختصر ميزانية العمل الإضافى إلى النصف وأحيانا يلغيها تماما بحجة خفض التكلفة. واصل عباس زيفه:

– لماذا لا تصرف له أجرا إضافيا شهريا؟

– سأفعل إن شاء الله.

بعد انصرافه عبرت ليوسف عن دهشتى الشديدة لهذا الرضا السامى المشكوك فى أمره. ضحك ضحكة خبيثة موحية. ضغطت عليه حتى اعترف لى بصدام عنيف وقع بينهما بسبب اضطهاده لواحد من الموردين الشرفاء الذين لا يرشونه. انتهى الصدام باتهام يوسف له صراحة ووجها لوجه بأنه لص ومرتشٍ، وبتهديده أنه سيفضحه لو لم ينصف هذا المورد ويعطيه حقه المشروع.. أصبحت على يقين من صدق كل الشائعات التى تدين عباس الشيمى وتشينه. كنت فى ذلك الوقت أكتب رواية اسمها «العائد»، تحكى قصة بطل من أبطال حرب أكتوبر وقد عاد إلى عمله بالمصنع بعد أن ساهم بشجاعة فى تحطيم خط بارليف. لكنه اكتشف وجود خط بارليف آخر من الفساد أكثر قوة وثباتا، يجثم على صدر المصنع والعاملين به من عمال وموظفين، أغلبهم دون مستوى الوعى الكافى بحقيقة ملكيتهم لمصنعهم الذى ينتمى إلى القطاع العام.

يتصدى البطل بمفرده لعميد الفساد بالمصنع بعد أن عجز عن تكوين جبهة جماعية تسانده فى محاولته المخلصة لهدم خط بارليف الثان. لذلك يفشل فى مسعاه الفردى ويصاب بانهيار عصبى.

لم أجد اسما أفضل من عباس الشيمى كى أعطيه لعميد الفساد بالرواية. بعد صدور الرواية عن إحدى دور النشر التابعة لوزارة الثقافة، اخترت شابا أهوج شديد التهور يعمل بمكتب

الرسم الهندسى، ويكره الشيمى حتى الموت؛ إذ ظلمه فى الترقية ووقع عليه أكثر من جزاء بدافع من الهوى وليس عن وجه حق.

وضعت الكتاب أمام عبد المنعم وحكيت له ملخص الرواية. كان فرحا جدا لاختيارى اسم الشيمى لشخصية المدير اللص. عبرت له عن رغبتى الشديدة فى أن تقع هذه الرواية فى يد عباس الشيمى بأية وسيلة. قال بفرحة:

– أنا أعرف بيته.

– وكيف ستوصلها إليه؟

– سأسلمها لخادمته بينما يكون هو بالمصنع.

– متى؟

– باكر إن شاء الله، فهو يوم راحتى الأسبوعية.

ضغط عبد المنعم على جرس الباب. عندما فتح الباب فوجئ – على غير توقع – بعباس الشيمى أمامه وجها لوجه. الملعون لم يذهب اليوم إلى المصنع. ارتبك عبد المنعم لشدة المفاجأة فألقى الكتاب بسرعة فى وجه عباس وأسرع هابطا درجات السلم كمن يطارده عفريت.

انفجرت فى الضحك وهو يروى لى ما حدث. كان عباس داهية فلم يفتح فمه بكلمة معى أو مع غيرى حول الكتاب ومحتواه حتى لا تنتشر فضائحه بالشركة ويبحث الجميع عن الكتاب.

نجح عباس فى مخططه، فلم يعلم العمال والموظفون بأمر الرواية. المقربون منى فقط هم الذين اطلعوا على فضيحته الموثقة. لكن نجاحه

لم يدم طويلا، فلم تلبث أنباء الرواية أن تسربت وأصبحت نسخ الرواية فى أيدى الكثيرين. تجرأ الصغير قبل الكبير على إهانته وسبه والتطاول عليه كلما حاول أن ينزل إلى المصنع. صار حبيس غرفة مكتبه وبرغم ذلك لم يسلم من السخرية والتهديد. فى النهاية لم يجد بدا من مغادرة المصنع إلى شركة أخرى.. ذهب اللص إلى غير رجعة لكن للأسف حل محله لص آخر يدعى توفيق.

تحولت هوايتى لمحاربة الفساد والمفسدين إلى إدمان لا مفر منه. سرعان ما اشتعلت الحرب بينى وبين توفيق الذى تفوق على عباس فى لصوصيته بالمزيد من الفجر والجرأة والوقاحة، وكأنه لا يعنيه فى شىء أن يعلم الجميع أنه لص ومرتش، وعلى المعترض أن يفعل ما يشاء.

كانت الإذاعة قد طلبت منى مسلسلا دراميا فى ذلك الوقت، فخطر ببالى أن أضرب عصفورين بحجر واحد. أكتب المسلسل وأفضح توفيق مثلما فضحت عباس. أسميت اللص بطل المسلسل «توفيق عباس»، حتى يجمع العمل سوءات اللصين معا. كانت الخادمة التى تعمل ببيت توفيق زوجة لأحد العمال المقربين منى. هى توافى زوجها بتقرير يومى منطوق عن لقاءات توفيق بالعملاء الذين يرشونه داخل بيته. ثم ينقل لى زوجها بدوره التقرير بحذافيره. كان من أغرب ما سمعته فى هذا الشأن أن زوجة توفيق كانت تشاطر زوجها مجالسة الراشين، وأحيانا تطلب لنفسها نصيبا من الرشوة برغم أنها لا علاقة لها بشركتنا على الإطلاق.

ما إن بدأ المسلسل يذاع حتى انتشر الخبر فى المصنع وإدارة الشركة بين جميع العاملين. انهالت المكالمات التليفونية المجهولة على منزل توفيق يسخرون منه ويسبونه، كما أبلغ بعضهم زوجته أن توفيق قد تزوج عليها من امرأة تسكن فى العجمى كما جاء بالمسلسل. كنت عضوا منتخبا بمجلس إدارة الشركة فى ذلك الوقت، وكان توفيق عضوا معينا بالمجلس بحكم منصبه. كان يتحاشى مواجهتى أمام أعضاء المجلس عاجزا عن تجاهل نظراتهم الساخرة وتعليقاتهم الموحية بالشماتة فيما يحدث له من جراء هذا المسلسل الفاضح. مما زاد الطينة بلة أن صدقت زوجته مسألة زواجه عليها. توجهت من فورها إلى مدير الإذاعة لتستفسر منه عن اسم وعنوان تلك الزوجة. عبثا حاول المدير إفهامها أن هناك فرقا بين الواقع وخيال الكاتب، وأن هذه القصة لا أساس لها – فى الحقيقة – من الصحة. بعد تلك الواقعة كان مدير الإذاعة لا يسمح بإذاعة أى عمل درامى لى قبل أن أوقع أمامه تعهدا كتابيا بأن الأسماء الواردة بالعمل ليست حقيقية، وأن الإذاعة غير مسئولة عن أى إشكال قد يقع نتيجة لتشابه الأسماء.

هددنى توفيق بتدمير مستقبلى جزاء لما فعلته به، وأبلغنى أنه سيرفع ضدى قضية يتهمنى فيها بتشويه سمعته بالباطل. اتصلت بصديقى رئيس مباحث أمن الدولة وحذرته من أن يدعى توفيق أمامه كذبا أنه قريب للمحافظ فوزى معاذ. فى الوقت ذاته أبلغت حبيبى الريس عبد الإله أننى مهدد من قبل هذا اللص،

كما اتصلت بثروت أباظة رئيس اتحاد الكتاب أبلغه بالقضية فسمح لى أن انتدب محاميا أختاره للدفاع عنى على أن يسدد الاتحاد نفقات القضية كاملة.

استدعى رئيس المباحث توفيق وعنفه ووجه له إنذارا قاطعا بعدم الاقتراب منى بأى شكل وفى أى مكان. أما الريس عبد الإله فقد اقتحم مكتبه بهدوء شديد وأخرج من جيبه مسدسه المرخص – كرئيس للخفراء – ووضعه أمامه على المكتب منذرا إياه بلهجة صعيدية حازمة:

– لو قربت من سعيد سأقتلك بهذه الطبنجة.

كانت نهاية توفيق أكثر مأساوية من نهاية عباس، إذ كان على خلاف شخصى شديد مع المدير الإدارى للشركة، حين استدعت ظروفه التغيب عن الشركة أكثر من واحد وعشرين يوما بدون إذن، فانتهز المدير الإدارى الفرصة وقام بفصله على الفور تطبيقا للائحة. حاول توفيق أن يضغط على رئيس الشركة من خلال وساطات عديدة، لكن رئيس الشركة وجد فى هذا الإجراء القانونى العنيف فرصة لا تعوض للخلاص من هذا الكابوس التوفيقى، فلم يستجب لأى وساطة على الإطلاق.

أما اللص الثالث الذى تولى إدارة المصنع بعد توفيق فكان المهندس سليم علام. تقرب إلىّ بشدة وجعل منى صديقا له داخل الشركة وخارجها. كان يصحبنى معه فى مغامراته الخارجية مع الأجانب

الذيــن يتعاملون مع الشــركة، وأحيانا عند لقــاء بعض صديقاته، وكثيرا ما دعانى لتناول الطعام والشــراب بالعديد من المطاعم المطلة علــى البحــر. لاحظت أنه فــى كل مرة يوقع علــى فاتورة يخفيها بســرعة فى جيبــه. فهمت فيما بعد أن مصنع الإســكندرية للورق هو الــذى يدفع الفواتير. ومصنع الإســكندرية هو المنافس الخطير لإنتاج مصنعنا ويمتلكه عصامى صعيدى يعمل سليم مستشارا عنده. بذل ما بوسعه لتسهيل إجراءات سفرى إلى السويد فى بعثة علمية اختارنــى فيهــا من بين العديد من المتنافســين. فســاد هذا الرجل يختلف عن فســاد عباس وتوفيق. ما إن أصبحــت ملما بوقائع هذا الفساد حتى بدأت الخلافات تدب بيننا لكن دون مواجهة صريحة. الحــق أننى أجلت المواجهة حتى لا يتســبب الصدام بيننا فى وضع العراقيــل أمام البعثة وربما إلغائهــا، لذلك أجلت المواجهة لما بعد العودة.

الذى حدث أننى لم أســتطع أن أصبر لمدة أربعة أشهر هى فترة بقائى بالسويد، فبعثت إليه بالخطاب الآتى:

«ستوكهولم فى-/-/١٩٨٠»

السيد المحترم مدير عام الشركة.. تحية طيبة وبعد،،،

«أعلم جيدا أن خطابى هذا لن يسعدك، وحرصا منى على مراعاة مركزك الرئاســى فقد كتبت على المظــروف من الخارج ألا يفتح إلا بمعرفتك. دعنى أصارحك بأننى لم أبتلع الطعم الجميل الذى وضعته

لى فى صنارة البعثة، بل يمكنك القول إننى ابتلعت الطعم والصنارة معـا، وإن معدتى قد تولت هضمهما تماما. معنى هذا أن خلافنا قد بدأ ولن ينتهى ما دمت مصرا على أن تعمل لحساب الشركة المنافسة لشركتنا وتستغل وقت الشركة وإمكانياتها فى خدمة هذا الغرض، وتستقبل العملاء فتحيلهم من شركتنا إلى الشركة المنافسة وتتقاضى راتبـا كبيرا من الشـركتين.. وأنت تعلم يا سـيدى المدير أن قانون العمـل بالقطاع العام يعاقب من هم مثلـك بالفصل والمحاكمة. على الرغم من ذلك فإنك تسـتخف بعقول العاملين البسـطاء، وتستغل فقرهـم واحتياجهم، فتلحقهـم بأعمال مرهقة بالشـركة الخاصة لقاء أجور زهيدة يفرحون بها، فتضمن بذلك ولاءهم لك وتسـتبعد وشايتهم بك للسلطات.

اعلم يا عزيزى المدير العام أننى أرسـلت بمعرفتى واحدا منهم ليلتقط لـك صورة فوتوغرافيـة وأنت تنزل من عربتك المرسـيدس وتدخل الشـركة الخاصة المنافسـة من بابها الرئيسـى خلال وقت عملك الرسمى بشـركتنا، واعلم ياسـيدى أن منهم من يطلعنى يوما بيوم على تفاصيـل خيانتك الوظيفية التى تمارسـها لصالح جيبك أولا وأخيرا.. إنى لا أنسـى سخريتك الدائمة من النظام الاشتراكى الفوضوى الذى يحكمنا، والذى تسـتفيد من سلبياته حتى النخاع. إنى أرفضه لكنـى لا أخونه باعتباره مصدر رزقى الوحيد، بل إنى أنشـد التغيير وأسـعى إلى الإصلاح من موقعى المتواضع. فإذا كنت

صادقا بحق مع نفسك فقدم استقالتك على الفور، وإلا فهذا هو إنذارى الأول والأخير لك، والذى سوف أتقدم من بعده ببلاغ إلى النائب العام. أما عن الترقيات الوظيفية التى تزمع القيام بها - والتى أتتنى تفاصيلها كاملة - فإنى أحذرك أن تتخطانى إلى من هو أقل منى كفاءة وخبرة وأقدمية، لأننى سأدافع عن حقى حتى الموت.

سيدى المدير العام/

لا أستطيع أن أنكر أننى فكرت قبل كتابة هذه الرسالة إليك أن أؤجلها حتى تنتهى الترقيات وآخذ حظى منها. كما فكرت أن أبعث إليك بخطاب شكر على ترشيحك لى لهذه البعثة الرائعة، وأن أرفق بها كارت بوستال جميل لإحدى مدن السويد المبهرة .. لكنى تذكرت مقولة العقاد: «كن شريفا أمينا، لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة، بل لأنك أنت لا تستحق الضعة والخيانة» فقررت أن أسارع بإرسال خطابى هذا إليك.

ملاحظة:

دعنى أعترف بذكائك البوليسى وحسك الأمنى المرهف، فالخادمة التى طردتها من منزلك بلا سبب، على الرغم من تمسك زوجتك بها، كانت مصدر معلوماتى عما يتم فى منزلك من لقاءات

واتفاقيات غير مشروعة. زوجها عامل بسيط يدين لى بالولاء والمحبة. تحكى له فيحكى لى بدوره، حتى كونت عنك ملفا كاملا – وهذا ماحدث بعينه مع سلفك توفيق وإن اختلفت الخادمة – ولك الآن يا سيدى أن تختار بكل حرية ما بين تقديم الملف للنيابة الإدارية أو استقالتك من إحدى الشركتين.

ما إن عدت من البعثة حتى أدمجت شركتنا فى شركة كبرى، وتغيرت إدارة المصانع بالكامل. لم يجد سليم علام مكانا لنفسه فى الإدارة الجديدة وقد شاع نبأ عمله بالشركة المنافسة. بدأ فى إثارة المشاكل مع الإدارة، فجمدوا نشاطه حيث كلفوه بوظيفة إدارية تافهة تعد بمثابة عزل تام له عن العمل الحقيقى بالشركة. توقعت أن يستقيل حرصا على كرامته وحفاظا على ماء وجهه، لكنه رضى لنفسه بالمذلة والإهانة وبقى فى موضعه مثارا لتندر الجميع وسخريتهم، وما هذه الدنيا إلا سلام الراكب على الماشى وسلام الماشى على القاعد.

• النداء:

ظللت شطرا كبيرا من العمر لا أفكر فى تأدية فريضة الحج. لم أكن أشعر بأى رغبة فى تأديتها برغم أن إمكانياتى المادية قد بدأت فى التحسن فى السنوات الأخيرة من خدمتى بالشركة، فضلا عن توفر بعض الأموال التى تقاضيتها من المسلسلات والروايات

والقصص. كلما سألنى أحد عن سبب عزوفى عن تأدية هذه الفريضة أجبته بصدق إننى لا أشعر بالرغبة فى ذلك دون أن أعرف السبب، أو بمعنى أدق: دون أن يكون هناك سبب واضح فى ذهنى أو وجدانى. قال لى قائل إن السبب الحقيقى فى ذلك هو أن وقت ندائى للحج لم يحن بعد، لأنه ما من مسلم يتحمس للحج قبل أن يأتيه النداء من الرسول عليه الصلاة والسلام. برغم ذلك فقد كرست كل طاقاتى المتاحة لتحقيق رغبة زوجتى جميلة فى الحج وكان سياحيا فاخرا برفقة صديقة عمرها فادية. عندما عادت من الأراضى الحجازية ووجهها مشرق بنور جميل، راحت تلح على أن أسارع بالحج قبل أن تحول ظروفى الصحية دون ذلك مع تقدم العمر، فضلا عن الزيادة الملحوظة عاما بعد عام فى تكلفة السفر والإقامة بفنادق السعودية وأداء المراسم المعروفة. قررت أن أبدأ التجربة بعمرة كخطوة تمهيدية للحج بعد ذلك. اتصلت بنفس الشركة السياحية التى سافرت من خلالها جميلة، وطلبت طلبا محددا ألا يكون التوقيت صيفا لأنى لن أحتمل شدة الحرارة هناك. تبين لى أن آخر عمرة هى عمرة رمضان. لم يكن الوقت كافيا ولا مفر من الانتظار حتى بداية العام التالى. قال لى الموظف المسئول:

– هناك بديل واحد أمامك، تضمن فيه الزيارة فى الشتاء.

– ما هو؟

– أن تحج فى ديسمبر القادم.

تفجر السؤال المفاجئ فى رأسى:

– ولماذا لا أحج فى ديسمبر؟!!

تكلفة حج جميلة بلغت خمسة وعشرين ألفا من الجنيهات. وجدت نفسى مندفعا إلى الشركة السياحية. شعرت أن هناك مغناطيسا قويا يشدنى بإصرار إلى الأراضى الحجازية. طلبوا منى ثلاثين ألفا. استكثرت المبلغ. قالت لى جميلة:

– كلما تأخرت زادت التكلفة. الحق نفسك أحسن لك وتوكل على الله.

فوجئت بأموال تتدفق على من جهات عديدة كان آخرها بمناسبة توقيع عقد مع المخرجة إيناس الدغيدى لتحويل روايتى «كف مريم» إلى فيلم سينمائى... إذن فقد جاءنى النداء!.. وسافرت.

فى الروضة استولت على رغبة قلبية أن أصلى هناك. شعرت بسعادة فائقة عندما علمت أننا سنزور النبى قبل التوجه إلى بيت الله. ذلك أن رهبتى من البيت الحرام كانت طاغية كزلزال عتى يكاد يعصف بكيانى، إذ لا أستطيع تصور قدرتى على الوقوف أمامه دون تمهيد قوى مسبق. وكيف أتجرأ على هيبة المحبوب من قبل أن أزيل أدران الوحشة من قلبى وروحى بالتطهر فى نهر محبة الرسول وأنس روضته وجنتها، وأنا الذى يعرف أن الدخول من باب الطاعة أصعب من الدخول من باب الذل، فالباب الأول مزدحم بالخلق.

يـكاد الزحام يتحـول إلى قتال للولوج من مدخـل الروضة. مدة زيارة المدينة أربعة أيام. فشـلت لثلاثة أيام على التوالى محاولاتى المستميتة للدخول. عقب المحاولة الأخيرة فى اليوم الثالث أصابنى حزن شـديد وغم أشد، فلم أدر بنفسـى وأنا أخرج من باب مخالف للباب الذى اعتدت الخروج منه، والذى يقودنى فى يسر إلى الفندق. أمضيت ما يقرب من سـاعات ثلاث تائهـا ضائعا فى خضم الملايين من البشـر الهائمين فى رحمته،حتى أدمى النعل قدمى الغارقتين فـى العرق لطول الاحتكاك.. لم يكن معى مـا يدل على رقم هاتف الفندق أو اسـم الشارع الكائن به. كل ما أعرفه هو اسمه فقط. سألت عنـه فى كل مكان فلم أهتد إليه. طاف بى سـائق عربة أجرة حول معظم الشـوارع المحيطة بالمنطقة ولم أتوصل إليه. أخيرا ذهب بى السـائق إلى مركز خدمة التائهين رافضا أن يتقاضى منى أجرا وقال لى قبل أن أنزل:

– الله يعينك أخى.

كان جل تفكيرى منصبا على حضرة النبى، وقد أوشكت أن أؤمن بأنـه يرفض زيارتى له، فهو من دون شـك غاضـب منى وأنا الذى لم أسـتخدم الدنيا لتخدمنى بل خدمتها فاستخدمتنى. اصطحبنى مرافـق إلى الفندق حيث قضيت ليلتى بين الحزن والخوف والرجاء والأمـل. لم يبق أمامـى إلا اليوم الرابع والأخـير.. لقد أمضيت ما

يقرب من ستة أشهر أعد نفسى خلالها لهذا اللقاء النفيس بكل ما أوتيت من قدرة على الاطلاع والمثابرة، حفظت فيها طقوس الحج وتفاصيلها. أما أعظم الوقت فكان لدراسة شخصية الرسول وسيرته وأفعاله وأقواله ومواقفه، حتى أصبحت مجنونا بالرغبة فى مشاهدة قبره.. لكن آه من هؤلاء الحراس الغلاظ الأشداء الذين يسيطرون على النظام بشدة لا تخلو من عنف، فلا يسمحون لى بالدخول، ويحرموننى من نفحات الحب التى أهفو إليها، وينفطر قلبى اشتياقا لأوصافها الروحية. لست أدرى لماذا انتقيت من هؤلاء الحراس أشدهم جفوة وأكثرهم غلظة. توسلت إليه أن يسمح لى بالدخول مؤكدا على أننى لن أمكث طويلا كما يفعل البعض، وإنما سأترك الفرصة لغيرى بأن أصلى وأخرج مباشرة. قال لى برقة مذهلة وكأنه على علم بما يموج فى قلبى:

– ابق هنا فى مكانك.. ستدخل إن شاء الله.

فتح الطريق لخروج دفعة من المصلين. فتح الحارس فرجة ضيقة لدخول دفعة بديلة. كنت أردد مرة وراء مرة فى تذلل ولوعة:

– اللهم صل على سيدنا محمد.. ضاقت حيلتى أدركنى يا رسول الله.

وإذا بى فى كسر من الثانية أجدنى أعوم أو أطير– لست أدرى كيف – فوق هذه المجموعات المتلاحمة المتدافعة من الأكتاف البشرية، حتى رأيت نفسى مقذوفا من بينهم داخل أرجاء الحلم فى قلب الروضة. أصابتنى رعدة قوية ورعشة عتية وهزة لا قبل لى

بها. انفصلت عن جسدى تماما، وانهمرت فى بكاء لم أعرفه فى حياتى من قبل.

• **طعم الحياة:**

ظللت من عشاق البيرة حتى زرت بيت الله الحرام وأصبح البعض ينادوننى بلقب الحاج سعيد، فامتنعت عنها مضطرا برغم أن حنينى إليها لم ينقطع. كنت ألجأ إليها بصفة خاصة حين يعترينى الضيق والتوتر أو الشعور بالزهق والاختناق، فترتاح أعصابى وأشعر بانسجام وهدوء جميل. لم يبق لى إلا السجائر أنفث فى دخانها قلقى الدائم وتوترى العصابى الداخلى، حتى أصبت بجلطة حادة فى القلب، فامتنعت عن التدخين خشية الإصابة بجلطة ثانية ستكون قاتلة لو لم أمتنع نهائيا عن التدخين.

بعد حرمانى من متعتى البيرة والسيجارة شعرت بملل شديد من الحياة التى لم يعد لها طعم بعد عجزى عن ممارسة متعة تغييب نفسى عنها وقتما أريد سواء بفعل الكحول أو المخدر المنثور بداخل السيجارة. أنا لا أحب أن أعيش عمرى كله فى نطاق الوعى والعقل والعرف والنظام والخضوع للكوابح والضغوط الاجتماعية والنفسية والدينية. من حين لآخر أحب أن أتحرر من هذه القيود وأنطلق فى خيال فوضوى سعيد، بعيدا عن مدار العقل، ثم أعود بعد أن أقضى

وطـرى من هذه المتعـة التى لاحد لها. برغم ذلك فأنا إنسـان أكثر انضباطـا وتعقلا من كثير ممن عرفت فى حياتى من كتاب وفنانين، ربمـا يرجع ذلك إلى طبيعة تكوينى الذهنى العلمى وحبى للكيمياء وتأثرى الشـديد بالفكـر التجريبى. عموما فالعلـم يحتم أن يكون حاصل جمع واحد زائد واحد مسـاويا لاثنين، وأنا أقر بذلك تماما، غير أننى أرى فى كثير من الأحيان – بينى وبين نفسى – عن يقين، أن حاصل الجمع هذا قد يسـاوى صفرا وقد يسـاوى عشرة فى بعض الأحوال.

عندمـا كنت أصطحب زوجتى للعشـاء بأحـد المطاعم، فأطلب لنفسـى البيرة بمجرد أن أجلس وقبل أن أقرأ قائمة الطعام، كانت تسـتاء من ذلـك فتبدو على وجهها أمارات الضيق الشـديد دون أن تعلن عنه. تجـرأت يوما وأعلنت اعتراضهـا الصريح على ما أفعل مـن حيث إنه حرام. فى ذلـك اليوم أنذرتها بأننـى لن أصطحبها معـى بعد ذلك لأى مكان لو اعترضت علـى مزاجى الذى لا يضرها ولا يضر غيرها فى شـىء، فأنا وحدى المتحمل لوزره أمام الله الذى لم يعينهـا حارسـة أو رقيبة على أفعـالى التى سأحاسـب عليها يـوم الدين. تعاملت مع المسـألة بذكاء شـديد إذ امتنعت بعد ذلك عـن إظهار امتعاضهـا واعتراضها فضمنت سـعادتى بصحبتها إلى أى مـكان. غـير أن بالهـا لم يهدأ بصفـة نهائيـة إلا بعد عودتى

من بيت الله. رؤية جميلة للدين رؤية مصرية صميمة تقوم على الاعتدال والوسطية ولا تعرف التشدد أو التطرف. لذلك أجدها شديدة الإعجاب بالدكتور سعد الدين الهلالى أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر، والذى يظهر أسبوعيا فى أحد البرامج التلفزيونية يعلم الناس سماحة الدين الإسلامى ويسره وبساطته ونبذه الشديد للغلو والتعقيد والتطرف، وإيمانه بضرورة الاجتهاد وتنوع الآراء. برغم نفورى الدائم من الوعاظ فإننى أعجبت بهذا العالم الجليل وداومت الاستماع إليه، حتى فوجئت به يصرح يوما لمحدثه أن شرب البيرة حلال باعتبارها خمرا غير عنبية مصنوعة من الشعير وأن الحرام هو السكر نفسه. أمام صدمة المذيع ودهشته راح الدكتور يؤكد على مقولته بأن هناك بعض المذاهب تحلله وأخرى تحرمه ولكل إنسان حرية الاختيار بين المذاهب الأربعة. ما أن انتهى من حديثه حتى اندفعت صائحا:

– ينصر دينك يا دكتور !!

انطلقت رغبتى الحبيسة فى العودة إلى شرابى المعشوق ومزة الجندوفلى وأنا مطمئن أن حجتى لن تضيع بعصيان تعاليم الإله مادام أهل الذكر قد أفتوا بما يعلمون. فى لمح البصر كنت واقفا بالسوبر ماركت الكائن وسط عدة قنصليات أجنبية قريبا من منزلى حيث لا يمكن للألمان أو الأمريكان أن يستغنوا عن هذا المشروب.

بعد أن كسرت حدة الحاجز النفسى بينى وبين فكرة التحريم، لاحظت على نفسى قلة الاكتراث بهذا الأمر وعدم تهافتى على

تناول البيرة كما كان الحال من قبل. بمجرد أن امتنع سبب الحرمان تضاءلـت الرغبة حتى كادت تنعـدم، خاصة أن نديمى الحبيب قد توفاه الله!!

***

obeikan.com

الفصل التاسع

من أخطر ممارساتى فى الطريق الذى اخترته هنا هو اللعب على حاجة الناس للإيمان بأى شىء. إن المجتمعات التى يغيب فيها الإيمان الحقيقى بأى شىء، يحول صاحب السلطة نفسه إلى قضية يدفع الناس إلى الإيمان بها وتقديم التضحيات فى سبيلها، وهو الأسلوب الذى اتبعه الطغاة عبر التاريخ باتباع خطوات أساسية، أولها أن تبقى كل تصرفاته بسيطة ومفهومة لعامة الناس وليس فقط لطبقات معينة منهم، وثانيها أن يجعل الناس يركزون على ما يرونه أمامهم من أشياء ملموسة وثابتة ولا يتركهم للمخاوف التى يشعرون بها، ويجعلهم يغلبون رغباتهم واحتياجاتهم الحسية على أى تفكير عقلى. أما الخطوة الثالثة فهى أن يعطى الناس الإحساس بأنهم يمتازون عن سواهم بشىء ما، مثلما يتميز أتباع كل ديانة سماوية عما سواهم فى نظر أنفسهم وطبقا لاعتقادهم اليقينى، فاليهود يقولون إنهم شعب الله المختار والمسيحيون يقولون إنهم أبناء الله والمسلمون يقولون إنهم خير أمة أخرجت للناس. والخطوة الرابعة تتمثل فى أن يدارى صاحب القوة دائما مصدر قوته ودخله عن الناس حتى يعطيهم انطباعا دائما بأنه فوق الجميع لأنهم لا يعرفون عنه شيئا. أما الخطوة الأخيرة فهى أن يدعم لديهم الإحساس بأنهم أفضل من كل الآخرين وذلك لأنهم فقط يدورون فى فلكه.

إن أخطر شـيء فى لعبة القوة هـو أن تبدو خجولا أو غير واثق من نفسـك. لابد أن تقتحم أى شيء بجرأة وبأقصى ما تملك من قوة إذا أردت أن تضمـن تأثيرا حقيقيا فى النـاس، وبمجرد أن تواجه شـخصا تريد التأثير فيه فاحرص تمامـا على أن تدارى فى داخلك كل ما تفكر فيه أو تشـعر به. انس تماما شـعور الخجل، لأن عالم القوة لا يوجد فيه مكان لمن لايؤمن بذاته وبقدرته الفذة على التفوق على الناس.

بطبيعـة الحال لابـد – قبل الاقتحام – من رسـم الخطط على المدى البعيد وعمل حسـاب دقيق لمختلف التوقعات، فالأشـخاص الذين يمتلكون القدرة على توقع ماسـيحدث والتنبؤ بما سـيقوم به الآخرون، يعطون للناس الانطباع بأنهم أقرب إلى الرجل الخارق أو السـوبرمان الذى يرى دائما ما يختفى وراء الأشـياء الظاهرة. وفى الوقت ذاته لاينبغى أن تكون القناعة بأمر ما شـديدة القوة لأن كل شيء قابل للتغير، وما يصلح لليوم قد لايصلح للغد.. وخلال المعركة الكـبرى لتحقيق النصـر لابد من تجاهل المعـارك الصغيرة، لأنها تستنزف القوة ولا تؤدى إلا إلى الفشل. كان بسمارك يركز دائما على هدفه النهائى ضاربا بقوة كل من يحاول أن يشغله بمعركة صغيرة.

على من سـيبحث منكم عن القوة أيهـا الأحفاد، يا من حرمت من نعمتكم، أن يتظاهر بأنه لايبذل مجهودا، فمن أقوى الإغراءات التى يواجهها إنسـان هو الإغراء بأن يكشـف للناس كم كدح حتى استطاع تحقيق ذلك الإنجاز.. ولا يستطيع التغلب على ذلك الإغراء

إلا أصحاب القوة الحقيقية الذين يعرفون أن الصمت والكتمان يكون لهما أقوى تأثير فى الناس.

برغم براعتى فى تنفيذ كل تلك الحيل والألاعيب بمهارة وبراعة، فإننى كنت ضحية خائبة لمحتال خطير سرق منى عمرى دون أن أدرى حتى اكتشفت ذلك فجأة بعد فوت الأوان، وأصبح كل ما أملكه لا أجد عمرا أنفقه فيه.. إنه الزمن!!!..

• كابتن القصعى المشهور:

فى مرحلة سابقة من عمرى عرفت صديقا غريب الأطوار يسكن فى غرب الإسكندرية. كنت أحبه وأتوق دوما للقائه وقضاء الأمسيات معه فى سيدى كرير الذى يضج صيفا بزحام المصطافين، ويسكنه الهدوء القاتل فى ليالى الشتاء الموحشة. لم أكن قد اعتدت من قبل أن أرتدى الجلباب، لكنى كنت أرتديه فى الليالى الصيفية حين كنت أبيت معه فى فيلته الأنيقة المحاطة بحديقة جميلة منمقة، مسقوفة بعناقيد العنب، منغومة بوصوات العصافير والبلابل. فى سهراتنا الليلية بمطاعم الهانوفيل وكازينوهات البيطاش، ينفق ممدوح النجار بسخاء على الطعام والشراب والمخدرات والأصدقاء. لا يمكن أن يسمح لمخلوق أن يدفع فاتورة الحساب، فهو يعتبر ذلك إهانة له. لم أستطع أن أستأصل منه ذلك الداء المكلف وغير المنطقى والذى يجعله يتفنن فى تبديد ثروته على الغير. تبين لى مع الوقت أنه محب للظهور والفشخرة برغم ادعائه الظاهرى بأنه زاهد فى

مظاهـر الدنيا، وأنه ينتمـى إلى طريقة صوفية لا أتذكر الآن اسـم شـيخها. كثيرا ما كان يؤم المصلين بالمسجد المجاور للفيلا. مظهره الأنيق وملامحه الجادة الوقورة وذقنه الطويلة المهذبة توحى جميعا بأحقيتـه فى أن يؤم المصلين، مثلما توحـى بأحقيته فى أن يتصدر مجالـس كبار شـخصيات الحى. أراه فى كثير مـن الأحيان كريما سـخيا مع الفقراء والمحتاجين لحد الإسـراف والمبالغة فى العطاء لمن يسـتحق ومن لا يسـتحق. فى الوقت ذاته كنـت ألحظ بوضوح شديد تعامله فى بعض الأحيان بكبر ومن علياء مع من هم دونه من الخلق بطريقة عنصريـة ملفتة، فأتعجب من ذلك التناقض الصارخ فى طباعه والذى أرجعه غالبا إلى أرستقراطيته الزائفة التى توارثها عن أجداده. سعادته تفوق الوصف حين ندخل معا أحد المطاعم فيهرع المدير أو صاحب المكان إليه مرحبا، ويتسـابق الجميع مسرعين فى إعـداد مائـدة خاصة له ولضيوفه مـن أراذل القوم الذين يعيشـون – بموافقته – على نفقته بلا مقابل. يختار أفضل المأكولات وأغلاها ثمنـا، وغالبا ما يترك نصف ما فى أطباقه مـن الطعام حين يغادر المائدة. لا يرتدى إلا أحدث موديلات الملابس، ولاينزل حين السفر إلا فى أفخم الفنادق. رأيت فى صحبته أماكن لم أكن أحلم بارتيادها فى حياتى، وتناولت أطعمة وأشـربة لم أكن أعرف أسماء معظمها.

تساءلت يوما لماذا يتمسك ممدوح بصداقتى ويصر على مصادقتى مهمـا تعمـدت الابتعاد عنه، برغـم الفارق الثقافـى والاجتماعى

الكبير بيننا. تبين لى أن الإجابة الحقيقية تكمن فى كونه نصف فى كل شـــىء، فهو نصف مثقف يتباهى باســتخدام الجمل والعبارات الجزلة التى يظن أنها تعبر عن ارتفاع مســتواه الثقافى. وهو نصف موهوب يعشــق مصاحبة الكتاب والفنانين والالتصاق بهم، كما أنه يدعى أن له مؤلفات أدبية وأخرى دينية معدة للنشــر، غير أنه لم يقــدم يوما الدليل علــى ذلك.. هو أيضا نصف درويش يشــارك فى حلقات الذكر ويغضب ممن يناديه بغير أن يقرن لقب الحاج باسمه. كثيرا ما تحدث عن رؤيته للرســول عليه الصلاة والسلام فى منامه. يدعى صراحة أن له كرامات خفية لكنه يخشى الإفصاح عنها حتى لا تزول عنه.

كونــه نصف فى كل ما ذكر تجعله فى حالة إصرار دائم على أن يثبت لى – من دون أن أطلب منه – أنه واحد صحيح – مثلى تماما ولا يقل عنى فى شــىء – برغم احترامــه الحقيقى لفكرى وثقافتى وتعظيمه الدائم من شأنى بمبالغة شديدة أمام الآخرين. كثيرا ما كنت أناوشه حتى أتسلى بالكشــف عن المزيد من فكره الغامض وعقليته الحائرة بين المتناقضات. سألته يوما ونحن جالسين بالمقهى:

– هل تؤمن بالتواضع يا حاج ممدوح؟

أجاب بثقة مؤكدا:

– لو بحثت فى العالم كله فلن تجد إنسانا أكثر تواضعا منى.

كان يكــذب وهو يعلم أنه يكذب. لم تكن أمامى فرصة لمواجهته لولا أن اقتحم مجلسنا أحد خفراء الشاليهات المجاورة. انحنى أمام ممدوح فى توقير واحترام شديدين وقال:

– هل تشرفنا يا باشا اليوم بحضور فرح ابنى؟

بعــد تصريحه الوهمى الأخير، لم يعد أمامه إلا القبول. قال له فى نبرات غارقة فى الكذب:

– طبعا سأحضر وسيكون بصحبتى صديقى العزيز سعيد صادق،

نجــح فى إخفاء رفضه القاطع للدعوة وصاحبها حتى يبدو أمامى أكثر الناس تواضعا فى العالم كما ادعى.

حين اســتقبله الخفير وعائلته اســتقبال الفاتحين نســى كبره وتعاظمه وســيطرت عليه حالة من الفرحــة والخيلاء جعلته يدفع «نقطة» غالية جدا للمطربــين والراقصات. أراد أن يثبت لى أهميته أكثر مما أثبته حماس الاستقبال، فكتب بقلمه كلمات لم أنتبه لها على ورقة صغــيرة ونادى أحد القائمين على الفــرح فأعطاه الورقة ومعها مائة جنيه ليعطيهــا للمطرب كنقطة. لم أكن أعرف أن هذه النقطة ســتكون باسمى، حتى فوجئت بالمطــرب يتوقف عن الغناء ملوحا بيده فى فرحة شديدة بالمائة جنيه ثم يتفحص الورقة المرفقة بصعوبة من لا يجيد القراءة ثم قال بثقة شديدة:

– تحية كبيرة لكابتن القصعى المشهور سعيد صادق.

ذهلت لهذا اللقب الغريب فسألته:

– ماذا كتبت له فى الورقة؟

– كتبت له إن النقطة المدفوعة باسم كاتب القصة المشهور سعيد صادق.

فى نهاية السهرة جاء المطرب ليصافحنى ويشكرنى فسألته:

– هل يوجد بالإسكندرية ناد اسمه القصعى؟

– والله ما أعرف يا باشا.

– فماذا تعنى كلمة القصعى؟

– أعرف أن هناك حيا شعبيا يحمل نفس الاسم.

لم يهدأ لى بال حتى سألته:

– هل تعرف معنى كلمة قصة؟

نظر إلىّ ببلاهة قائلا:

– القصة كلها يا باشا إنك منورنا ومشرفنا بوجودك.

وانصرف مسرعا، بينما كشف ممدوح عن خبيئة نفسه دون تردد، معتقدا أنه يجاملنى حين قال:

– لهذا أكره التواضع مع أمثال هؤلاء الجهال!

• **المرحوم حنيش:**

يوسف صبرى موظف يعمل تحت رئاستى. دائم النشاط والحركة. لايكف عن الابتسام والضحك لأتفه الأسباب. يعمل بإخلاص لكن بغباء شديد. برغم مؤهله العلمى فوق المتوسط فإنه لا يستطيع القيام بعملية حسابية بسيطة تحتوى على القسمة والضرب. لا ينعى هما لشىء على الإطلاق. عقله مفرغ من الحكمة والمعرفة والمنطق.

لذلك كنت أستدعيه إلى مكتبى لأضحك منه وعليه، سواء أظل صامتا فأكتفى بابتسامته الطفولية، أم كان منهمكا فى سرد قصة من قصص حياته الغارقة فى التفاهة والتى غالبا ما تجعلنى أنفجر فى الضحك. طالما قلت له باقتناع شديد:

– يا يوسف، لقد أكرمك الله بأن حرمك من نعمة العقل.

فيضحك ويقول بثقة وجدية:

– برغم ذلك فأنا واثق أن مستوى تفكيرى فى نفس مستوى تفكيرك وثقافتى فى نفس مستوى ثقافتك.

فأوافقه على قوله طالبا منه أن يحكى آخر نوادره. القصة التى مازلت أذكرها عنه حتى اليوم هى قصة المرحوم حنيش التى رواها لى عن صديقه مصطفى شقيق حنيش الذى يحبه حبا شديدا.

مصطفى هذا معتوه مثل يوسف لكنه أميّ مسكين، يعانى من آثار مرض قديم جعله يعانى شللا جزئيا وتهتهة فى الكلام ولثغة فى معظم الحروف، ودائما ما يسيل اللعاب من فمه والمخاط من أنفه فيمسحهما بكم قميصه أو جلبابه. يحكى مصطفى ليوسف كلما رآه عن مأساة وفاة أخيه وحبيبه حنيش، طالبا منه قراءة الفاتحة على روحه. كان حنيش يبيع المناديل الكلينيكس والأمشاط واللبان وخلافه متقافزا بين الأوتوبيسات وقطار أبى قير. حين نقل نشاطه إلى ترام البلد على سبيل تغيير باب الرزق، ازداد ربحه فأكثر من التنطيط بين العربات سعيا وراء المزيد، حتى انزلقت قدمه يوما فسقط بين العجلات ودهسه الترام.

كان مصطفى يتجول ذات مساء فى الغيطان المحيطة بمنطقة النخيل فى المعمورة بعد عودته اليومية من قراءة الفاتحة على قبر حبيبه حنيش. سمع أصواتا غريبة تصدر عن امرأة. توقف خلف شجرة يتنصت بتركيز فأدرك أنه غنج مؤكد. اقترب من مصدر الصوت دون أن يلمحه أحد. كان المشهد مثيرا للغاية، فها هى العروس التى لم يمض على زفافها بالحارة شهر واحد، يضاجعها فتى قوى البنيان ضخم الجثة، لكنه ليس زوجها. انتظر مصطفى صامتا فى صبر حتى انتهى الفتى من مهمته فاقتحم عليهما خلوتهما متسائلا:

– خلاث يا اختى؟ «يقصد خلاص».. خلثت يا سيدى؟

فزعت العروس برغم استهانتها الشديدة بمصطفى فنهرته بشدة:

– إمشى يا وله يا مصطفى روح العب بعيد.

لم يتحرك فسألته فى جزع لايخلو من احتقار:

– أنت عاوز إيه يا بنى آدم؟

قال لها فى ثبات:

– ورحمة أخويا حنيش لازم «يقصد لازم» أنام معاكِ حالا.

– غور فى داهية وإلا ضربتك بالشبشب.

– اثمعى الكلام أحثن لك بدل ما أفضحك.

تدخل الفتى وقد انقضت حاجته لينقذ الموقف هامسا لها ببساطة:

– اتركيه يلكلك أى حاجة بدلا من أن يفضحنا.

برغم استنكارها الشديد لموقف الفتى إذ رمقته بنظرة احتقار قاسية، فإنها استسلمت للأمر الواقع، لكنها لشدة تقززها وقرفها من مخاط مصطفى ولعابه السائل فقد ضمت فخذيها بشدة بحيث يستحيل عليه مضاجعتها. قال لها بحسم:

– لا يا أختى. افتحى لى. ماتتشنجيش. أنا لازم أتمذج.

بالطبع كان يوسف يروى لى هذه التراجيكوميديا وضحكاته تجلجل فى الغرفة، بينما كنت أمسح دموعى المنسابة من شدة الضحك. لم تستطع العروس الاستجابة بفتح فخذيها فقال لها منذرا بلهجة عسكرية آمرة:

– افتحى أحثن لك.

ظلت متشنجة وقد تصلب جسدها الرافض لمصطفى وهى منهارة فى البكاء ندما على الموقف المهين الذى وضعت فيه نفسها. انصرف الفتى حين صاح فيها مصطفى:

– قلت لك ثيبى نفثك (يقصد اتركى نفسك).

أخيرا دفعت ثمن فعلتها بالرضوخ التام له. ما إن لامسها حتى انتهت مهمته.

* * *

لقد كان لعبارة «ثيبى نفثك ياختى» التى قالها مصطفى أثر عميق فى نفس صديقى المقرب مجدى قناوى الذى خلق من هذا الموقف الغريب فكرة فلسفية جديرة بالتأمل. ذلك أن قناوى يتهمنى دائما

بانني أعيش عمرى كله بعقلى وحساباته وتخطيطه وتوقعاته، وبالتالى لا أترك فرصة لروحى أن تتحرر من قيوده، ولا أترك لنفسى أدنى قسط من الحرية، فى حين أننى لو تخليت نسبيا عن ضوابطى العقلية وتركت نفسى لنفسى، أو بمعنى آخر «ثبت نفثى» فإننى سأتمتع بحياة أكثر سعادة وجمالا. لهذا فكلما جد موقف فى حياتى وحكيت لقناوى عن كيفية مواجهتى له قال لى ضاحكا:

– ثيبى نفثك يا أختى.

• أحلام ذئب عجوز فقد أنيابه:

•• منيرة:

فى يوم من أيام السنة الرابعة عشرة من سنواتى التى تورقت وتحبرت برغم أنفى، دق جرس الباب. كانت منيرة بنت الجيران. بيضاء كالقشدة تهيج أعصابى كلما حضرت إلينا بصحبة أمها. نتبادل الابتسامات فحسب. أرسل إليها نظراتى الخبيثة على موجة مراهق بلهاء، بينما ترسل هى بنظراتها الموحية على موجة الخبرة والمعرفة فلا تلتقى الإشارات. صراخ جسدها بالإغراء كان تلقائيا، وكنت الشاهد الوحيد. فرصة العمر يا ولد.

– أين أمك؟

– بالخارج.

– وإخوتك؟

– معها.

دار الاستجواب على الباب وقلبى يكاد يحتضر تحت قدميها. لم أجد بنفسى الجرأة ولم تواتنى ذرة من الشجاعة كى أدعوها للدخول، لكنها دخلت بجرأة ودون دعوة. فى عينيها حديث أكاد أفهمه.

لكنى أحوم حوله ولا أستطيع الولوج إلى عالمه واقتحام قدس أقداسه. ينتقل قلبى برغم نزيفه إلى الفراش الذى استلقت عليه بجرأة أذهلتنى وأطارت عقلى من رأسى. أى قيد لعين ذلك الذى كتفنى أمامها غير الخوف والجبن والحرص وخشية الصد. لو كان الوازع دينيا لاسترحت، لكنه لم يكن كذلك. اللعنة!. لو واتتنى الشجاعة كسرا من الثانية لتسللت يدى ولو للحظة إلى جسدها. أى قوة لعينة زرعت فى طفولتى وصباى ذلك التردد المخزى الذى ظل يلازمنى معظم سنين عمرى. لم يكن نداء عينيها يحمل أكثر من معنى. المهم أننى فهمته واستوعبته وبت واثقا منه إلى درجة اليقين، إذ تسلل إلى شعيرات دمى وتمكن من خلاياها واستبد بها، وصال وجال وعربد حتى طفح على خديها المتفجرين بنداء الحياة. لكن الشلل أصابنى بكبرياء الجبن، أم بجبن الكبرياء لست أدرى. كنت على وشك الموت فى تلك اللحظات، حين فرق بيننا دهر من الصمت الثقيل قبل أن أودعها إلى الباب دون أن ألمسها، وكفى تصب علىّ لعناتها وأسمعها تكاد تثقب طبلة أذنى، فقد حرمتها من لمسة العمر. لم أكن أدرى ساعتها أن الحياة لا تجود بمباهجها على أحد ما لم يكن يتمتع بالجرأة والثقة والقدرة على اقتحام المصاعب والأهوال.

نعمة الصعيدية ولحظة التوقف:

فــى قلب هموم النهار وفى بؤرة الصراع اليومى، ســقطت حزمة من أشــعة تائهة من عينى فى اتجاه غير مقصود. امرأة ذات ملامح لا تنسى جالســة إلى مائدة فى بهو المقهى الكبير المطل على الشارع مباشــرة. تدخن ســيجارة بثقة هادئة. بشــرتها سمــراء ،هندية الملامح. شعرها أسود طويل لامع.

بلا أدنــى تفكير وفى لحظــة خاطفة كومض البرق ســرقت من الزمــن، قررت أن أبحث عــن أقرب موقف للعربــات. لا بأس أن يتوقــف الســعى وراء الحيــاة الهاربة أبدا ولو لمدة ســاعة. ركنت العربــة فى مكان قريب. حاولت اســتجماع ذاكرتى قدر المســتطاع أيــن رأيتها من قبل؟.. العمر يتســرب بخبث شــديد. أين التقيت بها؟.. لامهرب من انكماش الذاكرة بفعل الزمن. هذه المرأة زمن من تاريخ حياتى الطائر وقطعة منه فكيف لا أتذكرها؟.. اســتعرضت فــى عجالة علاقاتى بمجتمعــات العمل والفــن والثقافة والأصدقاء والأقارب، فلم أذكر أين التقيتها من قبل. كان من الممكن ألا ألمحها فإشارة المرور كانت خضراء، ومع ذلك لمحتها بسرعة العربة. كان من الممكن أيضا ألا يستوقف الذهن صورتها من الذاكرة فأستمر وراء سعيى المنهك. الذى حدث أننى بمجرد رؤيتها اهتز فى كيانى شىء ما. شىء دفعنى إلى ضرورة التوقف. التوقف عن كل سعى فى الحياة عدا الرجوع إلى هذه السيدة.

– من يلعب معنا المساكة؟

– حسن وبهجت ونعمة ووحيد والديبة.

عشرة سنوات فى الحارة الضيقة الوديعة، حيث البيوت واطئة متلاصقة فى ود شديد. معالمها الواضحة عندنا – نحن أبناء العاشرة – تتمثل فى انتهائها قرب شاطئ البحر. ملمح خطير يجمع شمل عالمنا فى سهولة ويسر ونقاء، فنحن متحابون جدا كما لو كنا إخوة حقيقيين. أنا ابن كامل أفندى الموظف بالسكة الحديد. بهجت ابن الحاج حسين تاجر القطن. وحيد ابن عبده السمكرى. الديبة ابن العربى الصياد، ثم نعمة بنت عم على البواب. فى لعبة المساكة أحب أن أكون المساك لأبدأ باقتناص نعمة. دائما تلفت نظرى وتشدنى إليها بحبل من غموض. البنت الوحيدة من بين أربعة من الصبيان. شخصيتها آمرة ناهية تغرى بالانقياد وراءها دون تفكير. تزيد قليلا عن العاشرة. قبل أن يحضر عم على تكون قد سبقته إلى البيت بالطابق الأرضى حتى لايراها تلعب مع الصبية وقد غابت الشمس فيغضب منها ويحرمها من اللعب فى الحارة.

* * *

علمتنى الحياة أن الجرأة الشديدة هى أقصر الطرق لاقتحامها. بعد القنبلة النيوترونية لم يعد الزمن يسمح بانتظار. تقدمت أمام مائدتها بثبات:

– صباح الخير يا أفندم.

قدمت لى ابتسامة لطيفة مصحوبة بشىء من الدهشة. ما أحلى النساء. على وجهها تجلت علامات الاستفسار. ما أروع الاقتحام.

– هل تسمحين؟

لم أنتظر السماح وجذبت مقعدا. ركزت بصرها على سبابتها التى نفضت بطرفها جزءا من رماد السيجارة بالمنفضة. تأملتنى بنظرة أخفت وراءها كبرياءها، وما معنى الحياة بلا رغبة فى استكشاف المجهول؟..

– أوقفت عربتى خصيصا لأجل أن أعرف أين التقينا من قبل.

ابتسمت. لا تبتسم الدنيا إلا لغازيها. مطت شفتيها بلا مبالاة. صمتت قليلا. خلق الله الدنيا فى ستة أيام. عادت وأخفت عدم اكتراثها. نظرت إلى محاولة التذكر.

– هل أنت واثق أنك تعرفنى إلى هذه الدرجة؟

– لو لم يكن الأمر كذلك لواصلت طريقى إلى لقاء مهم كنت أقصده.

قالت بابتسامة امتزجت فيها الطفولة بالأنوثة:

– وماذا لو اتضح أنك كنت تعرفنى؟هل سيغير هذا مسار حياة أى منا؟

– هو داء حب الاستطلاع اللعين وليس أكثر من ذلك.

تفرست فى معالم وجهها وفى ملبسها. ثمن الثوب الذى ترتديه لا يقل عن ألفى جنيه. لا يمكن أن تكون هى. لم يصل الاسم بعد إلى خاطرى. اللعنة على الزمن. التزمت الصمت. نفثت دخان سيجارتها فى الهواء وهى تنظر باتجاه مخالف لموقعى منها. أغفلت – عن

غـير قصد – وجودى أمامها. كانت طبيعيـة جدا فى كل حركاتها وسكناتها. بعد أن طالت فترة الصمت بدأت أشعر بالحرج.

* * *

لحظة أذان المغرب تمكنت من اقتناصها. الجميع يختفون خلف البيـوت المجاورة وفـى حناياها الضيقة. تظاهـرت بتتبع بهجت بينمـا رحت أرقب بطرف عينى مـكان اختبائها. انزوت فى ركن مظلم ببدروم سراى البشـوتى، واثقة أننى لايمكن أن أهتدى إليها فـى هذا المكان الذى لا يجـرؤ طفل على الاقـتراب منه، خوفا من حارس السـراى الذى كان بالمصادفة غائبا فى ذلك الوقت. يشـدنى إليها حبل من الغموض السـحرى. يرتجف جسـدى بنشوة مبهمة امتزج فيها الخوف بالرغبة. الرغبة فى إمساك نعمة بالذات وليس بأحد غيرها. نظرت يمينا ويسـارا بحذر شـديد. ببطء تسللت إلى بدروم السراى. أذان المغرب يبدد سكون الزقاق. رائحة الجو توحى بالتوجـس والظنـون. حفيف الأشـجار يناجى نسـمات الخريف بوشوشات غامضة.

لحظـة أن ارتميت عليها لم تصرخ بمرح كعادتها حين تتعرض للمسـك. قال لى شـعور خفى إنها كانت تنتظر تلـك اللحظة حتى تستسـلم لعاقبتهـا دون مقاومة. لم تنطق. لم أتحـرك. ران صمت طويـل وتبادلنا أنفاس سـاخنة حائـرة لفحت الوجهـين. اقتحم

الصبية المـكان لأول مرة يزفهـم صخبهم وضجيجهم. بإحسـاس فطرى ملهم انفصلت عن جسـدها على الفـور. مضت لحظة صامتة غامضة، لم نلبث بعدها أن اندمجنا فى الجموع.

* * *

لم أجد بدا من تبديد جو الحرج الذى خيم على الموقف. سـألتها بلهجة قاطعة:

– هل أكون متطفلا لو سألتك عن اسم والدك؟

أجابت بنغمة موحية بها شىء من الدلال:

– سؤال أنت تعرف إجابته.

– تقصدين أنى متطفل.. معك حق.

– بل أقصد أنك تعرف اسم أبى.

باندفاع سألتها بلهفة الاستطلاع المستبد بكيانى:

– عم على؟!

– نعم.

– نعمة؟!

– نعم.

وابتسمت فى سعادة لم ترغب فى إخفائها.

فـى اليوم التالى لم تظهر نعمة. سـأل الجميع عنها ولم أسـأل. اترويت فى ركن أفكر بذهن يغلفه ضباب كثيف. مزيج من الخوف والنشوة يغذى قلقى المتزايد عليها. لماذا لم تحضر لتلعب معنا ككل

يـوم؟!.. اسـترعى انتباهنا جميعا – وأنا بصفـة خاصة – وقوف عمـلاق ضخم أمام بيت نعمة. طوله مخيف. بنيانه عريض. وجهه مدجج بعلامات القوة وإمارات القسوة. يرتدى جلبابا فضفاضا فوقه معطف أصفر. عم على يفتح الباب الملتحم بالشارع ويستقبله باحترام زائد. يتكرر المشـهد ذاته لعدة أيـام متفرقة ودون أن تظهر نعمة. تحول التكرار بعد ذلك إلى طابع الانتظام مساء كل خميس. التقطت أذناى حديثا عابرا بين نسوة الزقاق لم أفهم مدلوله. قالت إحداهن:

– البنت فايرة من يومها.

قالت أخرى:

– يعمل مخبرا سريا.

لم أفهم شيئا لكنى أحسست بقوة أن هذا العملاق قد اختطف منا نعمة إلى الأبد. لم أفهم لماذا يعاملنا الكبار بهذا الاستبداد الكريه، فيفسـدون علينـا أيامنا الجميلة. خطفوا نعمة. تأكد صدق حدسـى حين فوجئت الحـارة بالكهربائـى يعلق المصابيح حول شـبابيك وشـرفات المنزل. أخيرا ظهرت نعمة. لم نتبين فيها ملامحها التى نعرفها. كانت ملونة الوجه والملبس، وبدت كامرأة صغيرة مخيفة غريبة عنا. دب فى روحى شـعور عميق بالكراهية تجاه العملاق، وأحسست بنقمة عارمة على نعمة التى اختفت من الزقاق إلى الأبد.

– أما زلت زوجة للمخبر؟

أجابت بابتسامة ساخرة:

– ما كنت أحسب أن رجال العمال المتأنقين تنقصهم دقة الملاحظة

إلى هذه الدرجة.

أمنــت على قولها بالنظــر مليا إلى ثوبها الثمــين. تذكرت أيام الحارة. عاودنى شعور الصغار تجاه الكبار حين يخطفون أحلامهم، فأين ذهب العملاق؟

– الطلاق؟

– بل الموت المفاجئ دون سبب.

اذن فقد اقتص لنا القدر فاختطف خاطف نعمة، والناظر فى عين القدر كالناظر فى عين الشمس يبهره ضوؤها ولايقف على كنهها.

– كيف؟

أجابت باستسلام للقوة التى لاتقهر أبدا:

– لعله تخطيط علوى، وربك وما يريد.

كــم أنت خادعة أيتها الســنين.. أمــا العمر فهــو كالرزق قدر ومكتوب.

– من تزوجت بعده؟

– تزوجــت من ضابط كبير ماتت زوجته. كان المرحوم يعمل فى حراسته وخدمته.

– واضح أنك لا تقعين إلا واقفة.

أطلقت ضحكة كاشــفة عن سعادتها بالاستسلام لتصاريف القدر وقالت:

– زوجى إنسان طيب جدا ومحب للناس والحياة.

استعدت هدوئى. امتصصت سنوات عمرى المنسحقة فى لحظة التوقف عن السعى.. مجنون من يحاول أن يفهم كل أسرار الحياة. تأهبت للانصراف. فاجأتنى بقولها فى بساطة وثقة:

– هو على وصول الآن.. يمكنك البقاء قليلا لأعرفك به.

نظرت إلى ساعتى فى قلق. فكرت فى عربتى. انتهت لحظة التوقف.

• لوزة:

فى دهاليز الماضى تقبع «لوزة» بركن سحيق. عربية من الضفة لست أذكر ما الذى جاء بها إلى مصر حتى انتهى بها المطاف إلى بيتنا تخدم فيه. تعاملها أمى كابنتها، ومالك الملك يعز من يشاء أو يذله، أما أنا العبد العاصى فقد شعرت أمام جمالها الوحشى الأخاذ أن فى كثير من أمور الدنيا حكمة عليا يستعصى فهمها على عقول البشر. نديم التلميذ المنضبط يوارى وجهه خجلا منى. كانت نصف عارية. ألجمت روعة جسدها المثالى لسانى فكاد أن يتدلى من فمى إلى الأبد. استسلامها فى رقدتها المستكينة على الأرض أثار جنونى وشياطينى. انشقت الأرض وابتلعت نديم. أما لوزة فبقيت على حالها فى مواجهة صنم آدمى تنتظر أن تدب فيه الروح ليقول أو يفعل أى شىء. ثارت بيننا عاصفة مزلزلة من الصمت المشحون

بنذر الفناء. أفاقت علـى صفعتى – التى فاجأتنى مثلما فاجأتها – فسارعت بارتداء ثيابها امتثالا لغيرتى الكاذبة على الفضيلة.

عندما انفردت بنفسـى ندمت على أشـياء كثيرة، كان من بينها توهمى أن لوزة تعرت لسـيدها ضمانا لتأمين طعامها، والحق أنها كانـت لوزة فعلا. أما الحاضر فقد أسـفر عن عجـوز شمطاء مثرمة الأسـنان تهيم فى الشوارع بعقل نصف واع. رأيتها تسير على غير هدى فى الشـارع المواجه لبيتنـا. آثار الجمـال القديم قد انمحت تقريبا لكن الروح باقية. سألتها بفضول قوى:

– هل أنت لوزة؟

نظـرت إلى فـى بلاهة غير مصطنعـة وقالت وهى فـى طريقها للانصراف من أمامى:

– إزيك يا حاج.

مددت يدى إليها ببعض النقود علها تتوقف لتأخذها، لكنها لم تهتم. لما أصررت علـى دفع النقود إلى يدها لم تنظر فيها. وضعتها فى جيبها وانصرفت خائفة من شىء ما.

عندما هرب نديم من مواجهتى حفاظا على ماء وجهه باعتباره الأخ الأكـبر والقدوة، خـلا لى الجو مع لوزة تمامـا. كانت مطيعة للغاية. كما تركت لى جسـدها أعبث به على قدر خبرتى الصبيانية الضئيلة، كان ينتابنى شـعور عظيـم أكبر بكثير من عمرى وفكرى ونوايای. كنت أشـعر تجاهها بشـفقة غير عادية، وتجاه نفسـى بدونيـة حقيرة لأننى كنـت أدرك أنها لولا احتياجهـا إلى اللقمة والفراش لما وجدت بهذا المكان من الأصل، ولما تعرضت لهذا العبث

الذى لا يمثل بالنسبة لها أكثر من طاعة أولى الأمر وأبنائهم الصغار. صرت ألتقى بها كثيرا فى حينا الراقى. كلما سألتها:

– هل أنت لوزة؟

أجابت وهى شاردة:

– إزيك يا حاج.

فى مرة فاجأتها بنداء مباشر:

– لوزة

توقعت أن تلتفت إلىَّ لكنها لم ترد. ستون عاما مضت وقد فصلت بين لوزة البدوية ذات الجسد الفينوسى والعينين الناعستين، ولوزة المتسولة فى غير حماس دون أن تدرى أنها تتسول، وسبحان من له الملك والدوام.

• معشوقاتى:

•• أم رشاد:

كانت أمى تسحبنى من يسراى بيدها الحانية الدافئة وخطواتها القلقة المسرعة، وتحثنى تلقائيا على ضرورة ملاحقتها. الشعور بحماية الأم يحيطنى بطمأنينته ورعايته ،فلا أرى العالم إلا من خلال عينيها.

– إلى أين نذهب يا أمى؟

– إلى تيزة أم رشاد.

– لماذا؟

أحبها حين تتجاهل ذكائى لتتهرب من السؤال. ارتباطى الشديد بها يؤكد لى أنها سوف تصنع منى شيئا مهما.

– أسرع حتى لا نتأخر عليها فلا نجدها بانتظارنا.

لم أكن أعرف لماذا تصحبنى إلى هذه السيدة الثرية الغامضة أكثر من مرة كل عام قرب دخول المدارس وقبل حلول الأعياد وفى مناسبات أخرى أجهلها.

تفتح لنا باب الفيلا خادمة أنيقة كنت أحسبها شقيقة أم رشاد أو ابنتها.. بعد أن نجتاز الحديقة الجميلة تصحبنا إلى صالة كبيرة يطل شباكها العريض على صفحة الماء الزرقاء بالميناء الشرقى. أسارع إلى الشباك. ألتصق بزجاجه لأتفرج على أسراب النورس وهى تحط فى جماعات متعاقبة على رصيف الميناء وصوارى مراكب الصيد العتيقة. تنظر لى أمى نظرة صارمة دون أن تنطق بكلمة واحدة، فأفهم مغزاها المحدد على الفور وهو:

– اجلس بأدبك حتى لا تغضب منك تيزة.

معظم الحوارات بيننا تدور بالعيون. دربتنى بمهارة على أن أقرأ ما بعينيها دون أن تفصح عنه، فتعلمت كيف أرى فى الكون معانى الحب والعطف والرحمة.

دقائق وتعود الخادمة حاملة صينية ملونة عليها فنجان من القهوة وكوب من عصير الفاكهة أرقبه بعينين قريرتين، لكنى

لا أجرؤ على الاقتراب منه قبل أن أتلقى نظرة السماح التى أعرفها من عينى أمى، والتى لا توجهها إلىَّ أبدا قبل وصول تيزة أم رشاد.. تهل علينا بخطوات هادئة ووجه سمح عاش ما يقرب من خمسين عاما فى هناء ورفاهية. لكنى ألمح بنظرة ابن العاشرة حزنا دفينا قابعا تحت العينين الزرقاوين المزدانتين بنظارة أنيقة.. تأخذ أمى فى حضنها بمودة عميقة فيرتج لحمها الوفير وتبدو لى كطائر أبيض عملاق يحتضن فرخه الصغير فى حنو غريزى.. وتثير ملابس حداد أمى تعجبى، فكيف يأتى وليد أسود من أم بيضاء ناصعة، لكنى أتذكر قول أبى الراحل وهو يردد دائما:

– سبحانه قادر على كل شىء.

فى كل مرة تتبادلان القبلات الضاحكة وعبارات الألفة الشديدة بلا كلفة، وكأنهما عاشتا العمر كله معا.. تقبلنى وتغمرنى بالشيكولاتة والعملات الفضية اللامعة وتربت على ظهرى، ثم تأمر الخادمة بفتح الشباك لأستمتع بالفرجة على شباك الصيد والفلايك وأشم رائحة الأسماك المنبعثة من حلقة السمك القريبة. أما اليوم فالأمر جد مختلف، إذ لمحت من مجلسى بالشرفة دموع تيزة أم رشاد تنهال على خديها المتوردين، فتخلع النظارة وتمسح عدستيها بمنديل جميل مطرز. الذى أدهشنى حقا أن أمى كانت تبكى معها ثم تقول بصدق أخناتونى:

– إن شاء الله ربنا يطمئنك عليه ويفك كربه وكربك.

ثــم كانت آخر زيارة لتيزة أم رشــاد والحــزن يعتصر كيان أمى ونحن فى الطريق إليها دون أن تنطق بكلمة واحدة. فى الصالة طال انتظارنا. جاءت أم رشاد متشحة بالسواد كأمى تماما. طال عناقهما الباكــى الأليــم فانفجرت معهما فــى البكاء. جــاءت الخادمة كى تصحبنى إلى الشــرفة للفرجة علــى البحر فرفضت الدخول بإصرار شديد. توحدت بالحزن قبل أن أعرفه المعرفة الحقة. لم أقو على مد يدى لتناول كوب العصير حين سمعت أمى تقول لها:

– ربنا يصبرك على ما بلاكى.

* * *

فى جلســة هامســة بين أمى وسعدية، اختلســت مجلسا قريبا منهمــا مدفوعا بحب اســتطلاع رهيب. كان الحديث عــن تيزة أم رشاد. قالت أمى بنبرة تنسكب همّا:

– أم رشاد هاجرت من مصر صبيحة إعدام رشاد

تساءلت سعدية فى جزع:

– ماذا سنفعل الآن؟

أجابت أمى فى طمأنينة هادئة:

– ربنا كريم

تساءلت سعدية فى ضيق لم يخف دهشتها:

– أنا أتعجب ما الذى يدفع شــابا غنيا متعلما وســيما مثل رشاد إلى أن يخون وطنه!!

بعد ما يقرب من ثلث قـرن من الزمان تصادف مرورى بالعربة أمام الفيلا. توقفت قليلا شاردا فى عالم الملكوت. كان ولدى الصغير بصحبتى. لفت نظره أننى أحملق بشدة فى المبنى المتهالك والحديقة المهجورة الجرداء بنظرات مكتسية بالوجد والأسى. قال لى ببراءة:

– لم تنظر باهتمام إلى هذه الفيلا المهجورة؟

أجبته فى شجن عميق:

– تعال بنا إلى مسـجد أبى العباس لنصلى معا ركعتين على روح جدتك العظيمة الحاجة تحية.

•• أم أنـور:

فى حوالى السـابعة من عمرى كنت أتحسـس بيدى الصغيرتين ساق أم أنور صديقة أمى فى شغف شديد، بينما هى تقهقه ضاحكة. تنهـى أمى عن زجـرى لوقاحتى وتطلـب منها أن أفعل بسـاقها ما أشاء، قائلة إنها سعيدة بذلك لأننى أقدر جمال ساقها وأستمتع بملامسته، فأفرح وأتشجع وأتجرأ وأصعد بيدى وأهبط ملتذا بنعومة ذلك الشـىء الطرى الأبيض المخروط. تحاول كفى الصغيرة احتواءه مـن الأمـام والخلف، غير أن اعتـزازى بالخلـف كان فائقا حيث يزحف السرور فى عروقى، وتسرى فى كيانى الضئيل نشوة غامضة عارمـة لا أدرك بواعثها الكامنة، فأنعم بالذوبان فى تلك النشـوة وتحتوينى سـعادة حارقة تزداد اشـتعالا كلمـا ازدادت ضحكات

أم أنور تصاعدا وصهللة حتى تدمع عيناها الواسعتان وتهتز مرحا وسعادة خصلات شعرها الكستنائية. يتعلق بصرى بفمها المكتنز حين يكشف عن صفين من أسنان مبهرة فى بياضها الثلجى ودقة اصطفافها ولمعان طبقة اللعاب الرقيقة على سطحها المصقول.. الساق والأسنان والشفتان والضحكات المجلجلة ونظرات أمى الزاجرة، ما زالت جميعا محفورة فى ذاكرتى حتى اليوم.. آه أيتها الساق الحبيبة كم أسفت لفراقك طفلا وشابا وكهلا. أنت جزء من تاريخى حتى بعد أن غاب الربيع وتساقطت دموع الشتاء على عمرى. تلك لحظات عاشقة لا تريد – مثلما لا أريد لها – أن تموت.

أصيبت أم أنور بالسكرى وقطعوا ساقها الجميل فغدت صيحات بلبل قد غاب عن زمنه.. هى الآن ذرات ضئيلة من رمال تتطاير فى صحراء بلادى الشاسعة، فكيف استحالت النشوة إلى عدم؟!..

•• أم رجب:

كان نصيب أم رجب من عشقى أعظم وأفدح من نصيب أم أنور، كما كان حظى من جسدها أوفى وأكثر. كانت أم رجب كائنا عملاقا بغير مبالغة. تعاقب الغزاة على مصر من فرس ويونان ورومان وعرب وإنجليز، يمكن أن يقدم تفسيرا مقبولا لعملقتها، مثلما يقدم التفسير لقصر زوجها ذى الشارب الكث الطويل المنتصب من جانبيه فى عناية إلى أعلى. فلاحة من طين الجنوب. جمال وحشى يضرب

الفقر فى نخاعه بكل ما أوتى من عزم دون أن ينجح فى تشـويهه. تغضب من زوجها العجوز الذى لا يستطيع حمايتها من بطش ابنه الشـاب وصفاقته وبلطجته وكثرة مطالبتها بالمال، فتترك له البيت هاربة إلى أمى تحتمى ببيتها وشخصها. تلوذ بهما من ضعف الزوج وتخاذله وقلة حيلته وضيـق رزقه وحياته المقفرة الجدباء الخالية من كل شىء عدا حبه العليل لزوجته.

فـى الليل لا تتيح لها ظروف المكان إلا أن تبيت على فراشـى، وكأنما أمضيت من عمرى اثنى عشـر عاما فى انتظار تلك الليلة كى تشـاركنى فراشى امرأة على مشارف الخمسين يتجاوز طولها طول الفراش ويحتل جسدها العريض معظم عرضه. وحين يتجاوز الليل منتصفه يكون شـخيرها قد تجاوز فضاء غرفتـى الضيقة، وعيناى مفتوحتان على اتساعهما أرقب هذا الكنز الضخم من اللحم البشرى الأبيض المتخم بالثراء، وخيالى عامر بدنيا مجهولة الأصل مترامية الأطـراف والأبعـاد والأعماق والسـماوات والأرض. منبهر بكل ما يحيط بها من أسـرار يغلفها الغموض. تتسـلل عوالمها الخفية فى عذوبة ساحرة إلى وجدانى الأخضر الهش، فأدفن جسدى بأكمله حيا ميتا بين ثنايا تلك الثروة التى هبطت على من حيث لا أحتسـب.. وأظل سـاهرا برعشـتى الحائرة حتى الفجر، عابدا متفانيا، حتى يسطو على جسدى المنهك سلطان النوم فلا أشعر بزمان أو مكان.

•• أم بطـرس:

فى حوالى التاسـعة من عمرى تصحبنى أمى فى زيارة لصديقتها الثريـة أم بطـرس. أجلس معها فى غرفة الضيـوف ننتظر خروج المضيفة من الحمام. أسمع بعد قليل صوتها الناعم الريان ينادى أمى كى تتسلى معها بالحديث حتى تخرج. تتركنى أمى وتعبر الصالة المؤدية إلى الحمام. تتعقبها أذناى وقد استنفرت كل خلايا أعصابها السمعية وراحت ترصد الكلمات المتبادلة بينهما حرفا بحرف.

كان موضـوع الحديث فى بدايته غـير ذى أهمية عندى، لكنه مـس فى لحظة صلب وجودى بأكمله حـين سمعت أم بطرس تقول لأمى فى دلال:

– لا يهمك.. إنه صغير والتعرية عليه حلال !

كنت حتى هذه اللحظة أكن لأم بطرس حبا من نوع خاص يختلف عن حبى لأم أنور وأم رجب وأم رشاد وأمى، فقد كانت دائمة المرح محبة للضحـك والتفكه، كما أن يدها كانت سـخية على بالحلوى والنقود. عند سماعى لقولها الأخير شـاب شعورى نحوها شىء من القلق، إذ تستهين بى لمجرد أننى صغير لا ينتمى إلى عالم الرجال حيث يخضع عرى النسـاء أمامهم للحلال والحرام. غير أن شعورا غامرا بالبهجة قد اسـتولى على شـعورى بالقلق واستوعبه فى يسر حين ترامت إلى سمعى كلمة التعرية.

لم يكذب حدسى، إذ خرجت أم بطرس من الحمام فى قميص وردى شفاف مازالت نقوشه الرقيقة الدقيقة مطبوعة فى ذاكرتى وكأننى أراها أمام عينى الآن.. وما الفرق بين الحلال والحرام عند أمى والحلال والحرام عند أم بطرس يا ترى. ولماذا أقبل حلال أم بطرس وأرفض حلال أمى لو وافق الأمر هواى فكان حراما بأحد المعيارين؟!.. أما ما شف عنه القميص الوردى فقد رأيته فى منامى بعد مضى ما يقرب من عشرين عاما على ذلك اليوم. سحب ملونة وفضاء سماوى لا حدود لقبته التركوازية الصافية كالبللور. نافورة تنبعث منها خيوط الماء فى ألوان قوس قزح، وبخور معطر يعبق الفضاء برائحته المسكرة، ودائرة من الغيد الحسان تحيط بى. يلوحن لى بمناديل خمرية وفستقية. يرقصن على موسيقى تنبع من القلب وتصب فيه، وحين تميل قدودهن يفوح عبير أثدائهن الفلية فأطير إلى سماوات علا.. وتتوسط الدائرة أجمل ما رأيت فى يقظتى ومنامى من جميلات تخصنى بابتسامة من ثغرها، فأرى الجنة وآكل من ثمارها ويزول عنى الطين فأذوب فى نهر الفناء الأبدى.

جلست أم بطرس وهى تطلق النكات لأمى الواحدة تلو الأخرى، وأمى تحاول جاهدة أن تمهد للحديث فيما جاءت لأجله من أمرحيوى. وبانتهاء الزيارة كان خيالى قد ابتلع أم بطرس تماما بحواسى الخمس وما فوقها من حواس خفية أخرى، حتى إننى لم أستطع تناول الغداء فى ذلك اليوم، فالطين شىء والنار شىء والنور شىء.. ومن الجنون أن ألمس بوهمى حدود المحال.

الفصل العاشر

لا تندهش أيها الأديب النابغ حين أطالب الأحفاد المتطلعين إلى الذرى العالية وقمم المجد فى هذه الحياة، أن يلعبوا دوما على أحلام الناس. لا تصف ما أقوله بالجرم والوضاعة فأنت تفكر بطريقة مختلفة تماما عن الأجيال الجديدة، والتى قد تجد فيما أقول مجرد وجهة نظر فى الحياة جديرة بالتفكير والتأمل.

إن صانع الخيالات لابد أن يغرى ضحاياه بالاقتراب منه حتى يشعروا بأنهم يكادون يلمسون أحلامهم بأيديهم، وفى الوقت نفسه يبقيهم بعيدا عنه كى يشعروا أن أمامهم الكثير حتى يلمسوا أحلامهم. وقد تبين أن أكثر ما يمكن أن يعطى لخيال الجماهير قوة هو تزايد قهر الواقع لهم، وبالتالى يبدو كل من يستطيع انتزاع أمل ما أو رغبة أو رؤية متفائلة من بين أنياب الواقع، أشبه بمن يصنعون المعجزات.. وعادة ما يسير الناس وراءهم برغم أنهم مخادعون.

من الضرورى البحث عن نقطة ضعف الخصم حتى يمكن النفاذ إليه من خلالها. ولكى نكتشف مثل هذه النقطة أو النقاط يجب أن نزكز على حركات جسده وتعبيرات وجهه التى لا يستطيع التحكم فيها، خاصة خلال المحادثات اليومية التى تكشف عادة عن أشياء كثيرة لو تم النظر إليها بالشكل المناسب. لذا يجب تدريب النفس أولا على الاستماع جيدا إلى الناس، وأن تبدو دائما مهتما بما

يقولون حتى يتحدثوا إليك بالمزيد.. ومن المهم أن تتظاهر دوما أنك تتحدث إليهم من القلب، ولحظتها ستعرف كل ما يخفونه فى قلوبهم، وحتما ستتوصل إلى نقاط الضعف فتسارع بالالتفاف من حولها واستغلالها أتم استغلال.

يجب أن تتعامل مع الناس على أنك واحد منهم. سيحاول أحدهم التعدى عليك فى لحظة ما. لا تضيع حياتك فى محاولات صد هذه الهجمات السخيفة، بل تعامل دائما على أنك أكثر سموا منهم، وكأن لديك مواهب وقدرات خاصة تؤهلك لكى تنال أكثر مما ينالونه هم. أما المكاسب التى لا تستطيع أن تنالها فأعطها ظهرك على الفور وأظهر تجاهلك للأشخاص الذين لم تستطع الوصول إليهم، لأن هذا الأسلوب وحده هو الذى يمكن أن يقودهم إلى الجنون. سيردون على تجاهلك هذا بمحاولة استعادة اهتمامك وجذب انتباهك بأى ثمن.

لقد تعلم كل أصحاب القوة بجناحيها منذ فجر التاريخ أن يداروا مشاعرهم وأفكارهم التى تتعارض مع مشاعر العامة حتى لا يشعرونهم بالخوف، لأن الناس تخاف من أولئك الذين يختلفون عنهم ،فلا جدوى على الإطلاق من مناقشة الأفكار الراسخة فى أذهانهم.

هناك عنصر جوهرى من عناصر القوة لا يمكن إغفاله وهو تعلم اللعب بفن التوقيت، بحيث تجبر الناس على أن ينتظروا دائما خطوتك الموقوتة. انتظر أنت كما شئت وادرس الأمور والأحوال كما شئت، لكن لا تنشغل بالدراسة عن اقتناص اللحظة المناسبة

فـى توقيتها المثالى، والتى يمكنـك أن تطبق فيها كل القوانين التى علمتهـا لك، ولكن إياك أن تغفل لحظة أننـى ملازم لفراش المرض بعد أن طبقت تلـك القوانين بحذافيرها وأغلب ظنى أننى لن أجنى ثمارها أبدا.. أخاطبك أيهـا الحفيد بصراحة ووضوح حتى لا تلقى علـىَّ باللـوم بعد موتى لـو وقعت فيما وقعت أنـا فيه من محاذير وأخطاء قاتلة لا أتمنى أن تعانى مرارتها.

لقـد فكرت طويلا وترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الأوراق إلى أخى سعيد وأطلب منه أن يطلعكم عليها، ومادمت أحذركم كل حين مـن اتباع نفس طريقى الذى اتبعته فى حياتى، فقد كان من الأجدر إذن ألا أعرض عليه وعليكم هذه التجارب الحياتية التى شاء المرض أن يجعل منها تجربة فاشـلة.. لكنى فـى النهاية قررت أن أبعث بها إليه وليتصرف بها كيف يشاء، فأنا متعب ومجهد وعلى وشك الانهيار. بعد أن كادت قدرتى على التفكير السليم أن تتلاشى.

... لـو عرفت كيـف أهتدى إليـه هذا المجنون الـذى اختفى ولا يريـد لأحد أن يصـل إليه أو يتصل به .. لـو أعطانى فرصة أن أخاطبـه ولـو بالهاتف لدقائـق معدودة أغلق الخط فـى وجهه من بعدها مباشـرة، لشـرحت له فى عجالة فلسـفة الإسلام فى قضية المال التى دمرت حياته. المال مال الله وكلنا سنموت ونتركه لغيرنا. هو مجرد وديعة اسـتودعها الله لدينا لأجل مسمى، وأرشدنا للطرق المثلى للإنفاق منها فجنبنا شـدة النهم والتكالب والعذاب فى طلب

المزيد. أنا لا أفهم ماذا يريد منى هذا الرجل الذى هو شقيقى ورفيق طفولتى التى أراها جميلة بينما يراها ذروة فى التعاسة.

• دنيا الله:

كان حلم طفولتى الأعظم هو رؤية ولو بلدة واحدة من بلاد الله وخلق الله خارج بلادى. أكرمنى الله – كما يكرمنى دائما – بأن سافرت إلى عشر دول هى الدنمارك والسويد وقبرص وألمانيا و سويسرا وأمريكا والأردن وسورية والعراق والسعودية. ذكرياتى فى تلك البلاد مسجلة بتفاصيلها الدقيقة فى كراسات عشرة. من المستحيل أن أسرد هنا تلك الذكريات فهى تستغرق مئات الصفحات وتستحق كتابا خاصا بها. لكنى وجدت أنه من الممكن أن أختار بعض الأحداث والمشاهد والمواقف من بعض تلك السفريات، والتى أكدت لى أن الانسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان.

•• السويد:

اعتادت حكومة السويد تقديم منحة علمية سنوية للمهندسين العاملين بشركات الورق فى الدول النامية ومن بينها مصر. عندما رشحتنى الشركة لهذه البعثة كان لابد من تجهيز أوراق عديدة، على أن تعتمد فى النهاية من وكيل أول وزارة الصناعة حتى يسمح لى بالسفر. كنت أعلم أن هناك وكلاء كثيرين للوزارة فاخترت المهندس رجائى الذى كان رئيسا لشركتنا قبل ترقيته إلى هذا المنصب.

توقعت أن يسهل علىَّ الأمور ويرحمنى من بيروقراطية موظفى الوزارة. كان أصغر رئيس مجلس إدارة بمصر كلها، إذ عينه قريبه المشير عبد الحكيم عامر رئيسا لشركتنا وهو فى الثانية والثلاثين من العمر. كان ديكتاتورا قاسيا لا تعرف الابتسامة طريقا إلى وجهه. رغم ذلك تعاطف معى فى موضوع مسحوق الألومنيوم حين تلقى إخطارا من المباحث الجنائية بتفاصيل الواقعة. قال لى بنبرة إعجاب:

– يعجبنى طموحك وجرأتك، لكن فى المرة القادمة لا تمارس التجارة باسمك مباشرة.

فرحت بموقفه المتناقض مع طبعه المتشدد، حين واصل كلامه لى:

– سأوقع عليك جزاء صوريا بخصم أربعة أيام من راتبك، ثم سألغيه بعد عدة أشهر.

وقد صدق بالفعل فى قوله. لكنى صدمت بموقفه المتعنت غير المبرر تجاهى فيما يختص بإجراءات سفرى. وضع أمامى عراقيل عديدة فاضطرنى إلى العودة إلى الإسكندرية عدة مرات للحصول على المزيد من الأوراق والتوقيعات والأختام. عاملنى بكراهية غريبة واستبداد غير مبرر. قال لى كما لو كان سيدا جبارا يخاطب عبدا من عبيده:

– أنا لا أسمح بسفر مهندس بالوزارة دون موافقتى شخصيا حتى لو كان ابن الوزير.

كان واضحا أن مقعد السلطة قد ضاعف من جبروته وغروره وتسلطه. التقطتنى موظفة بالسكرتارية حين لاحظت ارتباكى وغضبى. لا يمكن أن أنسى اسمها ما حييت. عطيات مرقص. قالت لى بلهجة بنت البلد الأصيلة المعجونة بالشهامة:

– قدامك مليون وكيل وزارة لكنك اخترت أرذلهم.

– لم أكن أنتظر منه ذلك قط.

– عد إلى الإسكندرية واطلب من شركتك توجيه الخطاب إلى وكيل وزارة آخر وسأعطيك بعض الأسماء.

كان الوقت ضيقا وقد بدأ صبرى ينفد، فضلا عن تحملى المزيد من النفقات غير المتوقعة بسبب كثرة السفر والعودة. فوجئت بى عطيات – كما فوجئت أنا الآخر – بنفسى أجلس إلى مكتبها وأطلب منها موسا قدمته لى وهى مندهشة. قمت بكشط اسم المهندس رجائى بالموسى ورجوتها أن تكتب لى أحد الأسماء الأخرى بآلتها الكاتبة. ضحكت قائلة بعفوية:

– والله فكرة عظيمة

تمت الإجراءات بنجاح بعيدا عن مكتب المهندس رجائى ودون العودة إلى الإسكندرية.. فى طريقى إلى السفر وفى جيبى الباسبورت وتذكرة الطائرة أردت أن أضرب غطرسته فى مقتل بأن أعلمه أننى سافرت رغم أنفه ودون علمه.

كانت وسيلتى لذلك هى إهدائه آخر رواية من مؤلفاتى. تركتها لدى السكرتارية وعليها إهداء يقول:

– نلتقى بعد العودة من البعثة إن شاء الله.

علمت بعد العودة أنه وزع منشورا على كل الشركات والمؤسسات التابعة للوزارة بأنه الوكيل الوحيد الذى يسمح بالسفر أو يمنعه لأى مرشح من قبل شركته.

ويشهد ميدان التحرير منظرا فريدا من نوعه. عربة نقل أميرية تابعة للشرطة تعطل فجأة فينزل المتهمون المكدسون بها تحت حراسة الجنود مترجلين حتى مقر دار القضاء العالى بميدان الإسعاف. مجموعة من رؤساء بعض الشركات الصناعية ووكلاء الوزارة من المتهمين فى قضية عرفت باسم قضية الرشوة الكبرى. كان من بينهم الجبار المتجبر رجائى. مشهد بالغ الإهانة لأصحاب المناصب الكبرى والقيود الحديدية تحيط بمعاصمهم. لم يحتمل رجائى الموقف فسقط ميتا على سلم دار القضاء العالى.

بعد عودتى من السويد بعدة سنوات ألفت مجموعة قصصية بعنوان: «أقاصيص من السويد» وضعت فيها تجربتى كاملة فى هذه البلاد، أنتقى منها قصتى مع فيرينا، وموقفى من بورش.

• **فيرينا مازالت تذكرنى:**

وصلنى خطاب من فنلندا. ظل على مكتبى لساعات طويلة دون أن أشعر بحافز على فتحه، إذ استبد بى شعور بأن فتحه أو تركه مغلقا أمران متساويان، ثم تحول هذا الشعور بعد ذلك إلى رغبة فى تمزيق الخطاب دون قراءته ما دام الأمران متساويين.

فتحت المظـروف وقد ملَّ انتظار أناملى أن تفتح بابه المغلق على وهم، مهما ظن كاتبه بأهمية ما احتواه من حروف متصلة ومنفصلة.

.. ... فيرينا نيـــلز!!!

من هى فيرينا هذه؟.. ولماذا يصلنى منها خطاب فى هذه اللحظات بصفـة خاصة؟. أحقـا إنها تلك الفتـاة الفنلندية التـى فرق بينى وبينها يوما بحر صغير؟.. أتسـأل عنى بعد مرور سـتة عشر عاما على حديثنا التليفونى الحزين حين اسـتحال لقاؤنا بسبب إضراب عمال الفـرى بوت بالميناء الـذى يصل بين السـويد وفنلندا. تعبر البحار والمحيطات والأزمنة والقارات بكلماتها الحلوة لتطمئن على صحتى وأولادى وحياتى ورؤيتى للمسـتقبل. كنا نتراسل منذ كنت طالبا فى المرحلة الثانوية ونتبادل الصور والذكريات دون أن يخطر ببال أحدنا لحظة أنه من الممكن أن نلتقى يوما. فجأة وجدت نفسى فى السـويد. ما من شـىء فى هذه الحياة أكثر اسـتبدادا من الزمن بأفاعيلـه الغامضة المباغتـة. كانت فرحتنا بقـرب اللقاء جنونية. أعـدت فيرينا كل الترتيبات للقائى، لكن للأسـف حدث الإضراب وتعذر اللقاء، ومضى الوقت وغادرت السويد دون أن أراها.

.. يـــاه!!..

إن أخى الذى يعمل بالخارج لم يبعث إلىَّ برسالة واحدة منذ عدة أعـوام، وهو الذى نزل معـى إلى الدنيا من مكان واحد، لكن الخيط بيننا انقطع وتبدد. تحدثنى عن ابنتها وقد تخرجت فى الجامعة،

وعــن زوجها وقد أحيل إلى التقاعد، وعن عملها وقد تركته إلى عمل آخر، وعن مدينتها وقد غادرتها إلى مدينة أخرى.

.. يـــاه!!..

ظللــت ألهث بعينى حتى نهاية الســطر الأخير من رســالتها، باحثا عن الســبب الرئيســى الذى ربما يكون قد دعاها إلى الكتابة إلىّ، فلم أجد غير التحيات والأمنيات الطيبة.

.. يـــاه!!..

على الرغم من بعد المكان وبعد الزمان، فما زالت فيرينا تذكرنى.

صراع الحضارات:

كان مســتر بورش رئيس البعثة السويدى عنصريا بفجاجة وإن كان يجتهد فى إخفاء مشــاعره الفوقية البغيضة تجاهنا نحن أبناء العالم الثالث قدر استطاعته. بانتفاخ قاتل دعانا يوما لحفل استقبال أقامــه لابنــه العائد من أمريكا بعد حصوله على شــهادة عالمية فى تخصص لا أذكره. سارع الجميع إلى الحفل فى لهفة. تعمدت البقاء فى غرفتى بالمقر أقرأ رواية لوليم فولكنر حتى غلبنى النوم. فوجئت به يطرق بابى متعجبا لعزوفى عن الحفل. شاهدت هزيمة كبريائه فى عينيه الكاذبتين وهو يسألنى بأدب شديد:

– نحن نفتقدك فى الحفل مستر صادق. سأكون فى انتظارك وأنا مصر على حضورك.

وانصــرف واثقا من حضورى ولو من باب المجاملة الاضطرارية.
كان منزله قريبا من المقر بحيث يستغرق الوصول إليه دقائق محدودة.
بعد انصرافه واصلت النوم بعمق أشد.. فى صباح اليوم التالى قال لى بما تبقى فى نبراته من كبرياء جريح:
– فاتتك ليلة من ليالى العمر.
وشــعرت بلذة الانتصار، لكنى تعجبت من نفسى، إذ كانت بى رغبة قوية فى حضور الحفل.

* * *

obeikan.com

الفصل الحادى عشر

فــى عالم صــراع القوة يوصف الناجــح دوما بأنــه الرجل الذى يجيــد التحكم فــى حياة خصومه بحيــث يدفعهم دائمــا إلى فعل ما يريــد لتدميرهم، بينما يتصورون أنهم يدمرونه. إياك أن تصرخ أيها الحفيد فى وجه أى شــخص لأى ســبب. لو فعلت هذا فسوف تشــعره بالخوف منك لدقيقة أو دقيقتين، لكنك ســتفقد احترامه لك لســنوات. لا تستسلم لمحاولات الآخرين استفزازك. خاصة تلك المحــاولات التى تأتى من خصوم يزاحمونــك فى الطريق إلى القوة. لابــد أن تحرص دائمــا على هدوئك ونظرتــك الموضوعية للأحداث بينما تســعى فى الوقت نفســه إلى إثارة جنون خصمك وأنت جالس فى هدوء تراقبه، لأن كل شــخص غاضب دائما يبدو فى نظر الناس سخيفا غبيا لا يعرف ماذا يفعل بنفسه وبالآخرين

لقد أدرك كل صاحب قوة أهمية إنفاق جزء من ثروته على الناس لاجتذاب إعجابهم.. كازانوفا كان يدرك أنه لكى يستميل قلب المرأة لابد أن يفتح لها قلبه ومحفظته فى الوقت ذاته، أما زكريا المرسنلى الصياد فى رواية الياطر فينصح الرجل بوضع أى شــىء فى ســروال المرأة ولو حتى سمكة حتى يضمن انصياعها له.

تعلم دائما أن تدفع مقابلا لكل شــىء يأتى إليك وليس فقط لأى شــىء تطلبه. لا تفــرح بأية هدية تأتى إليك لأن مــن يقدمها إليك

سوف ينتظر منك خدمة ما فى وقت قد لاتكون مؤهلا فيه لأدائها. لذلك يجب أن تؤمن دائما بضرورة دفع مقابل لكل ما تحصل عليه، وتسارع بدفع هذا المقابل بالأسلوب الذى تريد وفى الوقت الذى يناسبك حتى لا يكون لأى شخص فضل عليك.

بطبيعة الحال من الضرورى أن يتواجد بعض المتمردين الذين يثيرون المتاعب فى وجه الباحث عن القوة. والطريقة المثلى لمواجهتهم هى اتباع قاعدة: اضرب الراعى حتى تتفرق الأغنام. إن سياسة عزل العدو عن جماعته ومشاركيه ترجع إلى الممالك الصينية القديمة التى كان ملوكها أبرع من يعزلون تأثير المتمردين عن باقى أفراد الشعب. كذلك عندما غزا الإسبان دول أمريكا الجنوبية لم يضيعوا وقتهم فى ضرب الشعوب التى كانوا يواجهونها. من ناحية لأنهم لم يكونوا يمتلكون الوقت، ومن ناحية أخرى لأن عدد هذه الشعوب كان كافيا لسحق جيوش الإسبان ثلاث مرات على الأقل. لذلك سعى الإسبان إلى اعتقال أباطرة هذه الشعوب والسيطرة عليهم تماما، مما جعل إمبراطوريات كاملة تستسلم للجيش الإسبانى بسبب القبض على قوادها.

•• قبرص:

• ستافروس يهدى إلينا الورد:

المدينة اسمها بافوس والفندق اسمه سيبراماريس. اصطحبنى المهندس كمال عبد الهادى مع الخائن مصطفى المهداوى قبل أن

يطلعنى كمال على تفاصيل الخيانة. الفندق يطل على البحر مباشرة. الأشجار والمظلات والمقاعد المصنوعة من ورق الأشجار وكل ما يحيط بالمكان من طبيعة ساحرة، وأنغام البوزوكى تتهادى إلى الأسماع من بعيد لتبعث النشوة فى كيانى وتعيدنى إلى أيام الصبا حيث كانت تتناثر البرجولات المواجهة لشاطئ الإسكندرية فى الميادين الدائرية الصغيرة بكل محطة، كالإبراهيمية وسبورتنج وكامب شيزار. فى المساء كانت تأتى فرق موسيقية من الشباب تعزف على البوزوكى والبزق والجيتار، ويرقص الفتيان والفتيات فى عالم مشحون بالسعادة والفرح. أنظر إلى هذا العالم السحرى بدهشة شديدة، فقد كان ارتيادى لهذه الأماكن شبه منعدم، ما لم يصحبنى أخى الأكبر معه فى طريقه إلى مكان أو موعد ما. لفت نظرى أن شعب قبرص شبيه بشعب الإسكندرية فى كل شىء تقريبا من حيث الطباع المرحة والانفتاح على الآخر وحب البحر والحياة. الفارق الوحيد بيننا وبينهم أنهم يقدسون السياحة باعتبارها مصدر رزقهم الرئيسى. خدمة السياحة والسياح تجرى فى دمائهم ويؤدونها بإتقان شديد ومحبة فائقة ولو بدون مقابل. اعتدنا أن يصحبنا سائق اسمه ستافروس بصفة يومية من فندق سيبراماريس إلى الشركات والمصانع التى نحددها له. فى يوم إجازة انطلقنا نلهو بالموتوسيكلات فى شوارع المدينة فوقع زميلنا المحاسب سامى حنفى

بعد أن اختل توازنه. كسرت ساقه ووضعت فى الجبس. فى اليوم التالى اكتشف ستافروس غياب سامى عن المجموعة وسأل عنه فعلم بقصته. فى المساء فوجئنا بستافروس يحضر إلى المستشفى ومعه باقة ورد وزجاجة شراب هدية لسامى كما لو كان واحدا من أفراد أسرته أو على الأقل صديقا حميما له.

فى مطعم جميل من بين عشرات المطاعم المتناثرة على الشاطئ جلست مجموعتنا يتصدرها المهندس كمال عبد الهادى ورجل أعمال قبرصى والسمسار الذى يتوسط لنا فى شراء مصنع مستخدم من مصانع الورق القبرصية.

للرفاهية طعم مميز ومذاق غريب. أن تجلس لتناول العشاء وأمامك مائدة مزدانة بالورود، عليها أطباق مكتظة بالطيور المشوية كالحمام والسمان والعصافير، وأطباق أخرى عليها تلال من قطع اللحم الطرى المتبل وعليه الصوص برائحته المثيرة، فتلك متعة لا تدانيها متعة. ومما يضاعف من المتعة أن تكون الصحبة متجانسة متفاهمة، تعزف معا على أوتار السعادة المتناغمة مع أوتار البوزوكى التى تبعث البهجة فى المكان وتعكسها على وجوه الحاضرين. هذا ماحدث معى فى قبرص بلا مبالغة. كان عازف البوزوكى متألقا خبيرا بإثارة رغبة الشباب والشيوخ فى الرقص. يأكلون تارة ويرقصون تارة أخرى. فى النهاية حدث مشهد لم أر

مثله من قبل. توسط أحد العاملين بالمطعم دائرة الرقص حاملا صفين طويلين من الأطباق الصينية الفارغة، وراح يكسر بيده الواحد تلو الآخر حتى تكومت القطع الصينية المكسورة وسط الدائرة على الأرض، حين تعالت صيحات الابتهاج والسعادة من أفواه الرواد وكانت أنسام المحبة تهفهف على القلوب.

قبرص تشبه الإسكندرية فى بعض مناطقها فقط، لكن روح الإسكندرية تسكنها فى كل مكان. أحببتها كثيرا ولم تفارق ذاكرتى أيامى السعيدة بها، غير أنها تحمل أيضا ذكرى بغيضة إلى قلبى وهى واقعة خيانة الصديق. مرت بضع سنوات على تلك الأيام الجميلة، حين زارنى سامى حنفى بصحبة زوجته اللبنانية الجميلة. مرت سنوات أخرى وعلمت أن سامى قد توفى تاركا أربعة أولاد. فى البداية شعرت بحزن شديد على فراقه، لكن اليقين عاجلنى بأننى ميت وكلنا ميتون، ولا معنى للحزن، لا على الأموات ولا على الأحياء.

- **زجاجة عطيل:**

فى يوم دعانا رجل أعمال أردنى إلى الغداء فى أحد المطاعم الشهيرة. فى ذلك اليوم علمنى صاحب المطعم كيف آكل الجمبرى المشوى بالشوكة والسكين بالطريقة الصحيحة دون أن أفقد أدنى

قطعة من لحمه مع القشر. كان الأردنى نفسه يرفض استخدام الشوكة والسكين فى أكل الجمبرى بصفة خاصة والأسماك بصفة عامة، قائلا إنه يشعر بلذة فائقة فى استخدام أصابعه، وإن هذه الوسيلة الطبيعية هى أقرب إلى الفطرة من استخدام القطع المعدنية. لست أذكر تماما كيف تحول الحديث إلى مشروب النبيذ القبرصى ذى الشهرة العالمية.. لاحظ الرجل أننى أشرب النبيذ باستمتاع غير عادى. استأذن منا قليلا ولمحته عن بعد يخاطب صاحب المطعم ثم عاد على الفور. بعد قليل جاء صاحب المطعم حاملا لفافة داخل كيس أنيق سلمه له. عند انصرافنا سلمنى الكيس قائلا:

– نبيذ أوتللو.. أشهر نبيذ معتق فى قبرص.

تأثرت كثيرا بكرمه. شكرته بحرارة ونويت أن أخصص لهذه الزجاجة الثمينة سهرة غير عادية مع النديمين محمد ونسيم اللذين شاءت الأقدار أن يرافقانى فى رحلتى إلى أمريكا، والتى سأتناولها فيما بعد. اتفقت معهما على انتظارى بمنزل نسيم قبل أن أزف لهما بشرى اقتنائى لزجاجة عطيل. طلبت من نسيم أن يعد لنا عشاء فاخرا على شرف هذه الزجاجة بحيث يليق العشاء باستقبال العروس التى سال لاسمها لعابهما معا. الزجاجة كبيرة الحجم تكفى ثلاثتنا كى نمضى ليلة هنيئة نسبح فيها فى بحور الخيال والمتعة. على الهاتف أبلغنى محمد أنه سيساهم فى إدخال السرور

والبهجة إلينا بعلبة من السجائر المحشوة بالحشيش ننسفها معا، فنسيم لا يدخن برغم أنه يستمتع دوما باستنشاق الدخان الأزرق حين تعبق به الغرفة.

قرب الباب نظرت إلىّ جميلة نظرة خبيثة وعيناها على الكيس الذى لم تسأل عن محتواه وأنا على ثقة من أنها تدفع عمرها ثمنا لمعرفة ما بداخله من ممنوعات. ابتسمت لها عرفانا منى بعدم تدخلها فيما لا يعنيها. خرجت وأغلقت الباب من خلفى فى سعادة بينما أمنى النفس بقضاء أمسية لن تتكرر. ما إن خطوت خطوتى الأولى على السلم حتى انزلقت الزجاجة من الكيس فانكسرت محدثة صوتا مسموعا. فى لمح البصر فتحت زوجتى الباب لتجد سائلا أحمر اللون ينساب على الدرج وقد انتشرت رائحته الفواحة فى أرجاء البيت. سارعت بمحاولة التغطية على الفضيحة بأن صببت على السلم عدة زجاجات من الماء أعقبتها باستخدام المسحة الجلدية لإزالة أثر النبيذ من الأرض. كانت النتيجة أن مر سيل النبيذ المخفف بالماء على جميع أدوار المنزل التى تقع تحت شقتنا. لم أحتمل الصدمة. حملت فجيعتى على كاهلى وذهبت متخاذلا منهزما إلى بيت نسيم. تحملت سخرية الصديقين من خيبتى، بل وشاركتهما السخرية من نفسى. انتهز نسيم الفرصة لمجاملتى بتحويل مجرى الحديث إلى شكواه المزمنة عن اضطهاد المسيحيين فى مصر، وعن مقاطعة دور

النشـر المصرية له منذ أن نشر بعض مؤلفاته الروائية فى إسرائيل متحديا قرار مقاطعة التطبيع الذى اتخذه كتاب مصر. أما محمد فقد كان علـى عادته مدمنا لخصلة إرضاء جميع الأطراف، فهو يؤيدنى حين أعارض وجهة نظر نسـيم، ويؤيد نسـيم حين يعارض وجهة نظـرى، أما وجهة نظره هو، والتى لم يعرفها أحد فقد ذهبت معه إلى قبره.

•• سويسرا:

• رأيت الله وجنته على الأرض:

لم يكن الهاتف المحمول قد انتشر بعد، حين جاءنى تليفون من المهنـدس عبد الهادى بالقاهرة. كانت مفاجأة العمر بكل المقاييس. يطلـب منى الاسـتعداد للسـفر معه بعـد أيام ثلاثة إلى سويسـرا لتفقد أحد المصانع المسـتخدمة هناك لاحتمال شـرائها. لم أسـتطع التماسك لفرحتى الطاغية وسـعادتى الفائقة. كنت قد قرأت رواية فرانكنشـتين بالإنجليزية من سلسلة البنجوين والتى كتبتها مارى شـيلى. لم أنبهر برواية أجنبية مثلما انبهرت بهذه الرواية التى فاق الخيال وصف مناظر الطبيعة الخلابة بها من شـلالات ومساقط مائية وبيوت صغـيرة قابعة على قمم الجبال وسـفوحها، تعلوها الأسـقف الهرمية القرميدية الحمراء. خلال قراءتى للرواية كنت

أتصور بخيالى الواسع جمال هذه المشاهد وأعيش فيها بكل جوارحى كمـا لو كانت مشـاهد حية ماثلة أمام عينـى. جاءنى هذا الهاتف السـحرى فى يوليـه ١٩٨٦م على غير توقع ولا فـى الأحلام. على الفور سـارعت بالحصول علـى بعض المطبوعات عن سويسـرا من مكتب الاسـتعلامات بمحطة سـيدى جابر. عرفت أن بها مطارات ثلاثة هم مطار زيورخ ومطار جنيف ومطار بازل.

فجـأة وجدت نفسـى فى مطار زيورخ ومنـه إلى الفندق المعجزة شـيراتون زيورخ. الفندق يقع فى قلب غابة من الأشـجار تحيط به كمـا لو كانت جزءا منه أو كما لو كان جزءا منها. الاثنان متوحدان منصهـران متكامـلان فى مشـهد طبيعى خلاب لا مثيـل لروعته السـاحرة.. ومن على البعد يمكن رؤية مساقط المياه الخفيفة تنحدر من أعالى الجبال وتصب فى بحيرات صغيرة، تصب بدورها فى نهر الراين الذى يغذى معظم أوربا. كنت على يقين من أن البقاء فى هذا الفندق يوما واحدا سوف يطيل عمرى عاما كاملا. كان المهندس عبد الهـادى على موعد مع بعض رجال الأعمـال فى لندن. فوجئت به يفتح حافظة نقوده ويعد لى بضع مئات من الجنيهات الإسـترلينية ويضعها فى يدى قائلا:

– أمامك يومان فى سويسـرا تستمتع فيهما بلا عمل حتى أعود إليك.

حـدث ذلك قبـل توحيد العملـة الأوربية، حيـث كان الفرنك السويسـرى يعـادل ما قيمته جنيـه مصرى. غيرت الإسـترلينى إلى فرنكات سويسـرية فـى البنك الملحق بالفنـدق. أحصيت مئات الجنيهـات التـى أصبحت فـى حوزتـى وحولتها فـى ذهنى إلى جنيهات مصرية حتى تتضاعف سـعادتى.. حجزت أكثر من ثلثى المبلغ للبيت والزوجة والأولاد، أما الباقى فقد قررت أن أستمتع به لأشعر أننى أجنى ثمار عملى ومثابرتى واجتهادى، فمن سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام.

التقيـت فى الفندق بفتاة فنلندية شـديدة الجمـال تدرس علم السـياحة والفنادق وتعمل جزءا من اليوم بالفندق. أشـرت لها إلى صـورة كبيرة ملونة معلقة على أحد الجدران يمرق فيها قطار ملون جميل وسـط غابة من الشـجيرات تحيط به مـن الجانبين. بهرنى المنظر فسألتها:

– كيف أذهب إلى هذا المكان؟

نصحتنى بأن أركب القطار حتى نهايته بعد أن شرحت لى كيفية الوصول إلى المحطة التى سأركب منها ثم قالت بهدوء:

– سأدعك تكتشف بنفسك مواطن الجمال فى تلك المناطق وعندما تعود نتكلم

أهل زيورخ يحتفلون بذكرى مرور ألفى عام على نشـأة مدينتهم بانتشار تماثيل للأسود فى معظم الشوارع، فالأسد هو شعار المدينة

ورمزهـا. يتكلـم أهلها بلغات أربـع مختلفة. منهـم حوالى ٢٠٪ يتكلمون الفرنسـية وحوالى ٧٠٪ يتكلمون الألمانية بلهجة مختلفة عن ألمانية الجنوب التى تشكل حوالى ٩٪ من المجموع بينما يتحدث حوالى ١٪ منهم بلغة غريبة تسـمى الرومانشية وهى لاتينية على وجـه التقريب.. وهذا الشـعب يأكل حـوالى ١٢٠ صنفا من أصناف الجبن الممتاز.

وقفت على محطة القطار فى أقرب منطقة للفندق. على الرصيف لافتة موضح عليها أسماء المحطات ومواعيد الوصول إليها بالدقيقة. قال لى عجوز واقف إلى جوارى إن القطار سـيصل فى تمام السـاعة كذا والدقيقة كذا. ظننته يبالغ فى الدقة لكن ما قاله هو الذى حدث بالفعل. عقول السويسـريين تشبه ساعاتهم تماما فى النظام والدقة والانضبـاط. أمـا الغابات والحدائـق والجبال فقد سـيطروا عليها وجعلوهـا مهذبة الأطراف كما لو كانت أشـكالا هندسـية مدببة الحواف. هذا الانطباع يقلل فى نظرى من جمال المشهد، على عكس ما شـاهدت الغابات والحدائق فى أمريكا وفى دول أوربية أخرى، حيث يتركونها دون تهذيب من الحواف والأطراف، فتبدو طبيعية فطرية خالصة، وبالتالى تكون أكثر جمالا وتلقائية. وصل القطار فى الدقيقة التى حددها العجوز. العربات من الداخل بمقاعدها وأرففها وممراتها ودورات مياهها والكافتيريا الملحقة بها، جميعها تنطق

بآيــات الرفاهية التى ينعم بها هؤلاء القوم. ركبت القطار وعشــت أســعد لحظات عمرى وأنا أتمتع بالمشهد الذى حلمت به يوم زرت السفارة.

• العرب:

بعــد جولة مبهرة بين الجبال والمســاقط المائية، حجزت تذكرة ســياحية لرحلة تطوف بالبحيرات الســبع. عندمــا تأملت موظفة الشركة السياحية فى بشرتى السمراء، حاولت خداعى بأسلوب فج مفضوح حين قالت لى:

– ســأحجز لك تذكرة فى الأوتوبيس السياحى على مقعد شديد الخصوصية

– كيف؟

– سأجلسك بجوار فاتنة حسناء ستكون رفيقتك طول الرحلة

حين جلســت طبقا لرقــم المقعد فوجئت بعجــوز شمطاء تجلس بجوارى فتأكدت من صدق حدســى. إنهم لا يرون فى أهل الشــرق – والعرب بصفــة خاصة – إلا حيوانات آدمية يســيل لعابها على أى امرأة، ولا يتحركون إلا بدافع جنسى. يسمون العرب بأصحاب الباءات الأربعة أو الفور بيز four bees أى الصفات الأربعة التى تبدأ بحرف الباء وهى:

١ – أصحاب الكروش belly owners.

٢ – الإرهابيون bombers.

٣ – سفهاء المشتريات bazar buyers.

٤ – راقصات هز البطن belly dancers.

والحق إننى – رغم استيائى من سوء ظن المضيفة السياحية بى كعربى همجى – قد استمتعت كثيرا بصحبة تلك السيدة العجوز المحبة للحكمة والعاشقة للحياة، وفى الفترة الزمنية القصيرة التى قضيتها معها تعلمت أكثر من درس فى فن الحياة. فى المساء تجولت عند سفح أحد الجبال. رحت أتأمل بانبهار كيف صنعوا مدقات مستوية دائرية حول محيط الجبل، تسير عليه العربات مثلما يسير المترجلون. على كل مدق دائرى يوجد سهم خشبى مثبت بالأرض مكتوب عليه اسم المكان والزمن الذى يستغرقه الوصول إليه سيرا على الأقدام أو باستخدام العربة. وتتنوع الأماكن هنا بين مطاعم وكافتيريات وملاهٍ ليلية ومتاحف طبيعية. اخترت مطعما للأسماك على بعد نصف ساعة سيرا على الأقدام حتى أستمتع بالمزيد من المشاهدة والتأمل لشعب من أرقى شعوب العالم وقد سيطر بإتقان شديد على الطبيعة وسخرها لمتعته وسعادته. أعتقد أن هذه الشعوب تفهم جيدا أن الله خلق الحياة الدنيا ليسعد بها الإنسان فى أى مكان، وكل حسب سعيه واجتهاده.

طلبت طبقا من السلمون المدخن الذى أعشقه والذى يباع هنا بسعر زهيد نظرا لتوافره بكثرة. جاءت لى عاملة المطعم بصينية كبيرة مليئة بقطع مستديرة كبيرة من شرائح السلمون المدخن الوردى اللون، تحيط بها شرائح مستديرة أيضا من البصل. لم تكن العاملة تعرف الإنجليزية ولم أكن أعرف اللغة الغريبة التى تتحدث بها والتى ليست فرنسية أو ألمانية، فكان حوارنا كله بالإشارة مع الاستعانة ببعض الجيران فى الموائد القريبة ليكتمل التفاهم بيننا. كلما انتهيت من شرب زجاجة من البيرة طلبت أخرى. تعمقت رابطة الإشارات بيننا حتى انقلبت إلى ضحك شديد انعكست عدواه على الموائد المجاورة حتى صرنا نضحك جميعا من قلوبنا دون أن نعرف من أى شىء نضحك، وإنما هى السعادة حين تحط بمزاجها على الخلق والزمان والمكان. كلما جاءت العاملة حاملة زجاجة جديدة من البيرة قالت لى بلهجة مرحة وابتسامة جميلة كلاما لا أتفهمه، فأقول لها كلاما لا تفهمه هى الأخرى بمزيج من الإنجليزية والفرنسية والعامية المصرية المتعمدة حتى تزداد جرعة الضحك. لم آكل وأشرب فى حياتى بهذه الشهية والسعادة وأنا قابع فى قلب جنة من جنان الله على الأرض حيث خرير المياه وخضرة الشجيرات وألوان الورود التى لا حصر لها والوجوه الباسمة السعيدة، وصوت غناء الطبيعة المسموع من تغاريد

الطيور الملونة وقهقهات الإنسان السعيد. عندما بدأ رأسى يثقل قررت العودة إلى الفندق. على بابه التقيت بالفنلندية التى أمطرتنى بالأسئلة عن نتيجة رحلتى التى أرشدتنى إليها. قلت لها بصدق:

– أنا متعب جدا

سألتنى وخيبة الأمل تطل من وجهها:

– وماذا ستفعل الآن؟

– سآخذ حماما وأنام

لم أفكر فيها كامرأة على الإطلاق، برغم إدراكى لميلها نحوى ولسهولة إقامة علاقة كاملة معها حسب تصورى. كانت بى رغبة طاغية مستبدة فى أن أصلى لله الذى خلق هذا الجمال الذى عشته وتلك الجنة التى سكنتها لساعات قليلة. بالغرفة سريران وفى الوسط مائدة صغيرة عليها باقة ورد وطبق ملىء بالفواكه وبطاقة ترحيب باسمى. بعد خروجى من الحمام فتحت التلفزيون. أغلقته بعد دقيقتين حتى لا يخرجنى من حالة الوجد الإلهى التى أعيشها. لم أفكر فى اتجاه القبلة وأنا أعلم أننى أينما توجهت فثمة وجه الله. قبل أن أنوى الصلاة وقفت قليلا فى الشرفة المطلة على الغابة المحيطة بالفندق، فتضاعف انبهارى بجنة الله على أرضه حين لمحت غزالين صغيرين يجريان على البعد. استغرقت فى صلاة تعبدية لم ولن تتكرر فى حياتى. لو لم يكن حراما على

لقلت إننى رأيت الله فى هذه الصلاة العبقرية الفريدة التى غسلت روحى بعد تأديتها فى خشوع رائع، ثم نمت على سجادة الأرض نوما عميقا فى المسافة الفاصلة بين السريرين.

* * *

obeikan.com

الفصل الثانى عشر

هنـاك آلاف الطرق التـى تـؤدى إلى التفرد والعظمـة وأغلبها لم يكتشـفها الكثيرون. القوة تعتمد على القدرة على سد الفجوات التى يتركها من سـبقك، وعلى جعل صورتها تتلاشـى من الأذهان – كما كان الفراعنة القدامى يفعلون بإزالة صور وتماثيل من سبقوهم مـن المعابد – وأعظـم طريقة لذلك هو تجنيد الجيـل الجديد الذى ستأتى به معك ضد الحرس القديم الذى كان متسيدا قبل ظهورك.

فى الممالك القديمة كان بعض الملوك يبلغون من القوة حدا يجعلهم يتصورون أنفسـهم فى مراتـب الآلهة. وتدريجيـا كان اهتمامهم الأساسـى يتحول من حماية ممتلكاتهم إلى محاولة السـيطرة على باقى الأفراد. لذا كان من الطبيعى جدا أن يغتال أبناء الملك أباهم ثم يختارون واحدا منهم ليخلفه حتى يضمنوا تأثيرهم فيه وولاءه لهم.

إن لعبة الفوارق بين الأجيال تأتى دائما بأفضل النتائج، كما فعل جون كينيدى الذى حرر نفسـه مـن تأثير آيزنهاور الرئيس القوى الذى سـبقه. لقد قام لويس الرابع عشر بتصرف بسيط حتى يظهر اختلافه عن الملوك الذين سـبقوه، فبنى قصرا جديدا يقيم فيه بدلا من القصور التقليدية، وواصل اللعبة حتى النهاية فرفض أن يرتدى تاجا أو يمسك بيده صولجانا، لأنه أراد أن يشعر الناس أنه يستمد قوته من نفسه وليس من مجرد تقاليد ومظاهر ملكية بالية.

القانون الأخير فى قوانين القوة هو أنه لايوجد قانون واحد ثابت للتعامل مع أى فكرة. المرونة هى التى تربح دائما فى النهاية، فما كان صالحا من قبل قد لايصلح اليوم وما يصلح اليوم قد لايصلح غدا. لذلك عندما تجد نفسك فى صراع أو مواجهة مع شخص جامد شديد الصرامة فى أساليبه وتفكيره، لابد أن تتركه ينتصر عليك انتصارا صغيرا مؤقتا، وثق بأن مرونتك هى التى ستربح الحرب كلها فى النهاية. لابد أن يظل هدفك ثابتا فى جميع الأحوال، أشبه بالأشياء المقدسة التى لايجوز لأحد أن يقترب منها.. المتغير فقط هو تنوع الطرق التى قد تؤدى إلى هذا الهدف.

***

لوث فلاسفة القوة عقل أخى فأحالوه إلى كائن غير آدمى. وليت الأمر قد اقتصر على ذلك، وإنما شاءت الأقدار أن يصيب التلوث والعطب جسده أيضا فسقط فى بئر بغير قرار.

•• أمريكا:

• بلاد المتناقضات والعجائب:

لم يخطر ببالى يوما أننى سأتواجد أنا وأخى نديم فى بلدة واحدة دون أن يعرف أحدنا مكان الآخر، ودون أن يكون لدى أدنى أمل فى العثور عليه لو فكرت فى البحث عنه والاهتداء إلى مكانه.

آلمنى ذلك الأمر بشـدة، ولكنى حاولت أن أتناسـاه ليقينى أن هناك بهـذه الدنيا آلاما أشـد وأعتـى. غير أننى لم أيـأس وتوجهت إلى السـفارة المصرية فى العاصمة الأمريكية لأسأل عنه، فأحالونى إلى الملحق الاقتصادى المختـص. انتفض قلبى فرحا حين قال لى الرجل أنـه يعرفه فهو – على حـد قوله – رجل أعمال شـهير. تبادلنا وسائل الاتصال مكتوبة حتى يتوصل إليه فيحيطنى علما.

خلال جولاتى المتعددة بأمريكا اتصلت بالملحق عدة مرات. آخر مرة قال لى:

– إنـه لا يمكث فى مكان واحد.. اعذرنى لو تأخرت فى العثور عليه.

لم أفقد الأمل، وبعد فترة اتصلت به تليفونيا من ولاية كنت فى زيارتها. كانت ردود الرجل مرتبكة فقد كان يعانى من حرج شديد وهو يخبرنى أن نديم قال له إنه لا يعرف أحدا بهذا الاسم!!

الحق أننى لم أفق من هذه الصدمة حتى الآن..

***

على مدى خمسـة أسـابيع ابتداء من منتصف سـبتمبر١٩٨٩م أمضيتها فى الولايات المتحدة الأمريكية، زرت تسع ولايات من شمال القارة إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها. جاءتنى الدعوة من وزارة

الإعلام الأمريكية USIS وهى اختصار لعبارة: United states information service. كان نجيب محفوظ قد تحدث فى برنامج الأمسية الثقافية الذى يقدمه الشاعر فاروق شوشة عن ثلاثة من كتاب الإسكندرية هم محمد ونسيم وأنا، مشيدا بأعمالنا الروائية. التقط منه الخيط الدكتور نبيل خورى مدير المركز الثقافى الأمريكى بالإسكندرية واستند إلى شهادته كدافع لدعوة ثلاثتنا إلى ررنامج IVP أو «الزائر العالمى» - International visitor pr gram بدعم من مارك هامبلى القنصل الأمريكى العام بالإسكندرية، الذى كان مشهورا بمغامراته النسائية وصداقاته المتنوعة مع رجال السلطة والثروة فى المدينة، فضلا عن صداقته لأصحاب المحلات الكبرى والمقاهى الشعبية التى كان يجلس بها ليدخن الشيشة كأى سكندرى مخضرم.

كان مرافقنا الدائم فى تلك الزيارة شخصية أمريكية مثالية برغم أنه مصرى الأصل. جمال هلال شاب تجسدت فيه البراجماتية الأمريكية تماما، فهو لا يفعل إلا المفيد ولا يتكلم إلا القليل ولايضحك إلا فيما ندر. مثقف سياسى من طراز رفيع حاصل على الماجستير فى دراسات سياسية تخص الشرق الأوسط. كان اختياره لمرافقتنا اختيارا عبقريا بوضع الشخص المناسب فى المكان المناسب تماما.

بعد جولة فى متحف التاريخ الطبيعى بواشنطن دى سى، تناولنا الغداء فى مطعم قريب. تحدث جمال - الذى لم يأكل غير طبق من السلطة - عن أساليب التفكير الرئيسية فى العالم Pattern of thinking فقال إن أفضلها هى الطريقة الغربية

والأمريكية حيث تمثل خطا مستقيما يتجه مباشرة نحو الهدف ويعبرون عنها بقولهم Hitting the target، أما طريقة التفكير الروسية فهى وصول الفكرة إلى الهدف من خلال خط زجزاجى، بينما تعتمد طريقة التفكير الآسيوية بوجه عام على حصار الهدف بالفكرة التى تحيط به وتلتف من حوله على شكل دائرى، ويبقى أسوأ أنواع التفكير وهو أسلوب التفكير الشرق أوسطى الذى يعتمد على خطوط ملتوية لا تصل إلى الهدف إلا بعد عناء.

أردت أن أعاكس نادل المطعم فطلبت منه طبقا من الزنابير ناطقا الاسم بالعربية. نظر إلى الرجل فى دهشة وقال:

– عفوا يا سيدى لايوجد لدينا زنابير.

وكان نطقه لحرف الراء مضحكا لنا جميعا عدا جمال الذى أثار واقعة إقالة مبارك للمشير أبو غزالة وزير الدفاع. أرجع السبب فى ذلك إلى أن الوزير المصرى بالتعاون مع أستاذ جامعى مصرى يعمل فى أمريكا، كانا يهربان إلى مصر مادة تسمى كاربون/ كاربون التى تستخدم فى صناعة الصواريخ طويلة المدى، وذلك دون علم مبارك.

فى مكتبة الكونجرس فوجئت بوجود روايتى المتواضعة «عمالقة أكتوبر» ضمن الكتب الموجودة بالمكتبة ولم أتوصل إلى معرفة الجهة التى أرسلتها إلى هنا. دار حوار بيننا وبين جورج سالم المشرف على القسم العربى حول علاقة الدولة بالإعلام فى أمريكا. فوجئت بجمال يقول إن الدولة لا تمتلك قناة تلفزيونية ولا إذاعة ولا صحافة ولا شىء إعلاميا على الإطلاق!!.. ويقتصر

الإرسال التلفزيونى الحكومى على السفارات الأمريكية بالخارج. ما تملكه الدولة هو السكة الحديد ووزارتا الدفاع والخارجية. أما قرارات الدولة وآراؤها وتوجهاتها فتذاع بواسطة المتحدث الرسمى للبيت الأبيض حيث تنقلها وسائل الإعلام بعد ذلك. أما وزارة الداخلية فمسئولة فقط عن رعاية المنتزهات العامة وصحة الشعب!!!

– وماذا عن البوليس؟

– البوليس قوة محلية لاعلاقة لها بالداخلية.

– ومن الذى يحرس المنشآت والممتلكات العامة؟

– هناك شركات حراسة خاصة تكلف بهذه الأمور.

حكى لنا جورج قصة غريبة عن أحد القضاة الذى كان يحاكم رجلا ضبط وهو يمارس الجنس مع صديقته فى عربته الخاصة المسددة أقساطها بالكامل على بارك فى الطريق السريع. وقع القاضى فى حيرة لأنه لم يجد فى قانون العقوبات نصا يتعامل مع مثل تلك الحالة، فاضطر إلى إصدار الحكم ببراءته من الفعل الفاضح حيث اعتبر العربة ملكية خاصة مثل شقته التى يسكن فيها تماما. لكنه أصدر عليه عقوبة أخرى بتهمة تعطيل الطريق العام بسبب تزاحم الناس وتوقف العربات للفرجة عليهما أثناء الممارسة.

فى نيويورك التقيت بدونالد هيردوك صاحب دار النشر الشهيرة «القارات الثلاث». حكى لنا دونالد باستمتاع غريب

قصته مع الكاتب المصرى غير المعروف فى أمريكا والذى اسمه نجيب محفوظ. قال إنه أراد أن يعطى فكرة للقارئ الأمريكى عن أهم الكتاب المصريين فى رأيه، فطبع له رواية أو روايتين على ما أذكر وقام بتوزيعها على المكتبات ودور النشر. فوجئ أن أحدا من الناشرين لم يهتم بهذا الأمر نهائيا، كما أن الجميع لم يستجيبوا لرجائه المتكرر بمحاولة الاهتمام بتوزيع هذا الإنتاج الجديد للكاتب المصرى غير المعروف.

ثم تمطع دونالد على مقعده ومد قدميه إلى آخرهما وقد انبسطت أساريره فجأة وهو يقول:

– ثم حصل محفوظ على جائزة نوبل!!

انفجر فى الضحك وهو يقول إنه كان يحتفظ بترجمات إنجليزية لبعض من رواياته حصل عليها من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والتى قال لنا محفوظ عنها فيما بعد بالنص الحرفى:

– أنا لولا ترجمات الجامعة الأمريكية كنت رحت فى داهية.

قال هيردوك إنه كان يبيت فى المطبعة لأيام عديدة متتالية ليلاحق طبع هذه الروايات وقد انهالت عليه الطلبات من نفس الناشرين والموزعين الذين سبق لهم تجاهل دعوته، يتوسلون إليه فيخاطبهم بعظمة وكبرياء قائلا:

– انتظر حتى يأتى دورك فأسلمك عددا محدودا من النسخ!!

كان سعيدا جدا وهو يحكى عنهم بنبرة مكتظة بالتشفى وروح الانتقام. أهدانى منها روايات أربع هى: أولاد حارتنا، وكان عنوانها Children of Gebelawy وميرامار وزقاق المدق وحكايات حارتنا التى كان عنوانها: Fountain and tomb.

فى الصباح اصطحبنا المرافق إلى تجمع شعبى شبه نقابى للمحالين إلى التقاعد من مقاطعة ديكسون الصغيرة التابعة لولاية إلينوى. حضرنا الاجتماع الذى بدأ بأن دق الرئيس جرسا صغيرا فوقف الجميع ينشدون تحية العلم الأمريكى، ثم وقف أحدهم بين الصفوف وراح يتلو بعض الآيات من الإنجيل، ثم عرفهم بنا فصفقوا لنا بمحبة وترحيب. خلال الاجتماع ناقشوا أمورا محلية تخص أحياءهم السكنية. كان من الواضح أنهم أشبه بمجلس محلى مصغر، لكنه قادر على اتخاذ القرارات وإجبار السلطات على تنفيذها فورا. فى ذلك اليوم اتخذوا قرارا بشراء موتوسيكلات طوارئ تخصص للنجدة العاجلة فى الشوارع والطرقات الضيقة.

زرنا متحف جون دير صاحب أكبر مصانع للمحاريث فى أمريكا. سلمونا كتيبا صغيرا يحكى قصة حياة ذلك الحداد العصامى منذ كان صبيا فقيرا غرق والده فى البحر وعاش فى ضنك مع أمه التى كانت تغزل الخيوط باستخدام إبرة التريكو على ضوء مصباح صغير. كان الطفل جون منبهرا بحرف الإبرة حين ينعكس عليه ضوء

المصباح فيصدر عنه ما يشبه الفلاش المتقطع على نوبات زمنية ثابتة. كبر جون ومازالت الحافة المدببة كامنة فى سريرته حتى اخترع المحراث وأقام الشركات الكبرى لصناعته وأصبح من كبار رجال المال والصناعة الأمريكيين.

انتقلنا بعربة إلى مطار أوهيرا بشيكاغو ثم بالطائرة إلى بوزمان بولاية مونتانا الواقعة فى الشمال الغربى من القارة الشاسعة التى أنعم الله عليها من خيراته بغير حساب. من الفندق توجهنا إلى مزرعة يمتلكها أمريكى يرتدى زى الكاوبوى كاملا واسمه جورج. يسمون المزرعة Ranch وفيها تربى الأبقار والخيول والدواجن وتزرع أنواع عديدة من الفواكه والحبوب. يساعد جورج فى المزرعة مجموعة من الطالبات القادمات من ولايات مختلفة نظير أجور مناسبة تعينهم على نفقات الدراسة. وقفت بعيدا أراقب الغزلان تجرى فى الأحراش القريبة حين اقترب منى جورج هامسا فى نبرة صادقة:

– نحن لا نعيش من الطبيعة فقط وإنما نعيش معها.

قالت لى إحدى الفتيات حين لاحظت انبهارى بالغزلان إنه ممنوع صيدها فى أوقات محددة من العام لإتاحة الفرصة للحمل والتكاثر. دعانا جورج لتناول الغداء ببيته الكائن وسط المزرعة. كانت صدمتى شديدة حين انتهينا من تناول الطعام ونحن نعبر عن

امتناننا الشـديد لكرم جورج الزائد، وإذا به يقول لنا بكل بسـاطة ودون أدنى حرج:

– حساب كل واحد منكم عشرون دولارا!!

إذن فقـد دعانا إلى مائدتـه ولكن على نفقتنا.. أنـا لا أفهم هذا العالم المادى فى كثير من الأحيان.

أقلتنـا طائرة إلى مدينة سـولت ليك ثم طائرة أخـرى إلى مطار لاكـس وهو اختصار لجملة مطار لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا. توالـت نوادر محمـد ونحن متجهون إلى هذه الولايـة، ففى المطار دخـل بذهولـه المعتاد دورة ميـاه السـيدات دون أن يدرى، حيث فوجئنا بسـيدة تخرج صارخة من التواليت فى فزع، بينما لم يدرك محمد ما فعله حتى بعد خروجه وصياح السيدة الذى لم يكن يدرى ما سـببه. أما فى الطائـرة المحلية الصغيرة التـى نقلتنا إلى مطار لاكس فقد كانت المطبات الهوائية كثيرة فى الطريق، وربما لم يكن الطيار ماهرا بما فيه الكفاية بحيث يمكنه تفاديها أو التعامل معها بمهارة، لأننا كنا نتعرض كل بضع دقائق إلى ما يشبه السقوط المفاجئ للطائرة فى الهواء والذى يكاد القلب ينخلع منه خوفا ودهشة. راح نعيم لشـدة فزعه يقرأ آيات من الإنجيل فى رعب شديد وكأنه على ثقة تامة من أنه سـيودع الحياة بعد قليل. أما محمد فقد راح يتنقل فى بلاهة من مقعد لآخر لاعتقاده الساذج أن بعض المقاعد لن تعرضه للإحسـاس بالهبوط من جـراء تلك المطبات. ولأنه لم يسـتقر على

مقعد محدد فى النهاية فإنه دون أن يدرى أثار اشتباه المضيفة فى كونه إرهابيا أو مجرما من قناصى الطائرات فنهرته بشدة وطلبت منه الجلوس فورا على أقرب مقعد وربط حزامه بدلا من الذهاب والمجىء بطول الطائرة.

لم ينس محمد قبل امتثاله فى رضوخ لأوامر المضيفة أن يتوجه إلى نسيم فى ركنه متوسلا إليه فى مكر:

– وحياة النبى يا نسيم تقرأ لنا ربعين من الإنجيل بتاعك لأنى متأكد أن نهايتنا قربت خلاص.

ذهبنا يوما فى رحلة نيلية على ظهر باخرة بنهر المسيسيبى أطول أنهار العالم وانتهت الرحلة بزيارة حديقة الحيوان. شربنا وانتعشنا وضحكنا كثيرا أنا ومحمد ونحن نتنقل من مكان إلى آخر بالباخرة، بينما راح نسيم يشكو لشاعر مجهول التقينا به من اضطهاد المسيحيين فى مصر وخاصة الكتاب. عندما عدنا إلى الفندق التقطت صورة لتمثال فارس على حصان يمثل آندرز جاكسون الذى أنقذ أورليانز أثناء الحرب ضد إنجلترا عام ١٨١٥م. ولم أكن أعلم حتى ذلك اليوم أن كولومبوس قد اكتشف قارة أمريكا دون أن تطأها قدمه، لأنه توقف عند المكسيك، وكان فاسكو دى جاما قد اكتشف من قبله طريق رأس الرجاء الصالح كبديل للطريق البرى إلى الهند التى كانت أهم المستعمرات البريطانية.. وما كاد خبر اكتشاف أمريكا يصل إلى العالم حتى سارعت دول عديدة بإرسال المستكشفين إليها، كما أرسلت إليها المتمردين والمنفيين فضلا عن راغبى الهجرة

من إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا. حدث ذلك تحت الحكم البريطانى الذى كان يجبر المستعمرات المختلفة على دفع الضرائب وشراء منتجاته إجباريا، حتى جاء يوم قرر فيه أصحاب هذه المستعمرات الامتناع عن دفع ضريبة الشاى تمردا على الملك جورج. أرسل الملك جيشا لتأديبهم، لكن هذا التمرد كان إرهاصا لتحرير وثيقة الاستقلال فيما بعد والتى وقعها جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وثلاثة آخرون، وقد عرف هؤلاء جميعا باسم الآباء المؤسسين: Foundation fathers، ومن مقولاتى الساخرة إن تاريخ أمريكا قد أسسه صبى محامى هو لنكولن وسكير هو سكوت.

فى حوار مع الكاتبة والناشرة الفلسطينية سلمى الجيوشى وكان بصحبتنا المرافق جمال هلال وصديق لهما، قال الصديق إن أمريكا ودول أوربا يتعاطفون مع إسرائيل لكونها دولة ديمقراطية محاطة بوحوش من العرب المتخلفين، ولذلك كانت سعادتهم بالغة بهزيمة العرب الساحقة فى يونيو ١٩٦٧م، لكن بمرور الزمن بدأت تظهر مؤشرات لتحول ملحوظ للرأى العام عن هذا الموقف وهو إعادة النظر فى التأييد المطلق لإسرائيل فى مقابل العداء المطلق للعرب. وقد أرجع الصديق هذا التحول للأسباب الثلاثة الآتية:

١ – مبادرة السادات للسلام مع إسرائيل.

٢ – غزو إسرائيل للبنان غير المبرر سوى بالعنصرية والاستيطانية.

٣ – الانتفاضة الفلسطينية.

وقال جمال هلال فى حماس: «إن كل الأنظمة العربية بما فيها مصر – عدا الشعب الفلسطينى – قد استفادت من وجود إسرائيل بالمعونات الأمريكية والتى يخص مصر منها ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار، لا تدفعها إلا لأجل عيون إسرائيل وأمن إسرائيل وليس لسبب آخر.. إن نصف المعونة الأمريكية الإجمالية الموزعة على العالم تستهلكها مصر وإسرائيل معا، ولو كانت الحكومات المصرية أكثر وعيا لاستفادت من هذه المعونات ففى إصلاح اقتصادها المتدهور، لكنها تستخدم معظمها لشراء الأكل والشرب للشعب والباقى لشراء الأسلحة».. ثم ضرب جمال مثلا على ذلك بإصرار مصر على الحصول على امتياز تصنيع الدبابة (إم. و. إن) بمصر برغم تهالك مصانع حلوان للحديد والصلب، والتى أصر الكونجرس على تحديثها أولا حتى تستطيع إنتاج السبيكة اللازمة لماسورة الدبابة، وقال إن إصرار مصر على تنفيذ ذلك المشروع سيجعل الدبابة تكلف على مصر ثلاثة ملايين دولار، بينما تبيعها أمريكا للعرب بسعر يقل كثيرا عن ذلك.

واستمرارا فى حديثه المنحاز إلى إسرائيل قال: «إنه لولا إسرائيل لما تمكنت الأقلية العلوية برئاسة حافظ الأسد من حكم سورية برغم أن العلويين لا يتجاوزون خمسة فى المائة من الكتلة السورية والتى يشكل السنيون فيها الأغلبية العظمى. وسوريا لا تستطيع ولا تريد أيضا أن تحارب إسرائيل لكنها تردد دائما

أنــه لا صوت يعلــو فوق صوت المعركة ولكن فقــط فى الميكروفونات ووسائل الإعلام الخاضعة تماما للحكم والمؤتمرة بأوامره والخاضعة لاتجاهاته.. أما بالنســبة للأردن فلا توجد دولة من الأساس اسمها الأردن ذات تاريخ معروف، لكن الأصل فيها أن التقسيم البريطانى جاء بأســرة سعودية هى الأسرة الهاشمية من الضفة الشرقية لنهر الأردن حيث نجح الملك حســين فى تكوين دولة من لاشىء، وبرغم أن كل ســكانها من الفلسطينيين فإنه جنسهم بالجنسية الأردنية، أما نســبة البدو الذين هم عرب هذه المنطقــة الأصليين فهى ضئيلة جــدا، وهم فى الواقع أعدى أعداء إســرائيل، كما أن الفلســطينيين أنفسهم يكرهونهم أكثر مما يكرهون الإسرائيليين».

عندمــا نظرت بالتلســكوب من أعلى برج الإمبايرســتيت على تمثــال الحرية القابع فوق جزيرة صغــيرة اسمها جزيرة الحرية، ثــار بداخلى تســاؤل ملح: «هــل أمريكا فعلا دولــة تمارس الحق والعــدل والحرية مع العالم أم مع شــعبها فقــط»؟.. وأخيرا اندفع جمال المصرى الأصل الأمريكى الجنسية والروح قائلا:

– إن أساس تخلف العرب هو الدين.

نظرت إليه فى دهشــة دون أن أعلــق على وجهة نظره القاطعة. لم يعبأ بنظراتى وواصل قوله:

– وإســرائيل تلعب على هــذا الوتر دائما بنجاح شــديد فتعمد إلى إثارة الفتن والضغائن والحروب بين الشــيع والمذاهب الإسلامية والمســيحية المختلفة، ولا ينســى أحدكم أن شــارون هــو الذى فتح

الطريق للموارنة ليتمكنوا من إنجاز مذبحة صبرا وشاتيلا بخسة منقطعة النظير.

التقينا بالدكتورة المصرية منى ميخائيل فى مكتبة بوبست الملحقة بجامعة نيويورك، وقد جمعت معظم تحف هذه المكتبة من بيت آل القوتلى فى سوريا حيث كان قد اشترى هذه الممتلكات منذ زمن بعيد، كما وضعت نافورة سورية فى المدخل ومن حولها بلاط فسيفسائى على الأرضية من طراز دمشقى فريد.

كانت المفاجأة أن وجدت لى مجموعة قصصية عنوانها «قبلة الملكة» ضمن محتويات المكتبة مسجلة باسمى وهى صادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق قبل ذلك بعدة سنوات. أهدى نسيم روايته الأخيرة «بقطر» – الصادرة من إسرائيل – إلى الدكتورة منى متفاخرا بأن طالبا إسرائيليا سيحصل عنها على الدكتوراه فى جامعة تل أبيب. فوجئ بأنها أعادت إليه الرواية بغلظة قائلة:

– خذ بلا نيلة!!

تجاهل اعتراضها الصارخ على نشره أعماله بإسرائيل قائلا:

– إن البروفيسور ساسون سوميخ أستاذ محترم وناقد عالمى، وقد التقيته بالإسكندرية وأعطيته كل أعمالى لنشرها بإسرائيل

قالت له متأففة:

– بالك كلهم أوساخ.. سيستغلونك سياسيا ثم يلدغونك بعد ذلك.

تدخلت فى الحوار مستفزا نسيم عن عمد:

– أنـا التقيت بهـذا الرجل يوم فرض نفسـه على ندوة نجيب محفوظ بسـان اسـتيفانو، وهو رجـل أقل ما يمكـن أن يوصف به – فى رأيى – أنه ابن وسخة!!!

ثار نسـيم وأشاح بيده غاضبا معترضا على لفظتى البذيئة لكن لم أعبأ به بل على العكس كنت سعيدا.

هـو ملكى دائما أكثر مـن الملك، ففى الحفـل الختامى للبعثة برئاسـة مسـتر جراهام تحدث نعيم عن الأقليات فى أمريكا قائلا إنهـا لا تعانى أى نـوع من أنـواع الاضطهـاد، وأن أمريكا تعتبر دولة رائدة فى تعليم شـعوب العالم كيف تحترم الأقليات وتحافظ علـى حقوقهم. لكن جراهام رفض هذا الرأى قائلا ببسـاطة إن هذا لا يحـدث فى معظم الأحيان، فما زالت التفرقة العنصرية موجودة بدرجـات متفاوتة فـى مناطق مختلفـة. لم يرعو نسـيم أمام هذه المواجهة القاسـية وإنما تمادى فى احتقار ذاته ووطنه بأن قال إنه كان يعتقـد – كما يعتقد سـائر المصريـين – أن مصر هى أم الدنيا، لكنـه تعلم من أمريكا أن مصر ما هى إلا بلدة صغيرة ضئيلة الشـأن لدرجـة أنه التقى ببعض الأمريكيين الذين لا يعرفون أن هناك بلدا على الخريطة اسمها مصر.

فى كلمته التى ألقاها فى الحفل بالغ فى شكر حكومة الولايات المتحـدة الأمريكية بشـكل غير لائق، أما محمد فـكان أقل مبالغة

وكانت الكلمتان مرتجلتين، أما كلمتى فكانت مكتوبة ومعدة سلفا بعناية فائقة، تحدثت فيها عن جودة الترتيب والتنظيم للبعثة، ثم انتقلت إلى الموضوعات التى أوليتها كل اهتمامى خلال الزيارة مثل الفوارق بين الشعب الأمريكى والشعوب الأوربية، والفرق بين ممارسة الحرية فى أمريكا وفى الدول النامية مثل مصر، وتأثير الحرية فى حياة الإنسان وسعادته فى أى مكان، كما تحدثت عن المشاكل الاجتماعية فى أمريكا مع التركيز على الحياة الزوجية والعائلية. كما عبرت عن إعجابى بأقوام جاءوا من أصول مختلفة ومتنوعة ثم نجحوا فى إقامة حياة رائعة فى ظل القانون والدستور. التفرد الأوربى والتنوع الأمريكى كان أيضا من الموضوعات التى اهتممت بتناولها فى كلمتى. أخيرا تحدثت عن الهموم العالمية المشتركة بين الأدباء فى مصر وأمريكا وكل بلاد العالم برغم تفاوت الإمكانيات والقدرات.

فى صباح الأربعاء ١٩٨٩/١٠/١٨م غادرنا نيويورك من مطار جون كينيدى إلى مطار شارل ديجول بباريس ومنها إلى مطار النزهة بالإسكندرية حيث وصلنا يوم الخميس، وكانت هذه الطائرة هى الطائرة رقم١٤ التى ركبتها خلال هذه الرحلة بأكملها.

بعد وصولنا بأيام قلائل فوجئت بمحمد رفيق الرحلة يأتى إلى منزلى بأنفاس لاهثة كأنه يحمل فى جعبته أهم نبأ فى الدنيا. فوجئت به يستعجلنى بإلحاح قائلا بلهفة صبيانية تتعارض تماما مع عمره:

– يلا بسرعة.. القنصل الأمريكى العام بانتظارنا فى فيلته، ونسيم سبقنا إليه.

صببت عليه جام غضبى من هذا القنصل المتغطرس الذى يطلبنا للقائه على الفور دون موعد مسبق. الحق أننى لم أكن مرتبطا بما يمنعنى من الذهاب، ولكنى بعد شحنة هائلة من التوبيخ ألقيتها على محمد لشدة تهافته على طاعة القنصل والامتثال لرغبته وأوامره، قلت له أن يخبر القنصل إننى مرتبط بموعد آخر ولن أستطيع الحضور وإنه كان ينبغى عليه إخطارى برغبته فى اللقاء مسبقا. وبالفعل لم أحضر اللقاء، لكنى – بعد يومين – حضرت المؤتمر الصحفى الذى عقده القنصل بالمركز الثقافى الأمريكى لثلاثتنا حتى نتحدث عن انطباعاتنا العامة عن الزيارة التى استغرقت أكثر من شهر فى الولايات المتحدة الأمريكية كأدباء وضيوف على هيئة الاستعلامات الأمريكية.

قبل الحضور أعددت مقالا بعنوان «أمريكا فى عيون مصرية» سلمت نسخة منه يوم المؤتمر إلى الصديق الصحفى علاء رفعت بجريدة الوفد وقد قام بنشره فى الجريدة بعد يومين من انعقاد المؤتمر.

استفاض كل من نسيم ومحمد فى كيل المديح للحكومة الأمريكية وسياساتها الدولية والإطراء على النعيم الذى يتمتع به الشعب الأمريكى من حرية ورخاء ورفاهية. لم يتعرض أحدهما لأمريكا بكلمة نقد موضوعية واحدة.

أهـم ما جاء بكلمتى أن أمريكا كانت وما زالت وستظل منحازة لإسـرائيل على حسـاب المصالح العربية. أعقبت ذلك بتحديد بنود أربعة سـبق أن أرسلتها مكتوبة إلى القنصل الأمريكى الحالى والذى سـبقه أيضا. تؤكد هذه البنود صحة ادعائى الذى أطلقته فى البداية عـن الانحياز الأمريكى المطلق لإسـرائيل. ذكرت فـى البند الأول تصريـح الرئيس الأمريكى رونالد ريجان الغريب والمثير للغيظ بأن الانتفاضة الفلسـطينية ليست انتفاضة شـعبية كما يدعى العرب، وإنمـا هى أعمال إجرامية بتحريض خارجى!!!.. ثم أشـرت فى البند الثانى إلى الواقعـة المخزية بتصويت أمريكا فى الأمم المتحدة بالموافقـة على قرار يلغى قرارا سـابقا كان قد أقـر بأن الصهيونية حركـة عنصرية، كما نوهت فى البنـد الثالث بمهزلة إجبار مصر على التوقيع على اتفاقية الحظر النووى دون أن توقع إسرائيل عليها بمباركـة ودعم أمريكـى.. وأخيرا تحدثت عن مغزى نقل سـفارة أمريكا فى إسـرائيل من تـل أبيب إلى القـدس باعتبارها العاصمة الموحدة لإسـرائيل. وبالطبع لم أغفل فى خطابى ذكر المناطق المضيئة فـى الحياة الأمريكية والتى تطمـح كل دول العالم فى أن تنال حظا مثلها من السعادة والحرية والرخاء.

كان القنصل السـعودى بالإسـكندرية يتابعنى بنظرات ملؤها الإعجـاب والتقدير، بينمـا كان بعض المصريين فى دهشـة بالغة واسـتنكار لمـا أقول. مـا إن وصلت إلى المنزل حتـى جاءتنى مكالمة

هاتفية من السيدة آمال سرحان الرئيسة المصرية للمركز الثقافى الأمريكى. كانت تخاطبنى وهى فى منتهى السعادة مرددة المثل الشعبى المصرى القائل:

– ستى لئيمة وأنا ألئم منها.. تعد اللحمة وأنا أقطع منها!!

كانت تقصد أننى برغم كل ماقلته لم يغضب الأمريكان منى لأنهم يتمتعون بثقافة اختلاف الرأى دون غضب، وقد أكد لى صحة رأيها القنصل الثقافى الأمريكى نبيل خورى حين سألته:

– هل أغضبكم اعتراضى الواضح على سياستكم فى الشرق الأوسط؟

ضحك بخبث عربى أمريكى ثم قال:

– إننا لسنا بحاجة لمن يمتدحنا، لكننا بحاجة إلى من ينتقدنا حتى ننتبه إلى عيوبنا ونصلحها.

– وما قولك عن المصريين الذين غضبوا منى واعتبروا تصريحاتى بمثابة نكران لجميلكم ؟

– إنهم يريدون أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك.

• **رسائل من عالم الملكوت:**

قلت من البداية إنه استرسال، وهكذا أسميت روايتى – أو إن شئتم تقاسيمى الروائية – قبل أن أخط فيها حرفا. إذن فلا يلومننى أحد حين لا ألتزم بتسلسل زمنى، أو أنسى بفعل الشيخوخة فأكرر ذكر حدث سبق أن ذكرته فى موضع سابق. إن من يصبر على قراءة استرسالى حتى نهايته سوف يعد فى نظرى من الأبطال، فضلا عن

أننى لن أنسى جميله مدى الحياة لو أعاد ترتيب فصول هذه الرواية بمعرفته حتى يأنس إليها ويحبها.

أريد أن أقول إن هناك رسائل شفرية عديدة ترسلها السماء إلى الإنسان، وصاحب الحظ السعيد هو الذى يحسن استقبال هذه الرسائل، فلا تمر عليه دون أن يدرى بها. صاحب الحظ السعيد هذا لابد أن تكون مرآة قلبه السليم مصقولة بالتنقية والتخلية، متخلصة تماما من حجب الدنيا المتغيرة والزائلة، والمتمثلة فى صور ومظاهر الجمال النسبى فى الكون. حينئذ يستقبل قلبه الأنوار العلوية من شمس الحقيقة الكلية وأصل الجمال الأزلى الإلهى فى يسر ودون عناء، ليكون من السعداء المحظوظين فى الدنيا والآخرة.

برغم أخطائى البشرية التى لا تعد ولا تحصى، فإن الله قد وهبنى جهازا شديد النقاء والحساسية أستقبل به الرسائل الواردة إلى من جلالته إلى شخصى الضعيف على الوجه الأكمل، حتى لو لم أستجب لدواعيها.. وكثيرا ما أقول لأصدقائى إن ربنا «مدلعنى» أى أنه يدللنى كثيرا فوق ما أستحق من رعاية وعناية وتدليل.

من تلك الرسائل المهمة ليلة أن تمنيت الموت لشدة الألم الذى ظل يعتصر صدرى فجر ليلة من ليالى نوفمبر الباردة ومع ذلك فقد كنت أنوى تحمل الألم حتى يطلع النهار فأتوجه إلى المستشفى، لكن جميلة أصرت على أن ننزل على الفور وكانت الساعة تقترب من الرابعة والشتاء ينهمر بشدة. أوقفت «تاكسى» وذهبنا إلى

أقرب مستشفى خاص. قال الطبيب إنها جلطة حادة بالقلب فسقطت جميلة مغشيا عليها. عندما أفاقت شكرتها الطبيبة على إصرارها على سرعة إحضارى فور حدوث الأزمة. قالت إنها لو تأخرت ساعة أو أكثر لحدثت لى كارثة. أنا واثق بأن السبب المباشر لحدوث هذه الجلطة هو شدة ألمى وأنا أكتب رواية الحب والزمن مسجلا وقائع الفساد العظيم الذى ساد عصر مبارك. ولسوف أكتفى بذكر واقعة واحدة من وقائع الفساد التى أدمت قلبى، إذ أمر رئيس مجلس إدارة شركة خدمات البترول الجوية بإعداد طائرة تسع خمسين فردا، جهزت بأحدث أطقم «السرفيس» المستوردة لزوم السادة ركاب هذه الطائرة، دفعت تكلفتها من المال العام المتروك فى يده، كما لو كان ملكية خاصة، وذلك لنقل وزير البترول وأسرته، ونائب رئيس مجلس الوزراء وأسرته، من القاهرة إلى مرسى مطروح لقضاء المصيف هناك.. ويا إلهى فقد نسيت زوجة الوزير حقيبتها بالقاهرة، وعلى الفور أصدر سيادته أمرا بإقلاع طائرة أخرى سعة اثنين وخمسين راكبا لحمل حقيبة الهانم فقط وإعادتها إلى مرسى مطروح.. وقد أقلعت الطائرتان فى اليوم نفسه خاليتين بلا ركاب!!

نشرت الرواية فى يونيه ٢٠٠٧م على حلقات مسلسلة بجريدة الدستورالمصرية، حيث لم يكن يجرؤ رئيس تحرير جريدة معارضة فى مصر – عدا إبراهيم عيسى – أن ينشر مثلها على الإطلاق، وأنا لا يمكن أن أنسى توسلات زوجتى ألا أنشرها، محذرة إياى من السجن والضرب والتعذيب، حيث كانت سلطات الأمن التى

لا تعمل إلا فى خدمة الرئيس وأسرته، فى حالة سعار جنونى ضد الفكـر والمفكرين والكتاب المعارضين الأحرار، وحيث كانت حالتى الصحيـة فى الحضيـض على إثـر الجلطة التـى داهمتنى بمجرد الانتهاء من كتابة الرواية.. كان ردى عليها بالحرف الواحد:

– أموت وتنشـر هذه الرواية، لأنها لو لم تنشـر الآن سـأموت بالفعل!

ثـم أعطيتها كشـفا بمجموعة أسمـاء من أصدقائـى الصحفيين الأحـرار، مازلت أحتفظ به حتى اليـوم، طالبا منها الاتصال بهم بعد اعتقالى، لإعلان الخبر على الرأى العام.

الجديد فى تجربتى مع «الحب والزمن» دونا عن سـائر رواياتى السـابقة، هو أننى كنت طوال كتابتى لهذه الرواية، وطوال نشـر حلقاتها الثلاث عشـرة أسبوعيا بجريدة الدسـتور، أتخيل رجال الأمـن والمباحث وهم يقتحمون بيتى فجرا كمـا اعتادوا بحقارتهم ودناءتهم منذ أن ابتليت مصر بحكم العسكر، وبرغم ذلك فقد انقلب الأمـر معى إلى تحد وعناد، وأصبحت مسـألة شـخصية إلى جانب كونها مسـألة عامة، إذ اسـتبد بى اعتقاد راسـخ بأننى لو لم أفعل ما أفعل، فسـوف أمضى بقية أيام حياتى شاعرا بالجبن والتخاذل، إلى جانب الشـعور بالذنب لجريمة السكوت عن الحق والخوف من مواجهة السـلطان الجائر، كما استبد بى إحساس يقينى بأنى بعد الانتهاء من كتابة هذه الرواية ونشـرها بأننى سـوف أموت راضيا

عن نفسى، شاعرا أننى أديت رسالتى وقمت بدورى فى تسخير الموهبة التى منحنى الله إياها لخدمة وطنى الحبيب.

شفيت من الجلطة وآثارها، كما أعمى الله عيون وزارة الداخلية عن روايتى فلم يمسسنى أحد بسوء. رسالتان مباشرتان تلقيتهما من السماء فأحسنت استقبالهما، ولم أكن أعلم أن هناك رسالة جديدة فى الطريق.

عندما بدأت مظاهر سرطان البروستاتا تأتى بأفعالها القبيحة فى جسدى، تلقيت رسالة من هذه الرسائل بينما كنت ممددا تحت جهاز الأشعة المقطعية، إذ ما إن بدأ تشغيل الجهاز حتى انطلق صوت أذان الظهر وفهمت الرسالة فشعرت بطمأنينة شديدة وارتسمت على وجهى ابتسامة رضا.

بعد ذلك توجهت لجهاز المسح الذرى لتتبع خطوات انتشار المرض اللعين فى جسمى. ما إن بدأ الفنى المختص فى تشغيل الجهاز حتى أذن لصلاة المغرب. أدركت أنها رسالة طمأنينة ثانية من جلالته وكأنه يقول لى لاتخف فأنا معك. أنا الذى ابتليتك بالمرض وأنت الذى ستصبر وأنا الذى سأشفيك بإذنى.. وجاءت نتيجة المسح الذرى مطمئنة إذ تبين أن اللعين لم يغادر منطقة البروستاتا بحمد الله. قرر الأطباء أن تجرى لى عمليتان متعاقبتان الأولى هرمونولوجية والثانية إشعاعية. من الغريب أن تأتينى رسالة أخرى بأن يتحدد موعد العملية الأولى ليلة غرة ربيع الأول١٤٣٠هجرية ليتوافق مع

عيد ميلادى الثانى والستين. بعد نجاح العملية بعدة أيام بدأت جلسات العلاج الإشعاعى وعددها أربعون جلسة. أذهلنى أن تكون تكلفتها عشرة آلاف جنيه. لولا ستر ربنا أننى كنت قد اشتركت مؤخرا فى مشروع للرعاية الطبية تدعمه الشركة لكان لزاما على تدبير تلك التكلفة ولو باللجوء إلى الجن.

ثم جاءت رسالة المفاجأة الطبية الكبرى بخلو جسدى تماما من خلايا السرطان اللعين، وذلك بعد انتهاء العلاج وإجراء التحاليل اللازمة. طلب منى الطبيب المعالج أن أصلى ركعتين شكرا لله على تلك النتيجة الأشبه بالمعجزة. واظبت على صلاة هاتين الركعتين وفوقهما تسع ركعات قبل صلاة الفجر منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم.

غير أن معاصرتى لأحداث ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م تعتبر أهم الرسائل الإلهية، ساعة انهمرت فى البكاء من شدة الفرحة وسط المظاهرات الصاخبة أمام جامع إبراهيم. بسقوط الطاغية شعرت أن تعبى وإرهاقى وإصابتى بالجلطة لم يذهبوا هباء وأن رسالتى بالحث على الثورة قد تحققت، وأنه لا داعى للكتابة بعد الآن.

بالفعل لم أرغب فى الكتابة لفترة طويلة حتى سرق الإخوان الثورة، فانسدت نفسى عن الكتابة أكثر وأكثر، وشعرت بأن مصريتى قد ضاعت منى وأن مصر لم تعد مصر على الإطلاق. كانت أسوأ أيام عمرى هى الأيام التى حكمنا فيها هؤلاء الظلاميون أعداء الحب والفن والحياة.

فى نفس هذا العام المشحون بالأحداث ابتليت برسالة أكثر خطورة من كل الرسالات السابقة، إذ انزلقت قدمى فى الطريق واصطدمت رأسى بشدة بموتوسيكل واقف أمام الرصيف، فأصبت برشح فى المخ راح يتسرب تدريجيا حتى أفقدنى اتزانى وأحدث لى مايشبه الشلل النصفى وأصبحت مهددا بحدوث جلطة فى المخ وشلل كلى. حدث ذلك كله نتيجة لسوء تشخيص الطبيب. أجريت لى عملية شفط للسائل النخاعى من داخل الجمجمة بعد ثقبها بواسطة «الشنيور» كأى جسم معدنى، وقد قام ابنى الحبيب أحمد سعيد بكل الأعمال الإدارية الخاصة بأوراقى مابين الشركة المعالجة والمستشفى والطبيب والصيدليات التى كان يحضر لى منها الأدوية. كان انزعاجه شديدا بعد أن شرحوا له فى غيابى نتيجة الرنين المغناطيسى. أخبرتنى زوجته رانيا أنه فى تلك الليلة ظل يبكى وينهنه فى بيته كالأطفال، ولم يخبرنى بما عرفه إلا بعد نجاح العملية.

وتأتى رسالة أخرى شديدة الوضوح والأهمية. كان الاتصال بينى وبين صديقى الجميل فكرى سعيد قد انقطع منذ حوالى عشرين عاما، حين انتقل فكرى للمعيشة وحده فى العجمى بعد انفصاله عن زوجته. اتصلت به هاتفيا لأطمئن على أحواله بعد صعوبات مالية عديدة مر بها واضطرته إلى إغلاق دار النشر التى كان يملكها ويديرها بمعاونة أبنائه. واظبت على الاتصال ببيته فى العجمى دون أن أتلقى ردا. حصلت على رقم هاتفه الجوال فعلمت أنه مرض

مرضا شـديدا وأصبـح يعيش بمنزل أحد أبنائه فى سان اسـتيفانو للإشـراف على علاجه. فـرح باتصالى كطفل، وعـبر لى عن رغبته الشـديدة فى أن يرانى ويتحدث معى فوعدته بزيارة قريبة وكانت نيتـى مخلصة لوجه الله فـى هذا الوعد بقدر صـدق نبراته المعبرة عـن رغبته فى لقائـى. تحدثنا عن أبنائنا حديثـا عابرا عرف منه أن منـى لم تتـزوج بعد. مرت أيام قليلة على تلـك الزيارة وإذا به يتصل بى بعد عدة أيام ليتحقق على يديه حلم من أهم أحلام حياتى وهـو زواج منـى. حدثنى عن محمد ابن أخيـه الذى يعمل مخرجا بالتلفزيون، وكان هو نصيب ابنتى وزوجها الذى أصبح بمثابة ابن رابع لى بسبب زيارة بريئة لصديق مريض.

انهالـت على مكافآت السـماء بعد ذلك، فحصلـت على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب وعلى وسام الجمهورية من الطبقة الأولى للعلـوم والفنون وتوالى اصدار كتبى وبدأ أكثر من باحث وباحثة فى إعداد رسـائلهم الجامعية عن أعمالى الروائية والقصصية. يوم فرح منى رقصت كما لم أرقص فى حياتى من قبل، وكان ذلك خير تعبير عـن شـكرى وعرفانى لله الذى حقق لى معظم أحـلام عمرى فى منح ربانية متعاقبة ومفاجئة.

كان لابد أن أجد شـيئا أفعله فى شيخوختى بعد ذلك، فوجدت أن أفضل ما يمكننى إنجازه ككاتب هو أن أحاول استرجاع ما مضى من تجارب فى حياتى دون التزام حرفى بسيرتى الذاتية الحقيقية،

فهذا فى رأيى أمر مستحيل، لأنه لايمكننى الكشف عن كل الأسرار الخاصة والعامة المتعلقة بحياتى وحياة الآخرين بلا استثناء.

... وهأنذا أواصل استرسالى فى: «استرسال».. وبين الحين والآخر أعود إلى رسائل نديم.. أقارن بين حالى وحاله فأسجد لله شاكرا ممنونا.

• ما بين الزهد والإرادة:

بعد بلوغى الثانية والسبعين بدأت أشعر بملل شديد من رتابة الأيام وتكرارها السخيف بلا معنى وهى تتعاقب دون جديد. أنا أعرف تماما أن الملل ما هو إلا حالة من الشلل تصيب الإرادة الإنسانية وتفقد الإنسان الشعور بأهمية أى شىء فى الحياة، ومن ثم يساق حتما نحو الاكتئاب.

إن الرسائل الإلهية العديدة التى ذكرتها تؤكد صدق مقولتى التى أرددها دائما للأصدقاء إن «ربنا مدلعنى». ذلك أنه حين اشتد بى الملل فى الآونة الأخيرة تمنيت من الله أن أغير جو حياتى بأى جديد مبهج أو مثير يقتحم حياتى دون سابق تخطيط. كان السفر إلى أى مدينة خارج الإسكندرية على رأس تلك الأمنيات.

بدأت أفكر فى المدينة التى سأسافر إليها بغرض التغيير وكسر الرتابة اليومية، وكان نهر النيل العظيم فى ضميرى، وإذا بدعوة غير منتظرة تجيئنى من المجلس الأعلى للثقافة للمشاركة فى

الملتقى الدولى للروايــة العربية لعام ٢٠١٥م، والذى كان يعقد دوما كل عامين لكنه توقف منذ قيام الثورة عام ٢٠١١م حتى الآن.

كانت فرحتى غامرة بهذه الدعوة التى ســتتيح لى قبل أى شــىء فرصة الســفر إلى القاهرة والمبيت فى فندق فاخر أمام النيل لما يقرب من أســبوع، فضلا عن لقاء الأدباء المصريين والعرب وتبادل الأعمال والأفكار، بالإضافة إلى المشــاركة الشــخصية فــى فعاليات المؤتمر. شــاركت بالفعل على إحدى موائد البحث المتعددة بتقديم بحث عن أثر وســائل الاتصالات الحديثة فى الرواية الحديثة. تستمر موائد البحــث فى أعمالهــا يوميا من الصباح حتى المســاء، تتخللها فترة راحة لتناول الغداء مرة والعشــاء مرة، مع تــرك الفرصة مفتوحة أمام الجميع للحضور أو التخلف دون مساءلة.

لم أكن أتصــور أبدا بعد تحقق هذه الأمنية على غير انتظار، أن أصــاب بالقلــق والأرق والتذبذب والــتردد، أو أن أقع ضحية صراع نفسى داخلى شديد الوطأة على أعصابى ومزاجى، لكن هذا ما حدث بالفعل. لاحظت التهافت الشــديد والتكالب الأشــد من الناس على كل شــىء، بينما أنا قادم بخبرة لابأس بها فى تدريب النفس على الاســتغناء عن كل مايمكن الاســتغناء عنه فى هــذه الحياة، وعدم الاندفاع وراء رغبات الذات التى قد انتهت من تحقيق نفسها خلال العمر المنصرم بشكل أو بآخر، ولم تكن بحاجة إلى المزيد من الإثبات وجهد التحقق. رأيت طواويس الأدب من الكتاب المصريين والعرب

سواء كانوا مشهورين أو غير مشهورين وهم يختالون فى التقاط الصور التذكارية بجوار المتلهفين إلى لقائهم والوقوف بجانبهم كأصنام مبتسمة. وجدت نفسى – دون عمد – أتجاهل بشدة تلك النماذج من البشر ولا أعرفهم بنفسى ولا أجلس معهم على مائدة واحدة، بل إننى كنت أشعر تجاههم بنفور شديد واستنكار أشد لغرورهم وإعجابهم غير المحدود بأنفسهم. لم أهد أحدا من هؤلاء أى عمل من أعمالى المنشورة والتى أحضرتها معى لهذا الغرض. اكتفيت بإهدائها إلى أصدقائى من الكتاب المصريين الذين لا يعنينى أن يكتبوا شيئا عن هذه الأعمال، وإنما الذى يهمنى ويسعدنى حقا هو أن يقرأوها.

كنت أستغرق فى التعجب من هؤلاء الناس المتزاحمين المتدافعين لإثبات وجودهم، وفى الوقت ذاته كنت أراهم على حق فيما يفعلون، فالغرض الجوهرى من المؤتمر هو تبادل المعرفة والتعارف بين الكتاب العرب ونقادهم الذين ينالون حظا وافرا من الاحترام والنفاق فى مثل تلك التجمعات.. ويصل التدافع والتكالب إلى ذروته عند الشباب فألتمس لهم العذر وهم يتقربون بشتى الوسائل إلى النقاد بصفة خاصة، ثم إلى كبار الكتاب بعد ذلك. العناوين تتبادل. أرقام الهواتف تسجل هنا وهناك. أسئلة عن أرقام الغرف حتى يمكن توصيل المؤلفات.. إذن فأنا المخطئ. أنا إنسان غير طبيعى يستخدم الزهد فى غير موضعه والاستغناء فى غير توقيته.

بين الاستغناء والرغبة أتأرجح. فجأة أجد نفسى وقد أصبحت واحدا منهم. أتبادل المؤلفات مع الآخرين. أسجل أرقام هواتفهم وغرفهم وأجلس إلى موائدهم وأدعوهم للجلوس إلى مائدتى، بل وأجد متعة فى ذلك!.. أخبرنى صديق بوجود ناقد مغربى معنا فى المطعم أصدر كتابا عن الرواية المصرية. توجهت إليه واتفقنا على اللقاء فى ندوة المساء حيث أهدانى كتابه وأهديته كتابين من تأليفى. عدت إلى غرفتى وفتحت كتابه. وجدت مايقرب من عشرة صفحات تقريظا لروايتى «الحب والزمن» وكانت دهشتى بالغة حين امتزجت بفرحة من القلب.

أرى أنه من الطبيعى أن يتدافع الشباب فى حماس لتحقيق أهدافهم فى المكان والزمان، ولو لم يفعلوا ذلك لاتهمتهم بالكسل والتواكل وقلة العزيمة، فعندما كنت فى عمرهم كنت أقاتل بشراسة لتحقيق أهدافى.. وتعاودنى حالة الرغبة فى العزلة والابتعاد فأهرب من المؤتمر ومن الفندق لأتجول فى القاهرة وحدى أحيانا، وأحيانا مع صديقى الجميل المخرج سليمان خليل الذى يصحبنى بسيارته فى كل زيارة للقاهرة إلى أماكن جديدة لم أعرفها من قبل.. ويستمر الصراع بين الحالتين مستعرا بداخلى، حتى إننى أمضيت بعض الليالى عاجزا عن النوم المستقر. بقى يوم واحد على انتهاء المؤتمر وعودتى إلى الإسكندرية.

جلست فى المطعم للعشاء إلى مائدة ذات مقعدين فقط حتى أضمن وحدتى. كنت عازفا عن كل شىء حتى عن الكلام مع الزملاء.

سيطرت علىّ مشاعر غريبة غارقة فى الغموض عن حالة الإنسان حين يطول به العمر وتتدافع فى مخيلته ذكريات الماضى منذ أيام الطفولة وحتى سنوات الشيخوخة، يعقب ذلك تفكير مكثف فى الموت الذى أصبح قريبا ولا يدرى أحد كيف يجىء. ما أغرب هذا المخلوق الذى اسمه الإنسان. تناولت طبقا صغيرا من شوربة الطماطم قبل أن أبدأ فى اختيار طعامى من البوفيه المفتوح. وضعت بعض المأكولات فى طبق وعدت إلى مائدتى. فوجئت بسيدة سمراء ذات عينين جذابتين وابتسامة ناعسة تجلس على مقعدى وأمامها طبق حساء فارغ كنت واثقا بأنه طبقى. وقفت أمامها متسائلا بعينى دون كلام. قالت مشيرة إلى المائدة المواجهة لها وكانت ذات مقعدين أيضا:

– كنت تجلس هناك.

– بل كنت أجلس هنا.. وهذا هو طبق شوربتى الفارغ.

– هذا طبقى أنا.

– لو كان الأمر كذلك فأين ذهب طبقى الفارغ إذن؟

– رفعه النادل منذ قليل ويمكنك أن تسأله.

كان حوارنا لطيفا باسما، أنهاه النادل حين جاء ليؤكد على صحة كلامها حين قال:

– بالفعل لقد كنت تجلس هناك.

فكرت قليلا قبل أن أقول له مداعبا:

– لا عليك. إننى أتلكك وأتمحك حتى أجلس معها.

ابتسم وانصرف. أما هى فقالت:

– أهلا وسهلا.

– من أى بلد أنت؟

– من السعودية.

– ما اسمك؟

– اسمى فاطمة.. وأنت؟

حديثها عذب ونظرات عينيها أكثر عذوبة. ليتنى عرفتها منذ بداية المؤتمر.. ها أنا أرغب الآن وأريد – وبشدة – ولكن بعد فوات الأوان. لم تبق عندى رواية من مؤلفاتى أهديها لها. هى الأخرى وزعت كل ما كان لديها من روايات. تبادلنا عناوين البريد الإلكترونى والفيس بوك. التقينا مرة واحدة بعد ذلك بالمصادفة. قلت لها:

– أنا لا أصدق أنك سعودية.

– لماذا؟

– أكاد أجزم أنك مصرية مئة فى المائة.

– يبدو أنك صاحب بصيرة نافذة.

– وكيف عرفت؟

– لأن أبى هو السعودى، لكن أمى مصرية وأنا صورة كربونية منها.

حين عدت إلى الإسكندرية لم تفارقنى نظرات فاطمة الطفولية وإيماءاتها الموحية بما حملته من معان حلوة بريئة. تعجبت من

نفسى فأنا منذ سنوات ست انقطع اتصالى العاطفى بالمرأة انقطاعا كنت أحسب أنه سيستمر بلا رجعة حتى نهاية العمر. بدأت حالة عزوفى عن المرأة عقب العملية الجراحية الأخيرة وما أعقبها من جلسات إشعاعية مكثفة. أعتقد أن هذا العزوف كان جزءا لا يتجزأ من حالة الاستغناء شبه الشاملة التى توصلت إليها بعد جبل من الخبرات المتراكمة التى تجاوزت السبعين عاما. كنت قد تحاورت مع الطبيب بشأن ارتباط آثار الإشعاع بقوة الذكورة وانصراف اهتمامى عن عالم المرأة انصرافا ملحوظا وغير عادى. اقترح على عقارا يعادل ذلك الأثر الضار بل وربما يقضى عليه مع الوقت. فوجئ الطبيب بقولى له فى نبرة شديدة الصدق:

– لا أريد أن آخذ هذا العقار ولا أريد حتى أن أعرف اسمه.

– أمرك غريب يا رجل.. لماذا؟...

– لأننى أتمنى أن أتحرر نهائيا من عبودية الجنس.

شرد قليلا ثم قال:

– يبدو أن معك حق، فتجاربى حتى الآن تؤكد تلك العبودية.

– تجاربك ليست محل مقارنة بتجاربى، فأنت لم تبلغ بعد الخمسين ولكنى تجاوزت السبعين وقد شربت من الجنس حتى الثمالة، كما أننى قد رزقت البنات والبنين، لذا فنسيانى لهذه الطاقة الجهنمية وإعفائى من أعبائها سيحررنى من قيد كبير

لازمنى عمرا طويلا وآن الأوان لأرتاح منه إلى الأبد، ولو أنى أشك فى قدرتى على الانفلات من سحره الجهنمى الذى لا يقاوم.

برغم ذلك فقد شدتنى هرمونات الذكورة إلى نبرات صوت فاطمة الموحية فطلبتها على الهاتف ولقيت منها ترحيبا. وعدتنى بإرسال بعض أعمالها إلى بالبريد الخاص، على أن أرسل لها أنا الآخر ببعض أعمالى.. فى نفس اللحظة أعلنت تراجعى أمام نفسى واتصلت فى لهفة بالطبيب:

– ما اسم العقار ؟!!

ويظل الصراع بين الرغبة والاستغناء يتأجج عندى حينا ويخبو حينا آخر. أصبحت أفكر كثيرا فى معنى الحياة والموت، وكثرت تأملاتى فى عبث الأقدار بالبشر وابتلائهم المتناوب بالأفراح والأحزان. أرى الدنيا تبهرنى بمفاجآتها التى تنثرها أمامى فى خبث باعثة برسائلها المتناقضة إلى كل البشر. هنيئا لسعيد الحظ الذى يستوعب الرسالة وتعسا لذلك الذى يحول غباؤه دون ذلك فتضيع عليه فرصة لم يكن يحلم بها، وربما كانت فرصة عمره التى لن تتكرر.. غير أن رمادية الحياة كما يعرفها من عرك الواقع وتعامل معه بكفاءة، لايمكن أن تقبل الخيار الأوحد بين الأبيض والأسود، بقدر ما ترفض الاستسلام إلى أحد اللونين وإقصاء اللون الآخر، فليس هناك خيار حاسم بين الزهد والإرادة أو بين الاستغناء والرغبة.

• **أنا لا أريد شيئا:**

كنت فى العشرينيات من عمرى حين وقعت على مسرحية «الحضيض» لمكسيم جوركى وترجمتها الحرفية هى: الأعماق السفلى «The lower depths». أبطال المسرحية مجموعة من الفقراء والمشردين الذين يسكنون العشوائيات ويتكدسون معا كمجموعات من حثالة البشر الضالة فى غرف صغيرة قذرة ذات دورات مياه مشتركة، وكلهم يحصلون بالكاد على قوت يومهم. أكثر ما لفت نظرى بهذه المسرحية كان الأغنية التى يرددها الإسكافى أليوشكا مساء كل يوم على الأكورديون المتهالك وهو فى حالة سكر بيّن هربا من اختناقه بحياة مزرية تعسة لا ينبغى أن تعاش. تقول كلمات الأغنية: «أنا لا أريد شيئا».. كان ومازال تأثير هذه العبارة فى عقلى ومشاعرى طاغيا. طالما تأملتها وتعقبت مدلولاتها العديدة التى حاولت أن أستوعبها على مدى سنوات العمر. لم أكن وقت اكتشافها على المستوى الثقافى والفكرى لهضم معانيها العميقة. ما معنى ألا يريد الإنسان شيئا من هذه الحياة؟.. لماذا يعيش إذن وكيف توصل إلى هذه القناعة وهل توصل إليها مرغما أم بكامل إرادته كما يقول. أغرب ما فى الأمر أننى شعرت بشىء من الحسد تجاه هذا الإنسان، وكأننى تمنيت أن أتمتع مثله بهذه الحالة الإنسانية النادرة من الزهد والاستغناء بغض النظر عن اختلاف الدوافع والظروف. غير أنه كنموذج بشرى ضال فاشل يهرب بالسكر من تعاسته، لم يكن

النموذج الذى يمكن أن أحتذى به للوصول إلى هذه الحالة، مهما بلغ إعجابى بتلك الفكرة التى يتغنى بها.

على أية حال فإن طبيعة المرحلة العمرية المتأخرة لا تترك مجالا كافيا لرفاهية الاختيار بين الاستغناء والإرادة، فالأرجح أن الشيخوخة ترغم صاحبها على الاستغناء متى كان سوى النفس خاليا من النوايا العدوانية تجاه سنة الكون والحياة والتى يمكن أن تتمثل فى التمرد والمقاومة والتجاهل لكل ما لا يجوز التمرد عليه أو مقاومته أو تجاهله من نذر الشيخوخة. برغم ذلك تبقى الحيرة قائمة عند الإنسان لو تناقضت إرادته التى انتهى إلى اختيارها مع إرادة القدر الذى قد يكون له رأى آخر، وغالبا ما يكون الأمر كذلك. فصاحبنا المخمور كذب على نفسه وراح يغنى بأنه لا يريد شيئا بينما هو مستعد لبيع نفسه لقاء زجاجة خمر رخيص يدفن فيها آلامه ويهرب بها من واقعه، فهو قد اختار قدره مثلما اختاره قدره.. أما أنا فأكرر ربما للمرة العاشرة أننى اخترت الاستغناء، ورحت أدرب نفسى عليه بنجاح غير متوقع، لكن القدر كان له اختيار آخر.

• أمسكت بالزمن:

مجنون من يدعى أنه قادر على الإفلات من مطاردة الزمن له، فما بال هذا الذى يتصور أنه هو الذى يطارد الزمن، ثم يتمادى فى تصوره بأن لحق به فأمسكه من رقبته وراح يمزقه إربا.. إنه أنا وقد

أمسكت بيدى كراسة كبيرة تحوى مئات الصفحات التى سجلت فيها ذكريات عمرى منذ كنت طالبا فى المرحلة الثانوية وحتى يوم الإثنين ٣١ يناير ٢٠١١م، حيث توقفت منذ ذلك اليوم عن تدوين مذكراتى بعد أن تحققت أغلى أمنيات عمرى بقيام ثورة عارمة انتهت برحيل مبارك وطغمته الفاسدة. لم أعد أجد رغبة فى الكتابة ولا معنى لها ولا حافز منذ أن قامت الثورة. كنت أريد البحث عن تاريخ مناسبة اجتماعية أسرية نسيته، وقد سبق لى تسجيله فى حينه بالكراسة.

بعد أن وجدت ضالتى رحت أتصفح أوراق الكراسة بفضول شديد وقد انتابنى شىء من الخوف مجهول المصدر، وكأننى أقرأ محتوياتها لأول مرة. تساءلت عما يدعونى إلى الاحتفاظ بهذه الكراسة بعد أن تجاوزت السبعين من العمر، مالم تكن لدى رغبة أكيدة فى أن يطلع عليها أبنائى وأحفادى من بعدى. كانت الكراسة قابعة فى ركنها الثابت بمكتبتى. أمر عليها وأنظر إليها مئات المرات منذ عشرات السنين. فى عمر الشباب كنت مواظبا على تسجيل أهم أحداث الحياة الشخصية والأسرية والوطنية والعالمية أولا بأول وبحماس شديد. ظل هذا الحماس يتناقص بمرور العمر، حتى وضعت نفسى اليوم فى مواجهة حاسمة مع نفس السؤال الحائر: ما الذى يدعونى إلى الاحتفاظ بهذه الكراسة؟.. هناك آلاف من الكتب المكدسة بأرفف المكتبة، لكنى لم أهتم كثيرا بمعرفة مصيرها بعد رحيلى، وإن كان

أغلب ظنى أن الأبناء والأحفاد لن يواصلوا الاحتفاظ بها. لم يزعجنى ذلك الخاطر فقد سبق أن رأيت بعينى زوجة أحد أصدقائى الكتاب تبيع مكتبته الضخمة القيمة بعد وفاته لبائع روبابيكيا بمائتى جنيه وهى تمطره بعبارات الشكر والامتنان أن خلصها من هذه الرزية التى كانت تزحم البيت دون جدوى. لكن هذا الخاطر نفسه يزعجنى حين يخص مؤلفاتى التى بلغت ثلاثين كتابا حتى الآن مابين روايات ومجموعات قصصية وموضوعات أخرى، أفنيت عمرى فى كتابتها ونشرها. الأبناء لم يقرأوها فى حياتى فماذا سيفعلون بها بعد موتى؟..

كل هذه الكتب كوم وكراسة زمنى وذكريات حياتى كوم آخر. اهتمام الدنيا والآخرة انصب عليها فجأة حين قررت تمزيقها دون أن أقع أسيرا لإعادة قراءة أى صفحة من صفحاتها حتى لا أراجع نفسى فى قرارى.. إذن فكل السنوات التى مضت من عمرى أصبح مصيرها سلة المهملات، وليس من حقى أن أحزن أو أغضب فبدنى نفسه مصيره إلى التراب والديدان.

بدأت فى تمزيق الكراسة من منتصفها بحيث تحولت إلى شطرين يسهل تمزيق كل منهما على حدة. أمسكت بالنصف الأول مترددا فى تمزيقه. كنت على وشك التراجع عن تمزيق نصف عمرى ففتحت بعض الصفحات عشوائيا ورحت أقرؤها بعينين غائمتين بضباب شجن حائر.

•• صفحات من النصف الأول:

«أخى العزيز سعيد .. تحياتى وأشواقى وبعد؛

فشكرا لك على هديتك (آلهة من طين) التى تلقيتها اليوم فى الأهرام، والتى أرجو أن أقرأها فى أقرب فرصة إن شاء الله. وتلقيت رسالتك أيضا، وأسفت جدا لحرمانى من صحبتك الجميلة للأسباب التى ذكرتها، وقد كان يعزينى تصورى أنك مشغول بتمهيدات عملك الجديد الذى أتمنى لك فيه كل توفيق.. وما عسى أن أقول؟.. لابد من اتساع الصدر وتحمل الكثير مما يكره الإنسان لكى يواصل حياته، وعلى أى حال فنحن – مستقبلا – لا نقبل أى عذر يحرمنا من رؤياك والاستمتاع بصحبتك، وإنها لمناسبة لإهداء تحياتنا إلى جميع الأحبة التى تلقاهم».. ودمت للمخلص:

نجيب محفوظ

١٩٨٥/١١/٤م

تذكرت أننى فى تلك الأيام شعرت بملل شديد من مجلس نجيب محفوظ – الذى شهد أجمل أيام عمرى – بعد أن اعتاد بعض الحاضرين كثرة الحديث عن أنفسهم وإثارة موضوعات تافهة ومجادلات عقيمة لا تخلو من المتعة الفكرية فحسب، وإنما تبعث أيضا على القرف والمرارة. بدأت مرات حضورى للمجلس تتباعد تدريجيا، ولما شعرت بالحرج من الأستاذ الذى كان يسأل الحاضرين

فــى كل مرة عن ســبب غيابى، فقــد حضرت خصيصــا لأتعلل له – كاذبا – بانشــغالى خلال ذلك الصيف بعمل هندسى خارجى مع إحدى الشــركات الخاصة. لكن بعد انتهاء الصيف وعودة الأســتاذ إلى القاهرة بعثت إليه بخطاب اعتذار صريح أوضح له فيه الســبب الحقيقــى فى إحجامى عن المواظبة على حضور الندوة بصفة يومية. جاءنــى منه ذلك الرد البليغ الذى أعطانى درســا فى أهمية وكيفية التواؤم مع المجتمع قدر المستطاع. إننى مازلت أذكر قوله لى هامسا بلهجة مرحة عند أول لقاء بعد ذلك:

– يا ســعيد معظم الجالسين لا يحبون بعضهم بعضا لكن الدنيا لازم تمشى.

وقد نشــرت هذا الكلام فى كتابى «نجيب محفوظ الإنسان» الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١١م.

تشــجعت فمزقت الشطر الأول من الكراســة بيدين مرتعشتين مهزوزتين خائفتين، ثم أمســكت بالشــطر الثانــى وتصفحته فى عجالة حين وجدت به صفحات تســجل انطباعاتى عن أحداث ثورة ٢٥ يناير العظيمة.

•• صفحات من النصف الثانى:

«يبــدو أن ارتخائى لصيق الصلة بالارتخاء الــذى أصاب الدولة علــى يــد المتحكمين فــى تقاليد أمورهــا، والذيــن لا يزيد عددهم

فـى أعلى تقديـر على أربعين شـخصا يديـرون شـئون الاقتصاد والاجتمـاع والسياسـة والثقافة. إننـى واثق من عـودة الانتصاب لكلينا – أنا والدولة – لو تم تغيير هؤلاء الأربعين واسـتبدل بهم أربعون آخرون من الشرفاء المحترفين فى تخصصاتهم، ومن الأكرم أن يتـم هذا التغيير بيدى لا بيد عمرو، وإلا سـيكون الثمن فادحا يدفعه المنتصبون والمرتخون معا، وسـيدفعه معه المتسولون وسارقو الأحذيـة من المسـاجد، والباحثون عـن الطعام بين أكـوام القمامة الملقاة بالشـوارع، وسـارقو الغسيل من المناشـر وقد عادوا للظهور من بعد اختفاء، ومنادو السـيارات وباعة المناديل الورقية، وأهالى المحترقين بقطار الصعيد رقم ٨٢٣، ومستنشقو السحابات السوداء والصفـراء فى القاهرة، وأبناء الطبقة المتوسـطة بعـد أن تهلهلت وانهـارت قيمهـا ومبادئها أمـام الفقر والظلم وإغـراء الصعود إلى الطبقات العليا بكل الأسـاليب النازلة من رشـوة ودعارة واختلاس ومتاجرة بالمهنة والسـلطة. أما طوفان الشباب العاطل فسوف يدفع الثمن حقدا وغضبا وتطرفا، حتى تحرق النار الجميع.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسـيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السـماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولاتدعـون الداخلون يدخلون. أنتم تبدأون دائمـا كالملائكة الطهار ثم تنتهون إلى شـياطين مردة، ولا تعلمون أن ذاكرتنا يقظة لا تموت. هكذا فعل عبد الملك بن مروان وكاليجولا ونـيرون وبن على التونسـى ومبارك والقذافى وعلـى صالح وحافظ الأسد ومن بعده ابنه بشار.

لم أخبر أحدا بالبيت إلى أين أنا ذاهب. توجهت إلى ميدان جامع إبراهيم لأشـهد المعجزة التى كنت أحلم بها ودعوت الله فى الكعبة أن يحيينـى حتى أشـهد وقوعها. ما إن اقتربت من المسـجد حتى رأيت آلافا مؤلفة من شـعب الإسكندرية الرائع محتشدة فى الميدان حاملة علم مصر رجالا وشـبانا وشيوخا ونسـاء وأطفالا. لم أتمالك نفسـى من البكاء الهسـتيرى الذى لم يسبق له أن حدث فى حياتى غير مرة واحـدة أثناء تمكنى من الصلاة فـى الروضة عام ٢٠٠٥م. لم أصـدق أن حلمـى قد تحقق، وكان شـكرى لله قد وصـل إلى مداه فى تلـك اللحظات برغم أن مبـارك كان هو الحاكـم الفعلى للبلاد حتى تلـك اللحظة. لكنى أيقنت أن هذا المشـهد ونظيره فى ميدان التحرير بالقاهرة وسـائر الميادين العامة فـى كل أقاليم مصر، هما إشارة تؤكد قرب رحيل الطاغية ابن محضر المحكمة محدود الدخل كشـأن أى موظف، ثم أصبح من أهم أغنياء العالم، كما تؤكد رحيل عائلته الطاغية المسـتبدة ممثلة فى زوجتـه وأبنائه، وعلى رحيل وزير الداخلية القاتل الذى اتخذ من مبارك إلها له يسبح بحمده من دون الله،.. لم يكن يعرف أن هذا الإله سـيتخلى عنه فى اللحظات الحرجة ويذهب إلى شـرم الشيخ تاركا إياه للمساجين يزفونه لدى دخوله الزنزانة مرددون الأغنية الشعبية الشهيرة:

– «يا حلوة يا بلحة يا مقمعة شرفتى إخواتك الأربعة».

* * *

مزقت النصف الثانى وألقيت به مع نصفه الأول فى سلة المهملات ورحت أبكى زمنى وعمرى فى صمت وبلا دموع.

* * *

توقفت عند هذا الحد من الاسترسال الذى ربما لا يروق للبعض، ومثلما لم يكن هناك سبب لاختيار البداية فلست أعرف السبب المؤكد الذى جعلنى أتوقف عند هذه النهاية، ولكن قبل ذلك ينبغى أن أوضح لمن تابع استرسالى أننى ذهبت إلى المحامى لأضع حدا للمهزلة النديمية التى أوقعتنى فى صراع نفسى رهيب. فشقيقى يموت الآن وربما يكون قد مات بالفعل وأنا لا أعلم عنه شيئا سوى الأوراق التى تحوى ممتلكاته وأرصدته المالية، فضلا عن النصائح المدمرة التى يرى أنه من الضرورى أن نطلع أبناءنا وأحفادنا عليها ونعلمهم – قسرا – على الالتزام باتباعها. أنا بالطبع أرفض تلك الآراء رفضا باتا، ولكنى تساءلت هل من حقى أن أخفيها عن أبنائى وأبناء أخوتى وأخواتى محتكرا لنفسى حق حمايتهم من ذلك الفكر النازى العنصرى، فلم أتوصل إلى إجابة. لقد كانت سقطته الكبرى التى أنزلته من نظرى تماما أن أنكرنى حينما أوشكت على الاهتداء إليه.. ماذا يريد إذن؟..

إنه لم يخجل من التصريح العلنى بأنه برغم دنو أجله فإنه لا يستطيع ولا يريد أن يوصى بكيفية توزيع ثروته على أهله قبل

أن يتسبب غباؤه فى أن تذهب هذه الثروة إلى الخزانة الأمريكية. هل أراد أن يساوم بنصائحه التى يتحتم على الأبناء والأحفاد أن يلتزموا بتنفيذها حتى يوزع عليهم ثروته كارها مضطرا؟..

أخيرا دلنى المحامى على اسم المستشفى الذى لم يكن يعرفه هو الآخر، وإنما توصل إليه مؤخرا بوسائله الخاصة. اندفعت بلهفة الشقيق ضاربا بكل الاعتبارات الأخرى عرض الحائط:

– أريد أن أزوره.

– أقدر مشاعرك تماما ولكن الزيارة أصبحت عديمة الجدوى.

– لماذا؟

– لأنه فى غيبوبة ولم يعد يدرى شيئا.

– أموت وأفهم لماذا تعرف أنت أخبار أخى وأنا لا أعرفها إلا من خلالك؟

– أنا وكيله ومن واجبى ألا أصرح إلا بما يصرح لى به.

– وما العمل الآن؟

– تقصد بخصوص الثروة.

ثرت فى وجهه صائحا:

– نحن لا نريد ثروته الملوثة بجراثيم الحقد والانتهازية وجنون العظمة، ونرفض شروطه اللاإنسانية ولن نطلع أبناءنا عليها.

– هو لم يشترط الإيمان بمعتقداته حتى توزع ثروته عليكم آل بيته، كما أنكم أحرار فيما تقررون، وبرغم ذلك فالثروة ستؤول

حتما إلى الأسـرة بحكم القانون وبالتعاون مع القضاء الأمريكى، فى اللحظة التى يفارق فيها الحياة.

وضعت المظروفين أمامه على المكتب قائلا بنبرة غاضبة:

– نحن لا نريد منه شيئا.

– قد يصح هذا لو كنت تتحدث عن نفسك فقط، لكن من المؤكد أن لبقية الأسرة رأى آخر.

حين وقفت للانصراف نظر إلى بخبث من تحت نظارته السميكة قائلا:

– فـى جميع الأحوال أرجو أن ترتـب لى لقاء عاجلا مع جميع أفراد الأسرة المستحقين للميراث.

كبير وسط الصغار:

ها هى الأعوام قد جرت بالعشـرات من سنين عمرى حتى بلغت بى زمنا لا يختلف كثيرا عن زمان الطفولة والصبا. أيامها كنت أشكو من ندرة الأصدقاء المقاربين لى فى العمر، فكنت أضطر إلى مجالسـة الكبـار. اليوم أعاود نفس الشـكوى من نـدرة الأصدقاء المقاربين لى فى العمر فأضطر إلى مجالسـة الصغار. معظم الكبار ماتوا. بعضهم هاجـروا. بعضهـم أقعدهم المـرض وعزلتهم أمراض الشـيخوخة. البعض فرق بينى وبينهم السـعى وراء لقمة العيش فى مدن بعيدة. آخرون متواجدون ولكن دوامة الحياة أخذتهم إلى مسـافات سحيقة فى البعد. هناك فصيل آخر من الأصدقاء الذين يعيشون أمامى ولكنى

أراهم أمواتا يستحيل التواصل معهم. لم يبق لى من أصدقاء الطفولة غير الفنان التشكيلى مجدى قناوى الذى أقعده المرض. لا أنقطع عن زيارته باستمرار لنعيش معا أحلى ذكريات العمر ونخالف تعليمات الأطباء فندخن بعض السجائر ننفث فى دخانها أيامنا الغابرة، ونستعرض معا ما قرأناه من كتب.

غير أن الله قد خصنى بنعمة كبرى لامثيل لروعتها هى نعمة الإبداع، لولاها لكنت مستسلما للعزلة أسيرا لقسوة الشعور بالوحدة والاغتراب عن العالم المحيط بى. أعرف كثيرا من الأصدقاء دمرتهم الوحدة وقتلهم الاكتئاب فاستعجلوا الموت لأنفسهم لعدم رغبتهم فى الحياة. كما أن لى العديد من الأصدقاء الذين أواظب على الالتقاء بهم صباح كل يوم فى نادى سموحة من باب الإمتاع والمؤانسة.. أشاركهم الحديث فى موضوعاتهم اليومية المكررة لمدة لا تتجاوز نصف الساعة، ثم أختلى بكتبى وقلمى وأوراقى فى حديقة النادى لما يقرب من ساعتين، أستمع بعدهما من هاتفى إلى نصف ساعة من أغانى عبد الوهاب القديمة أغادر بعدها النادى إلى البيت. الطعام الذى تعده جميلة لى لايدانيه فى الروعة طعام فى الدنيا. أشم رائحته وأنا أصعد السلم فأميزه من بين أى طعام يعد فى شقة أخرى بالمنزل. أصبحت شهوة الطعام إحدى المتع الرئيسية فى حياتى فضلا عما ذكرته من متع.

فى المساء بعد أن أفرغ من قراءاتى المختارة، أتسلى مع أصدقاء العالم الافتراضى المدعو بالفيس بوك، ولست أنكر أنه يحقق لى

متعــة فائقة، خاصة حين أنشــر به مقتطفات من كتاباتى وأســعد بتعليقــات قرائى وأتحــأور معهــم، وأعرف أخبار بــلادى وأهم الأحــداث التى تجرى فى العالم دون أن أنخرط بعمق فى السياســة التى لم تعد تســتهوينى كما كان الحال من قبل. أحيانا أعزف على العود وأحيانا أشاهد الأفلام الكوميدية القديمة ذات اللونين الأبيض والأســود، أوأذهب إلى جميلة فى غرفتها فأعاكسها وأطمئن عليها.

وأخيرا لم يبق لى فى هذا العالم من حب نقى برىء جارف يملك على كل مشاعرى، غير حب حفيدى الأول ياسين الذى بدأ منذ أيام فى محأورتــى بالانجليزية بعد أن وصل فى الروضة إلى مرحلة كى جى تو، حين فاجأنى بقوله بثقة تامة ردا على سؤال طرحته عليه:

– I know every thing!!!!!

خلق منى ياســين انســانا جديدا وأعادنى إلى مشاعر الأبوة التى حرمت منها فعشــتها معه، وإلى مشاعر الطفولة التى قاسيت فيها فغمرنــى بفيض جمالهــا وعذوبتها. لو قدر لى أن أعيش لســنوات أخرى فلسوف يكون أحفادى القادمين هم أصدقائى الحقيقيين الذين سأمضى معهم بقية عمرى.

البحر:

يا جب أسرار العشق وتباريح الهوى. يا مليك الحب والانطلاق. لم يتغير فيك شىء بينما تغيرت أنا فى كل شىء. أمواجك ما زالت تعلو وتهبــط حاملة معها ضحكات الصبا والشــباب وقصص الحب

ودموع فراق الأحباء. تحلق نوارسك البيضاء فى فضائك فأجوب معها بقاع الدنيا حيث البحار والمحيطات والبشر والحكايات. تبعث برسائلك إلى البر مع طحالبك الخضراء وأصدافك غامضة الألوان ونسماتك الرطبة المنعشة المشبعة بحب الحياة. علمتنى فى طفولتى متعة التأمل فى إبداع الاله وعظيم صنعه، ولما صرت شيخا أصبحت ملاذى الذى أفضفض له بأسرارى وأفراحى وأشجانى فيبادلنى البوح بأنغامه الساحرة الباعثة على الرضا والأمل والتوكل والأمان.

بقايا جنون شبابى لا تنجلى إلا أمامك. فهأنا بداخل القارب مع أصدقائى نستمع إلى موسيقا الشباب الصاخبة ونشرب ونضحك ونغنى ونرقص ونطبل ونصفق، غير عابئين بشىء فى هذه الدنيا على الاطلاق. نلقى بعلب البيرة الفارغة فى الماء وندخن بشراهة رغم جلطات القلب وتصلب الشرايين. المحبة تغمرنا والبهجة ترفرف من حولنا وكآبة واقعنا الوطنى ساقطة منا عن عمد فى بئر النسيان. الوقت المتبقى قليل لايتسع للكآبة والأحزان. دورنا فى الحياة قد انتهى وسلمنا الراية للأبناء والأحفاد فلا مفر أمامنا من استقطار الفرح والبهجة حتى الرمق الأخير. هأنا أتجرد من ملابسى فجأة مطلقا صيحة صبيانية مترعة بالسرور والغبطة، وأقذف بنفسى إلى البحر عاريا كما ولدتنى أمى لأذوب فى أحضان عروس البحر، وسط صياح وتصفيق الصحاب وقهقهاتهم النابعة من قلوبهم وعشقهم للحياة.

سعيد سالم

الإسكندرية فى نوفمبر ٢٠١٥م

تعريف بالكاتب «سعيد سالم»

سعيد محمود سالم – من مواليد الإسكندرية ١٩٤٣م.
Email,,,saidsalem170@hotmail.com,,saidsalem62@yahoo.com
face book: saeed salem

– عضــو اتحاد كتاب مصر وعضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنــون والآداب وعضــو أتيليــه الفنانين والكتــاب وعضو لجنة النصوص الدرامية باذاعة وتليفزيون الإسكندرية سابقا.

– حاصل على ماجستير الهندسة الكيميائية من جامعة الإسكندرية ١٩٦٨م.

– رئيس قطاع سابق بشركة الورق الأهلية بالإسكندرية وحاليا على المعاش.

– عنوان المنزل : ٥ شارع على باشا ذو الفقار – شقة ١٠ – مصطفى كامل / الإسكندرية.

– تليفون منزل : ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣). – محمول ٤٣٩٠٢٥٩ / ٠١٢٢

الروايات (١٦ رواية):

– «جلامبو» جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٦م.

– «بوابة مورو» جماعة أدباء الإسكندرية.

- عمالقة أكتوبر- هيئة الكتاب، مصر ١٩٧٩م
- «آلهة من طين» (طبعة أولى) هيئة الكتاب، مصر ١٩٨٥م/ (طبعة ثانية) دار الجليل، دمشق ١٩٨٦م.
- «عاليها أسفلها» (طبعة أولى) مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق/ سوريا ١٩٨٥م.
- «الشرخ» دار طلاس، دمشق/ سوريا ١٩٨٨م.
- «الأزمنة» روايات الهلال ١٩٩٢م.
- «عاليها واطيها» (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر ١٩٩٢م.
- «الفلوس» دار المستقبل، مصر ١٩٩٣م.
- «عاليها أسفلها» (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥م.
- «الكيلو ١٠١ الوجه والقناع» طبعة خاصة ١٩٩٧م وطبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩م.
- «حالة مستعصية» دار الهلال ٢٠٠٢م.
- «كف مريم» مطبوعات اتحاد الكتاب ٢٠٠١م.
- «الشيء الآخر». دار ومطابع المستقبل ٢٠٠٤م.
- الحب والزمن. (نشرت مسلسلة بجريدة الدستور على ١٣ حلقة) عام ٢٠٠٧م ثم بروايات الهلال عام٢٠١١م.
- المقلب – مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٩) – الفصل والوصل هيئة الكتاب – ٢٠١٦م – استرسال (تحت النشر).

المجموعات القصصية :(١١ مجموعة قصصية)

- «قبلة الملكة» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٧م.
- «رجل مختلف» هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥م.
- «الموظفون» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١م.
- «الجائزة» دار قايتباى للطباعة والنشر، مصر ١٩٩٤م.
- «الممنوع والمسموح» مختارات فصول. مصر ٢٠٠٢م.
- «أقاصيص من السويد» الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م.
- «قانون الحب» سلسلة الكتاب الفضى. مصر٢٠٠٦م،
- هوى الخمسين (نهضة مصر)٢٠١١م،
- الكشف. (هيئة الكتاب) ٢٠١٣م
- المعضلة الكبرى. هيئة قصور الثقافة ٢٠١٦م
- رحيق الروح (المجلس الأعلى للثقافة – تحت النشر).
- كتاب نقدى بعنوان «الإسكندرية ٢٠١٠م فيض من الإبداع المتألق». صدر عن مكتبة الإسكندرية ٢٠١٦م.
- كتاب بعنوان «نجيب محفوظ الإنسان» صدر عن سلسلة نجيب محفوظ. هيئة الكتاب ٢٠١١م.

القصص القصيرة منشورة بالجرائد والمجلات الآتية :

الأهرام – الأخبار – الجمهورية – المساء – أكتوبر – حواء – مايو – الهلال – الثقافة – الكاتب – إبداع – آخر ساعة – روز اليوسف – القصة – عالم القصة – أمواج – الإسكندرية – الأيام – البحث – تشرين – الموقف الأدبى – الثورة – الأسبوع الأدبى – الكتاب العربى – البيان – الأنباء – العربى – الفيصل – المجلة – الحرس الوطنى – الشرق الأوسط – الدستور – الرأى – – صباح الخير – الناشر – العربى – الكويت.

المسرح: الجبلاية (مسرحية كوميدية ٣ فصول) – الدكتور مخالف (مسرحية كوميدية ٣ فصول).

نماذج من الدراما الإذاعية والتلفزيونية:

حجر النار – العائد – سباق الوهم – بوابة مورو – زارع الأمل – رحلة الصعود والهبوط – رجال من بحرى – الدكتور مخالف – أحلام الناس الطيبين – عيون الليل – مفتاح السر – الحب والزمن وغيرها وهى مسلسلات إذاعية شهرية بإذاعتى الإسكندرية والقاهرة، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية وبرنامج عالم القصة.. والمسلسل الكوميدى التلفزيونى «عاليها واطيها» إنتاج صوت القاهرة ٢٠٠٨م .. والمسلسل التلفزيونى الدرامى «المقلب».. تحت التنفيذ.

فى النقد الأدبى :

مجموعة مقالات نقدية عن أعمال بعض الكتاب العرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

أهم الجوائز:

١ – الجائزة الأولى عن رواية «الأزمنة» فى مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية ١٩٩٠م.

٢ – جائزة الدولة التشجيعية فى القصة لعام ١٩٩٤م عن مجموعة (الموظفون) الصادرة عام ١٩٩١م عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق.

٣ – جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١م عن رواية «كف مريم».

٤ – جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠١٠م عن رواية المقلب.

٥ – جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام ٢٠١٢م.

٦ – وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ٢٠١٣م.

obeikan.com

الفهرس

المقدمة ٣
الفصل الأول: حكايات الصبا والشباب ٧
الفصل الثانى ٢٧
الفصل الثالث ٤٥
الفصل الرابع ٦٩
الفصل الخامس ٨١
الفصل السادس ٩٣
الفصل السابع ١١١
الفصل الثامن ١٥٥
الفصل التاسع ١٧٧
الفصل العاشر ٢٠٧
الفصل الحادى عشر ٢١٧
الفصل الثانى عشر ٢٣٣
تعريف بالكاتب «سعيد سالم» ٢٨٢

obeikan.com